ماثيو باتلز

مكتبة

المكتبات:
تاريخ مضطرب

ترجمة : أسامة إسبر

صفحة 7

Library

an unquiet history

Matthew Battles

مكتبة
t.me/soramnqraa

المكتبة

تاريخ مضطرب

ماثيو باتلز

ترجمة: أسامة إسبر

صفحة ٧

صفحة ٧

كتاب
المكتبة: تاريخ مضطرب
المؤلف
مائيو باتلز

الطّبعة الأولى: 2024
التّرقيم الدّوليّ
978-603-8387-87-0
رقم الإيداع
1445/13824

Copyrigt©2003 by Matthew Battles

حقوق التّرجمة العربيّة محفوظة
© صفحة سبعة للنّشر والتّوزيع
E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

مكتبة
t.me/soramnqraa

جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تُعبّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

الفهرس

عرفان بالجميل 5
الفصل الأول: قراءة المكتبة 9
الفصل الثاني: حرق مكتبة الإسكندرية 33
الفصل الثالث: بيت الحكمة 77
الفصل الرابع: معركة الكتب 111
الفصل الخامس: كتب للجميع 153
الفصل السادس: معرفة مصيرها النَّار 201
الفصل السابع: ضائع على الأرفف 247
ملاحظات حول المصادر 277

عرفان بالجميل

أتقدم بخالص امتناني لكل من رافقني في رحلة تأليف هذا الكتاب. بادئ ذي بدء أنا مدين لدونوفان هوهن، الكاتب الموهوب والمحرر العبقري والصديق الوفيّ الذي نجح في الوقت الذي أمضاه في دار هاربرز للنشر في أن يؤلف بسرعةٍ مقالةً جيدة من رسائل البريد الإلكتروني المائة، أو التي تقارب المائة غير المترابطة التي أرسلتها إليه، كي تُنشر في مجلة. أنا ممتنٌ لـ: مثابرته، وذوقه، وإيمانه الصادق.

تنتشرُ أجزاءٌ من هذه المقالة: (ضائع وسط الرفوف: صعود وهبوط مكتبة الجامعة، مجلة هاربر، كانون الثاني ٢٠٠٠)، في أنحاء الكتاب في صيغ مختلفة جدًّا. وظهرت أجزاء من الفصل الثاني في مقالتي: «الحرق ليس الطَّريقة الوحيدة لضياع الكتب»، وهي مراجعة لكتاب «مكتبة الإسكندرية: مركز التعلم في العالم القديم» (مذكور في مكانٍ آخر) التي ظهرت في عدد ١٣ نيسان ٢٠٠٠ من مجلة *«لندن ريفيو أوف بوكس»*.

أرسلت جزءًا من الفصل الثاني ليكونَ جزءًا من كلمة لمؤتمر تاريخ المكتبات في الولايات المتحدة في مقر شركة المكتبات في فيلادلفيا في نيسان ٢٠٠٢، وأقنعتني سوزان باري، وكيلتي، أنَّ الكتابات السابقة الذكر عن حياة المكتبات يمكن أن تشكل بداية لكتاب.

ساعدتني أيضًا في العثور على طريقي إلى دار نشر دبليو. دبليو نورتون والمحررة ألين ساليرنو ماسون التي لولا توجيهها وحكمتها لخرج هذا الكتاب عن مساره في نقاطٍ عديدة أثناء تأليفه. وتولى أوتو سونتاغ، محرري في نورتون، مهمة إخضاع مخطوطتي غير المروضة. ومتّنتْ جهوده الكتاب بشكلٍ لا يُقاس. أنا مدين أيضًا لرافي ميرشانداني، محرري في دار هاينمان في بريطانيا، الذي قدم دعمه، وانعكست عبقريته في العناوين، قبل وقت طويل من العمل على طبعة المملكة المتحدة. كما أشكر نانسي فيش من مكتبة هارفارد أيضًا على رأيها السديد حول العنوان.

في روما أنا ممتن لفرصة الإقامة في الأكاديمية الأمريكية، حيث استفدت كثيرًا من الرفقة اللافتة لأشخاص هناك ومن القُرب السعيد للأكاديمية من الفاتيكان. وقدم ماسيمو سيريسا، أمين مكتبة المراجع في مكتبة الفاتيكان، الحكمة والضيافة. وكان طلابه في كلية المكتبات في الفاتيكان كرماء بوقتهم ووجهات نظرهم حول عالم المكتبة في أوروبا.

استضافتني في لندن: ابنة عم زوجتي ألثيا جرينان، وزوجها جافن، وبناتهما أنا وعائلتي، وقضينا أسبوعًا ممتعًا في شقتهم في إيست دولويتش، وقرأ الصديقان الجيدان والكاتبان الكبيران جيمس باركر وجوشوا غلين مسودات أولية عدة، وكان صبرهما وبصيرتهما جوهريين لي.

أدين بكثيرٍ من الامتنان أيضًا لزملائي وأصدقائي كلهم في هارفارد الذين لولا جهدهم الذي لم يكل، لما ازدهرت المكتبة

الجامعية. وكان أمناء المكتبة والموظفون الآخرون الهيئة الحقيقية التي أشرفت على دراستي لمادة المكتبات والتخصص فيها حين كنت طالب دراسات عليا. أنا مدين على وجه الخصوص لـ: بيتر أكاردو، وآنا آرثر، وماريك كورنيلوفيتش؛ لصداقتهم وآرائهم العميقة، ولأندراس رايدماير؛ لـ: ذكائه، وصبره، وكرمه، ولأمين المكتبة في مكتبة هوتون وليام بي ستونمان، وأخصُّ بالذِّكر كينيث كاربنتر أمين المكتبة، والباحث الذي يتمتع بذكاء شديد، ورعاني في سنواتي الأولى في أثناء عملي في المكتبة، وواصل توجيهه، وزاد حياتي المهنية ألقًا.

كما أتوجه بجزيل الشكر بالطبع إلى زوجتي وأولادي الذين شكّل دعمهم وحبهم إلهامًا دائمًا.

وأشكر على وجه الخصوص زوجتي زبيكا شليسنغر التي سمحت لي أن أقرأ لها إلى أن تنام مسودَّاتٍ عديدة، بينما كنت أكتب هذه الكلمات كانت في الخارج مع الأولاد تتبلل من بنادق الماء وتتحمل نزق الأطفال لتمنحني الفرصة لاستكمال كتاباتي.

الفصل الأول

قراءة المكتبة

(يقول الزنادقة: إنَّ الهُراء عادي في المكتبة، وإنَّ الانسجام المعقول، أو حتى المتواضع والنقي، هو استثناء إعجازي).

خورخي لويس بورخيس، مكتبة بابل

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين التحقتُ بعملي في مكتبة وايدنر في هارفارد كان أوّل خطأ ارتكبته على الفور هو محاولة قراءة الكتب. أُصبتُ بدُوار لا يمكن مقاومته كالذي شعرت به شخصية الروائي توماس وولف يوجين جانت في رواية: «حول الزمن والنهر» وهو يفتش رفوف الروايات في مكتبة وايدنر:

كان يسير بين أرفف المكتبة في الليل، يسحب الكتب من ألف رف ويقرأها كالمجنون. ستدفعه فكرة هذه الأرفف الكثيرة من الكتب إلى الجنون. كلما قرأ، بدا أقل معرفة. وكلما ازداد عدد الكتب التي قرأها، بدا عدد التي لم يتمكن من قراءتها لا يُحصى وأضخم وأكبر. كان يقرأ بجنون، بـ: المئات، والآلاف، بل عشرات الآلاف.

طعنتْه في الصميم فكرة أن كتبًا أخرى تنتظره وتخيل نفسه ينتزع أحشاء كتاب كما ينتزع أحشاء طائر.

كان التكلّف في سلوك جانت ردًّا على التناقضات التي يواجهها أي شخص في المكتبة.

حين يقوم قارئ بلمس الرفوف رافعًا الكتب ومختبرًا ثقلها، ومتأملًا تموضع أشكال الحروف على صفحة العنوان، ومتفحّصًا العلامات التي تركها قرّاء آخرون يتحول الأمر في حد ذاته إلى معرفة مخادعة، ويبدو ما يبقى مجهولًا كأنَّه يومِئ من بين الأغلفة ومن بين السطور.

يستيقظ القارئ في المكتبة من حلم التواصل مع كتاب واحد، ويندفع مذهولًا؛ كي يتعرّف على مادية العالم عن طريق العدد الهائل من الكتب المجلدة فنيًّا، وصوت الصفحات وهي تُقلب، وتمسيد الغلاف، والرائحة الكريهة للكتب المجموعة معًا في أعداد كبيرة.

بطبيعة الحال، إنَّ تجربة الصفة المادِّية للكتاب أقوى في المكتبات الكبيرة، حيث يبدو الوزن المتراكم للكلمات المدونة كأنه يمارس جاذبية خاصَّة به. وهناك عدد قليل من المكتبات أكبر من وايدنر، لم تسلب لب توماس وولف فحسب، بل أغوتني أنا وآخرين لا يُحصى لهم عدد أيضًا.

وهبتْ هذه المكتبة، وقدمتْ المال اللازم لبنائها الأم المفجوعة لهاري إلكنز وايدنر، خريج هارفارد ومحب الكتاب المقدس الذي غرق مع سفينة التايتانيك، غير أنَّ وادينر مكتبة عظيمة غير قابلة للغرق. ذلك أن طوابقها العشرة تحتوي سبعة وخمسين ميلًا من الأرفف، تكفي لحمل ما يقارب أربعة ملايين وستمائة ألف كتاب.

أما الرفوف، فهي هياكل داخليَّة عظيمة مصنوعة من الحديد

المطروق، وتقوم بحمل ثقل البناء، وأعني بذلك أنَّ الكتب تشكل دعامة لبناء المكتبة.

لا يعملُ في المكتبة أمناء مكتبة ورعاة وأساتذة جامعيون فحسب، بل أيضًا: نجارون، وسعاة، وطباخون، ومحاسبون، وطلاب، ومرتّبو أرفف يداومون دوامًا جزئيًّا، ومشرفو مواقع، ومديرو شبكات، ومستشارو موارد بشرية.

إنها دولة المدينة في مركز كونفدرالية كليات هارفارد ومجموعات الأقسام التسعين تقريبًا التي يبلغ عدد كتبها ١٤ مليون مجلد. وإذا ما جُمعت معًا، فإنها تشكل أضخم مكتبة أكاديمية عرفها العالم.

هناك ممرَّات بين أرفف مكتبة وايدنر المغبرة: أحدها يقود إلى مستودع الوثائق الحكومية الذي قرأتُ فيه إحصاءات الهنود تسجل عدد المنازل المصنوعة من الطين والأعشاب، وعدد ناسجي السلال وصابغي الجلود الذين يسكنون في القرى كلها في أُوتّار براديش، أو في كشمير. ويقود ممرٌّ آخر إلى أرفف تحمل المجموعة المسرحية، وإلى «أقفاص إكس» التي تخفي كتبًا بأحجام وقياسات غريبة، أو مطبوعة على ورق عُدّ هشًّا لا يمكن وضعه على الرفوف المكشوفة، أو من طبيعة غير محتشمة بالنسبة إلى طلاب جامعيين من حقب مختلفة. وتوجد أكوام من صناديق رقيقة فيها مقالات في فقه اللغة مكتوبة بخطٍّ انسيابيّ من القرن التاسع عشر، وحافظات أوراق محشوة بنسخ مطبوعة باللغة الجورجية وصور نسخ لمخطوطات ابن رشد. وثمة مجلدات مفتتة من النشرات المناهضة للمهاجرين، ومجلات أمريكية داعمة للنازية عُزلت ليس بسبب الأفكار التي تحتويها، بل لأن

الحمض في أوراقها التي تعود إلى مرحلة الكساد سبّب تآكلًا بطيئًا لها، وعثرتُ في هذه الزاوية من المكتبة المقفلة التي نادرًا ما تُزار على كتاب بعنوان: «الجيش الألماني: لعبة لينغو لغوية».

يتألف الكتاب من علبة من أوراق اللعب بحجم علبة سجائر غير مفلترة مع كتيب تعليمات يقول: «يتطلب استجواب أسرى الحرب على الجبهة الأوروبية قاموس مفردات خاصًّا تتعلمه عن طريق لعب الورق والتمتع به». وتحتوي أوراق اللعب عبارات مفيدة كهذه: «ليس هذا وقت المجادلات، اخرجْ»، و«بالرغم من أكاذيبك كلها أنوي أن أمنحك فرصة أخرى». ويقول عنوان مرافق خاص باليابانيين: «إن معظم كتيبات اللغة للسياح. ليس هذا. هذا للجنود الأمريكيين والبحارة المنخرطين في إلحاق هزيمة ساحقة باليابانيين».

لكن المكتبة، خاصَّة إذا كانت بهذا الحجم الكبير، ليست مجرد خزانة أشياء مثيرة للفضول، بل عالم لا يكتمل مليء بالأسرار. وهي كعالم لها أطوارها المتبدلة وفصولها التي تكذّب الاستمرارية التي تشير إليها مراتب الكتب المرتبة. وحين تشدها جاذبية رغبات القراء تتدفق الكتب داخل المكتبة وخارجها كالمد والجزر، ويتحدث الأشخاص الذين يرتبون الكتب على الأرفف في مكتبة وايدنر عن تنفس المكتبة.

ففي بداية الفصل، تقوم الرفوف بزفر الكتب في سحب ملتفة كبيرة، وفي نهاية الفصل، تستنشق المكتبة، فتطير الكتب عائدة.

وهكذا، فإن المكتبة جسد أيضًا، وأوراق الكتب مضغوطة معًا كأعضاء في الظلام.

أستطيع -بين أرفف مكتبة وايدنر- أن أخدع نفسي أكثر من أي مكانٍ آخر بأن الكون مؤلَّف من تنويعات بلا نهاية لعنصرٍ واحد هو الكتاب، وأنني أنا أيضًا مصنوعٌ من الكتب مثل الشخص الظاهر في لوحة جيوسبي أرسيمبولدو التي تحمل اسم: «أمين المكتبة».

ذلك أنَّ بلاط راعي أرسيمبولدو، رودولف الثاني في براغ، مزج بحرية بين العقلاني واللاعقلاني، وبين الأسطوري والتجريبي. واختلط تايكو براهي وجوهانز كبلر مع السيميائيين والمنجمين.

استمتع أرسيمبولدو بالتناقضات التي أحاطت به، وتجسّد هذا الاستمتاع - والكشف- في لوحته أمين المكتبة، وهو شخص مصنوع من الكتب، وهو ليس كتابًا واحدًا، بل مكتبة كاملة، فخدّاه وشفتاه كتب منمنمة من النوع الذي انتشر في زمن أرسيمبولدو يحتوي صلوات وتراتيل خاصَّة بالعبادة. بالمقابل، ذراعه اليمنى عبارة عن مجلد من الأوراق الثقيلة والأوراق التي تنتأ من رأسه معلّمة وهي غير مطبوعة، بل مكتوبة بخط اليد، وغير قابلة للقراءة إلا من الأعلى.

تشكّل لدي بين رفوف المكتبة (هذه أو غيرها) الانطباع المتميز بأن مجلداتها المقدرة بالملايين يمكن أن تحتوي فعلًا على شمولية التجربة البشرية. لا أعني أنها تصنع نموذجًا للكون، بل هي نموذجه. وحين أنزل على الدرج الرخامي الذي هرّأته الأقدام داخلًا في أحشاء البناء، وأمرّ عبر طبقات متلاحقة من الكتب ذات الرائحة النفَّاذة، غالبًا ما يذهلني الإحساس بأن كل شيء يحدث في الخارج يجب أن يكون له نظيره المطبوع في مكانٍ ما على الأرفف.

كان من السهل الانغماس في أحلام يقظة صوفيّة، وإعادة ترتيب حالمة بالكتب تكشف ألغاز الكون ووجود عقل أول (لوغوس) سري معادل للاسم السري لله.

أين يمكن أن نعثر على صيغة حجر الفلاسفة بين الكتب الثلاثة والأربعين المنشورة في بوتان في ١٩٨٣، أو الكتب الواحد وثلاثين ألفًا وستمائة واثنين المنشورة في الصين أو الألواح الثلاثين ألفًا في مكتبة آشور بانيبال في نينوى التي فُقدت منذ وقت طويل، أو المخطوطات الثلاثمائة ألف التي أُحرقت حين أشعلَ القيصر سفنه في الإسكندرية؟ عن أي صحيفة من الصحف اليومية الثماني لساموا الغربية يجب أن نبحث؟ هل نُقل اسم الله إلى مجلّدي الكتب في مخطوط ممزق سُرق من كاتدرائية ساليسبري في أثناء العهد المضطرب لحكم هنري الثامن، أم شُفّر اسمه بين بعض أرقام كتب الأطفال الألفين وستمائة وخمسة وثلاثين التي نُشرت في إيران وحدها في ١٩٩٦؟ ثمة خطر بسيط في هذه الأخيلة: ذلك أنه إذا كان يمكن اختزال العالم في مكتبة، إذًا لماذا لا يمكن اختزاله في كتابٍ واحد؟ ولماذا لا يمكن اختزاله في كلمة واحدة؟

ازدادت مجموعات مكتبات الأبحاث في هارفارد وأمكنة أخرى مائة ضعف من سبعينيات القرن التاسع عشر إلى تسعينيات القرن العشرين، وفي بعض الحالات إلى ألف ضعف.

(جيوسيبي أرسيمبالدو، أمين المكتبة، ١٥٦٦. حصلنا على الإذن من سكوكلستر كاسل، السويد).

وسبّب هذا السيل الجارف من الكتب صدمةً مزعجة وقلقًا لدى كثيرٍ من النَّاس. من لديه الوقت كي يقرأ هذه الكتب كلها؟ إن كتاب: «تقويم أمين المكتبة القديم» الذي يعود إلى القرن الثامن عشر المشكوك بأمره، (في الحقيقة هو كتاب زوّره أمين مكتبة في بوسطن في أوائل القرن العشرين)، يمجّد فضائل أمين مكتبة يشق طريقه باجتهاد وسط غبار الكتب في أثناء تأدية واجبه، وكان لديه الوقت كي يقرأ جميع المجلدات، وحين ينهي آخر كتابٍ يبدأ من جديد.

لا يستطيع أمين المكتبة في مكتبة الأبحاث اليوم أن يكمل هذه المهمة في فترة حياة، ولا في ثلاثمائة فترة حياة وطبعاً هذه المجموعات

غير نهائية.

ذلك أن مكتبة الكونغرس، التي هي أضخم مكتبة في العالم، تضيف كل يوم تقريبًا سبعة آلاف كتاب إلى المائة مليون كتاب التي مرصوصة على ٥٣٠ ميلًا من الأرفف.

أضفْ إليها المطبوعات التي ننتجها كل يوم على: حواسيبنا، وفاكساتنا، وناسخاتنا، علاوة على ما يتجاوز ٨٠٠ مليون صفحة على شبكة الإنترنت العالمية، يصبح واضحًا أننا نواجه سيلًا غامرًا.

يجبرنا هذا الطوفان من المطبوعات على طرح السؤال الآتي: كيف نرتبها كلها؟ حتى وقت قريب، أعني في المائتي عام الأخيرة، التي تشكِّلُ فترة زمنية قصيرة للمكتبة، كان بوسع أمناء المكتبة أن يعدّوا أنفسهم بين الأتباع الرواقيين لسينيكا الذي قال في كتابه «الرسائل الأخلاقية»: «لا يهم كم لديك من الكتب، بل المهم كم هي جيدة».

كانت مكتبة سينيكا مكانًا للمعايير، وأحبُّ أن أدعو هذا النوع من المكتبة المكتبة «البارناسية»، ذلك أنها على -غرار دلفي- معبدٌ بُني على سفوح جبل بارناسوس، ذلك الجبل المقدس لأبولو وربات الإلهام. وكانت الكتب في هذه المكتبة مقطرةً جوهرَ كل ما هو جيد وجميل (في الصيغ الكلاسيكية) أو مقدس (في الصيغ القروسطية)، وقُصد أن يكون نموذجًا للكون، ومجموعة منسقة بدقة من المُثُل.

بالمقابل، لا تُعامل الكتب في المكتبة الكونية كجواهر ثمينة مميزة، على الأقل ليس في المقام الأول. عوضًا عن ذلك، يُنظر إليها كنصوص وأنسجة يجب أن تُمزق وتُنسج معًا في تركيبات ونماذج جديدة مثل النجوم في السماء أو أزهار لينايوس. ويجب ألا يُثنى

عليها من أجل تأثيرات أو مواصفات خاصَّة، بل يجب أن تُحصى وتُصنف قبل أن تُصبحَ مرغوبةً.

منح سينيكا المتأفف مكتبة بارناسان الانتقائية شعارًا مناسبًا؛ كي يُنقش في العاصمة الرومانية فوق الأبواب.

أما توماس جيفرسون (الذي شكلتْ كتبه نواة مجموعتيْ جامعة فيرجينيا ومكتبة الكونغرس)، فقد قدّم للمكتبة الشاملة التراكمية عقيدة مغايرة لا تلين: «إن كتاب المكتبة ليس مادة للاستهلاك فقط، بل هو إلى حدٍّ ما رأسمال». كما أن كل نوع من أنواع المكتبات هو أيضًا دليل على طبيعة الكتب، تقطّر وظائفها: الاجتماعية، والثقافية، والصوفية. وما تعنيه الكلمة للمجتمع - سواء أكان نَفَسَ الله أم ربات الإلهام موطن الجمال والخير زئير رياح التجارة، أم خليطًا غامضًا من هذه الأشياء - هذا ما تحفظه المكتبة.

في النهاية، قد تكون هناك عقيدة مشتركة يمكن بمقتضاها أن تتوحد مكتبة البارناسان والمكتبات الكونية مع مفاهيمها المرافقة للكتاب والكلمة.

وإذا كان الأمر على هذا المنوال، فربما هي التي قدمها ستيفن مالارميه الذي عبّر على نحو أفضل عن تجربتي في المكتبة حين قال: «كل شيء في العالم يوجد وينتهي في كتاب».

في كتابه: «مقالات في النحوية»، ينطلق جاك ديريدا ليبيّن أن الكتابة ليست مجرد نظام ثانوي من الرموز للكلمة المنطوقة، أو ليست «أثرًا للأثر»، بل هي، باختصار، شيئها الخاص. لم يكن بحاجة إلى النَّظر إلى أبعد من المكتبة الشاملة كي يدعم رأيه؛ لأن الكلمة المكتوبة تتخذ فيها

حياة خاصَّة بها في خليط الكلمات الافتتاحية، والمحددات الواضحة، وشعارات الناشر، ووجهي الصفحة، والمخطوط اليدوي بـ: الحرف البوصي الكبير، والحرف البينيفتاني، والحرف الميروفينجياني المضغوط في الرقوق الممسوحة، والمخطوطات التي فيها فجوات غير مملوءة وفي الصفحات المخيطة من: الكتب الكبيرة ذات الشَّكل المستقيم، والكتب الصغيرة ذات الشَّكل المستقيم، وكتب قطع الأربع والستين، وخطوط السلسلة أو العلامات المائية في: الكتب الأولى المطبوعة، والأقراص المضغوطة، والقوانين وفهرس الكتب الممنوعة، وفي بطاقات الموضوع والمؤلف والعناوين، والحقول الفرعية والأخطاء المطبعية في سجلات البيانات.

اعتقد روجر بيكون على غرار فلاسفة آخرين من العصور الوسطى اللاتينية أن ثلاث فئات من المادة قادرة على القيام بالسحر هي: العشبية، والمعدنية، واللفظية.

وبما أن أوراق الكتب من النسيج وأحبارها من كبريتات الحديد والسخام وكلماتها لفظية، فإنها تجمع بين الفئات الثلاث.

وشاعت في تراثات كثيرة فكرة أن للكلمات وجودًا مستقلًا عن نطقنا لها مثل النباتات والأحجار، أي: إن لها قدرة على فعل أشياء في العالم. وحين تُجمع الكتب في أعداد كبيرة، وتُكوم وتُختزل إلى أحجام أصغر، وتُقرأ وتُنسى، فإنها تتخذ في المكتبة حيوات وتواريخ خاصَّة بها، لا باعتبارها نصوصًا، بل باعتبارها أشياء مادية في العالم.

دعوني أقدّم مثالًا واحدًا من المكتبة التي أعمل فيها: في عام ١٥٠٣ في سافونا بإيطاليا، أصدر الناشر فرانسيسكو دي سيلفا الطبعة الأولى من كتاب: «قاموس المؤلفين الكلاسيكيين» لدومينيكو ناني ميرابيللي

الذي يحتوي خلاصة وافية شعبية.

بِيع الكتاب مثل جميع الكتب الأخرى دون تجليد فني، وفي خياطة مرتخية الخيوط. كان المشترون يأخذون الصفحات المطبوعة حديثًا إلى مُجلّد كتب، فيجلدها بغلاف بسيط أو مزيّن، أو يحوّلها إلى (كتاب جيب) بحسب ذوق الزبون. وكان من المحتمل أن يترك الطلاب حزمهم غير مجلدة؛ كي يتقاسموا صفحات من مجلد واحد مع زملائهم الطلاب لخفض النفقات.

بالمقابل، كان الجامع الثري للكتب يغلف كتابه بجلد مطلي بماء الذهب على نحو مترف، ويصبغه؛ كي يتماشى مع ألوان مكتبته الواسعة. وأعيد تجليد النسخة الموجودة في مكتبة هوتون أكثر من مرة في السنوات الخمسمائة الأخيرة. وكانت مادة تجليده مأخوذة من كتابٍ آخر تمامًا: مخطوطة تحتوي ترنيمات تجاوبية (أنتيفونات) من مصدر غير مؤكد قبل عصر غوتنبرغ، مكتوبة على الرق وتصطف عصيها الموسيقية المكونة من ثلاثة أسطر بدقة على طول حواف الكتاب، ما فرض على المخطوطة والمطبوعة، والموسيقى المرتفعة والنص المتقدم، علاقة حميمة مضطربة.

كانت هذه الممارسة شائعة بين الطابعين والمجلدين الأوائل.

وحين انفصل الملك هنري الثامن عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قام مالكو الأديرة الجدد العلمانيون بإفراغها من الكتب بسرعة، وكانوا يبيعونها كلباب ورق للاستخدام في تحضير الأوراق وتجليد مجلدات جديدة. وشاهد بعض التيودريين اللامعين الدمار الذي حصل، فقام رتشارد كوتون، أحد وزراء الملك نفسه، في السر بإنقاذ كثير من الكتب من معمل التجليد، وكانت بينها النسخة الوحيدة الباقية من ملحمة

بيوولف، وتكرر الأمر نفسه في أنحاء أوروبا في العقود الأولى من عصر الطباعة، فقد عُثر على النموذج الوحيد المكتوب باللهجة السكسونية القديمة بعد أن استُخدم في تقسية مجلد في مكتبة الفاتيكان، وتواصلت إعادة تدوير النصوص والمقتنيات التي تم التخلي عنها - شريان حياة المكتبة الشاملة - بهذه الطَّريقة لقرون.

انظرْ وراء الغلاف الجلدي المتقشر الذي يغطي تقريبًا ظهر أي كتاب فرنسي نُشر حتى منتصف القرن، وستعثر على الأحرف الكبيرة الغامقة لصفحات الإعلان ممزقة إلى قطع ومضغوطة كي تؤدِّي دورها.

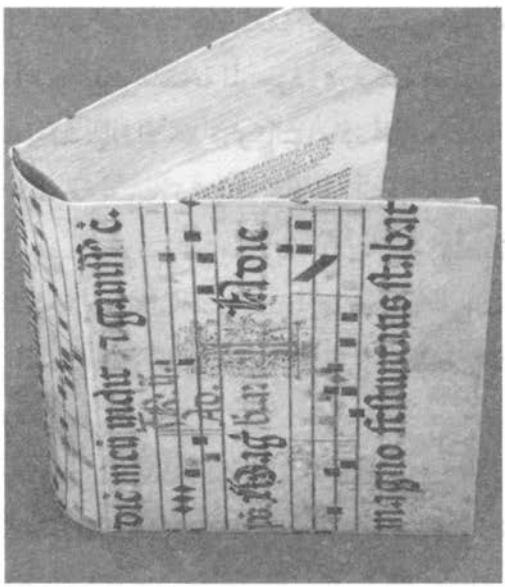

(مختارات ناني ميرابيلي (١٥٠٣)، كتاب مطبوع مجلد بورقة من مخطوطة الأنتيفونات. مكتبة هوتون، تايب ٥٢٥، ٠٣، ٥٩٦. حصلنا على الإذن من قسم الطباعة والفنون الغرافيكية، مكتبة هوتون، جامعة هارفارد، صورة لستيفن سيلفستر وبوب زينك، إتش سي إل، لخدمات التصوير).

أعيد تدوير المخطوطات حتى قبل وصول الحروف البارزة

المتحركة، حين كانت صناعة الكتب تقنية مكلفة متخصصة. وكان الورق الرقي يُخدش لإزالة أي كتابة عنه - قائمة بأسماء أقنان بعض أصحاب الأطيان، أو ربما أوَّلُ ترجمة لشجب شيشرون لكاتالينا أمام مجلس الشيوخ- وإنتاج صفحة فارغة مجهزة لتلقي نسخة جديدة. وتُدعى نماذج المخطوطات التي يُعاد استخدامها: «الرقوق الممسوحة».

ويبقى شبح ماضي المخطوط قابلًا للقراءة أحيانًا تحت الجيل الجديد من الكلمات لكن في ضوءٍ ما فوق بنفسجي فحسب.

تبدو كثيرٌ من المؤشرات على مرور الوقت منقوشةً في البنية المادية للكتاب، ويرى المرء تواريخ الاقتناء مطبوعة ومخطوطة بالقلم الرصاص على الجزء الخلفي لصفحات العنوان، وتسجل الفوا تير متى وكم مرة استُعيرت الكتب وإن كان قد حدث ذلك.

وتكشف حالة عمليات التجليد والأوراق فقدان الزمن لطبيعته الخطية وعلاقته السائلة والمتخثرة مع تجربتنا. وغالبًا ما تكون الكتب المنشورة حديثًا: بالية حد التآكل، وألواحها مسحوقة، وأعمدتها الفقرية مرتخية، وصفحاتها ممزقة ومخربشة، بينما بالمقابل هناك بعض الكتب الأقدم التي لم تُفتح قط حتى من قبل الراعي الأكثر إصرارًا على القراءة، فقد بقيت صفحاتها غير مقصوصة، وغير مُلطخة، وحين تُنتزع عن الرف في النهاية يتشقق جلدها حين تُفتح، وتكون متراصة كسابق عهدها حين غادرت معمل التجليد. وصار لون الفواتير بنيًّا وتفتتت، بحيث لم يبن عليها ختم واحد، وعرضت البطاقات الفهرسية ذات مرة طرق استخدام المجموعة مع مرور

الوقت، حيث أصبحت البطاقات التي يُرجع إليها كثيرًا أكثر تلطخًا؛ بسبب إمساكها بالإبهام، بينما ظلت البطاقات التي لم يتم الرجوع إليها جديدة وبيضاء في تصميماتها الداخلية، وبقيت مضغوطة ومحمية من قِبل جيرانها.

لم تعد البطاقات الفهرسية تُستخدم بالطبع، ذلك أن فهارس الإنترنت تسجل الآن الزوار بالطَّريقة السحرية للشبكات الرقمية العظيمة، ولم تُسجِّل هذه الأنظمة استعارة الكتب فحسب، بل تقوم الحواسيب برصد عدد المرات التي نُظر فيها إلى جميع السجلات أيضًا، وتسجل عمليات البحث التي تحدث في محطات العمل عبر الشبكة.

أشار البعض إلى وحشية فهرس الإنترنت، قاعدة البيانات الغرائبية ذات المجسات التي لديها القدرة على تحويل أظرف رعاة الباحثين إلى ثرثارين وحمقى، وأعلنوا الحِداد على ميزات البطاقات الفهرسية، ذلك العمل الجميل الذي قامت به أجيال من أمناء المكتبات. ولو أصغينا لتحذيرات أمناء المكتبة الذين كانوا حاضرين عند ابتكار البطاقات الفهرسية، لما تراجعنا بسرعة. كتب إدموند ليستر بيرسون في ١٩٠٩ قائلًا:

بينما يزداد عدد تلك الخزائن ذات الأدراج إلى أن يبدو كما لو أن النكتة القديمة حول لقاء فهارس مكتبة بوسطن العامة وجامعة هارفارد على جسر هارفارد يمكن أن يكون صحيحًا بالمعنى الحرفي، فإنَّ القلق الذهني والإعياء الجسدي اللذين يشعر بهما مَن يعود إليها يصبحان من الأمور المهمة، بحيث لا يمكن تجاهلهما.

ويمكن أن يُلاحظ تأثيرها المخيف تقريبًا في أي يوم في أي مكتبة ضخمة، فقد شُوهد عشرات الأشخاص المضطربين وهم يحاولون التفكير فيما إذا كان اسم توماس دي كوينسي يمكن العثور عليه في الدرج المعلّم بحرفي دي إي، أو في ذلك المسمّى كيو يو، ثم يختارون الخيار - الخاطئ دائمًا- ويُشَاهدون، والألم جليّ على جباههم، وهم يندفعون إلى الدرج التالي.

إنَّ من يعودون إلى الفهارس ليسوا الأشخاص الوحيدين الذين تتعرَّض عقولهم إلى الخطر، ذلك أن المفهرسين، الأشخاص الذين يجلسون طوال النهار كي يديروا هذه العاصفة الذهنية المقننة هم معرَّضون للخطر.

منذ مدة قصيرة اجتمعت هيئة منهم، وألزموا أنفسهم بقَسَم مخيف، وهو: ألا ينصرفوا حتى يحلّوا نهائيًّا مسألة إن كان من الأفضل كتابة: «وزارة الزراعة»، أو «الزراعة، وزارة».

كانوا يعرفون جيدًا أن كثيرًا من الأذهان القوية ستتحطم على هذا الحيد المرجاني القوي، لكنهم كانوا مجموعة جسورة، وشرعوا بالعمل.

حلّ منتصف الليل، وكانوا ما يزالون يتشاحنون، وتواصل الصراع إلى أن تسلل أخيرًا ضوء الفجر الرمادي من المصاريع، لكن مهما كان ما كشفه، فقد كان يخلو من حل للمشكلة المطروحة، وكانت الحالة الذهنية لأطراف الجدل غير سارّة.

كانت هذه هي الحالة في تلك المكتبة الشاملة تقريبًا في عام ١٩٠٠

التي كانت مجموعاتها أصغر بمائة مرة من مجموعات مكتبة الأبحاث اليوم.

ربما لم تكن مخاوف راعي مكتبة بيرسون ومفهرسيها ناجمة عن حجم المكتبات أو طبيعة فهارسها بقدر ما كانت ناجمة عن المعاني الضمنية الميتافيزيقية لفكرة المكتبة الشاملة نفسها.

تسجل أنظمةُ التصنيف التَّاريخ على مستوى آخر أكثر فظاظة له علاقة بالتفاصيل، فقد تبنّتْ المكتبات الأكاديمية الأمريكية نظام رقم طلب الكتاب الذي هو المعيار في مكتبة الكونغرس، وهو أرقام وأحرف غامضة ذات طابع صوفي قبلانيّ تتحدى الحدس، وتحفل بالصرامة الشَّكلية للفهرس «العلمي».

وهناك أنظمة أخرى أيضًا، من بينها نظام ديوي هو على الأرجح أكثرها شهرة.

وكانت لمعظم المكتبات أنظمة أرقام الطلبات.

ولا يزال نظام وايدنر القديم قائمًا حتى الآن على الأرفف حتى يومنا هذا، كما أنَّهُ يحافظ على آثار تقسيم المعرفة في تشكلها عند منعطف القرن.

وتحتوي فئة «أوس» كتبًا حول تاريخ الإمبراطورية النمساوية المجرية، وتخدم فئة «أو تي تي» الهدف من أجل الإمبراطورية العثمانية. علاوةً على ذلك، هناك فئة خاصَّة بكلّ من: دانتي، وموليير، ومونتاني.

تختلط المنشورات الخاصَّة المتخصصة والعامة المعروفة في المكتبة الشاملة في ازدراء لنماذج وتفضيلات أزمنتها الخاصَّة. ويجد المرء

طبعات عدة مرففة إلى جانب بعضها البعض لكتب شكسبير المتنوعة، وبينها أعمال غامضة من الناحية الشرعية، مثل: كتاب «شكسبير في ليميرك»، لمؤلفه برينيرد مكي، وهو تحويل فني هزلي تم في ١٩١٠ للأعمال المجمَّعة لشاعر آفون. ويوجد هنا أيضًا اختصار ماكي لمسرحية «العاصفة»، حيث لا يمكن العثور على أمين المكتبة المهووس ذاك بروسبيرو في أي مكان:

مرة كانت هناك فتاة تُدعى: «ميراندا»
غازلت شخصًا يُدعى: «فرديناند»
وهو أمير شاب ناجٍ من تحطم سفينته
الذي بعد أن شطّف نفسه
لعب معها الشطرنج في الشرفة.

ربما كان هنري ديفد ثورو يقرأ شعرًا هزليًّا كهذا في التجاويف المظلمة لصالة جور في هارفارد حين كتب: «توجد في المكتبة جميع أنواع الفكاهة المسجلة في العالم، لكن لا شيء مما هو مسجل يشكل في الحقيقة كنزًا تراكميًّا. ذلك أن شكسبير وميلتون لم يتنبآ مع أي كتب ستُوضع كتبهما». تصفّح ثورو الطبيعة كما لو أنها المكتبة الأكثر غزارة من أي شيء آخر، واكتشف أنه عُبِّر عن العبقرية والعظمة على أحسن وجه في تفاصيلهما الأقل أهمية، إلا أنه رأى أن الكتب السيئة في المكتبة تتساقط كحبات البَرَد على ضحى ربيع الأدب الأبدي. ما يزال النوع نفسه من العجائب السرية التي اكتشفها ثورو بين السناجب الماكرة وأشجار التفاح التي كان ينظر إليها ويتأملها حيًّا

في المكتبة أيضًا. هل يجب أن يختار المرء بين مجموعة الأطروحات التنجيمية التي تبرهن أن فرانسيس بيكون هو من ألّف مسرحيات الشاعر، أو الدراسات القريبة التي تعتمد التسلسل الزمني التي ألفها إدوارد دي فير، إيرل أكسفورد، أو أدبيات السيرة الذّاتية (الأقل بمجلدات عدة) التي تدعم ابن مدينة ستراتفورد نفسه؟

كلا، يجب وضع هذه الكتب معًا على أرفف أي مكتبة شاملة حقًّا، وستروي لنا معًا قصصًا لا تستطيع روايتها وحدها.

إذا ما قرأنا كتب المكتبة نتوصّل بسرعةٍ إلى نتيجة واضحة، وهي: إن معظم الكتب سيئة وبالغة السوء في الحقيقة، بيد أنَّ الأسوأ من هذا كله هو أنها عادية، أي: تفشل في السموّ فوق تناقضات زمنها وتشوشه (في هذا المنحى، أنا متأكد من أن كتابي هذا لا يشكل استثناء). ويبقى قابلًا للفهم، إذًا إننا نبدد الكثير من طاقتنا في العثور على الكتب الاستثنائية، تلك التي تهدم النماذج.

لكن ينبغي ألا ننسى أن الكتب غير اللافتة تعلمنا الكثير عن التّاريخ الثقافي ربما أكثر من كتبنا العظيمة المُحتفى بها.

يقول فرانكو موريتي في كتابه «أطلس الرواية الأوروبية»: إن «السلاسل» - سياق الترتيب الزمني الذي تنبثق منه الأعمال الاستثنائية دائمًا- هي «البطل الحقيقي للحياة الثقافية». ويقرّ موريتي: «إن تاريخًا للأدب كتاريخ للأعراف» قد تبدو «إعادة تشكيل أقل إبداعية وأكثر سطحية مما تعودنا عليه، لكن هذا بالضبط ما هي الحياة عليه. وعوضًا عن استرداد الأدب من ملامحها النثرية يجب أن نتعلم ونتعرف عليها، ونفهم ما تعنيه».

وكما يُعبَّر عن اكتمال ثقافة في أدبها منظورًا إليه ككل، هكذا نظر مؤلفو الكتب إلى أهمية المكتبة. ذلك أن المكتبات تظهر في أعمال كتاب يتسلسلون من شكسبير وجوناثان سويفت إلى أمبرتو إيكو.

في الحقيقة تعد المكتبة مكانًا مثيرًا للذكريات حتى أنها أصبحت مثالاً شائعًا. كيف سيكون لغزٌ قوطيًّا من دون مكتبة مظلمة؟ حين انتبهتُ إلى قوة أطراف الكتب - اضربْ بكفك كعب أوهى الكتب ذات الأغلفة الورقية وستفهم ما أعنيه - خطرتْ لي فكرة تأليف لغز جريمة قتل استُخدم فيها الكتاب سلاحًا. وبدا لي دائمًا أن الخسارة الأكبر في لعبة كلو Clue هي أنَّ المرء لا يستطيع أن يفعل ذلك أبدًا مع العقيد مستارد في المكتبة بكتاب).

كانت المكتبات مُغرية كثيرًا للمؤلفين، لهذا لم يستطيعوا مقاومة اختراعها لأنفسهم، وربما يمكن العثور على المثال الأول على هذا النَّوع الفرعي في الجزء الثاني من كتاب رابليه «غارغانتوا وبانتاغرويل» الذي يزور فيه بانتاغرويل مكتبة سينت فيكتور في باريس، ويتصفح عناوين مختارة، مثل: «مدونة القانون» و«في أساليب التبرز». لم يستنفد رابليه الشَّكل بالرغم من كل قوة خياله، فقد ألّف جون دون سيرة ذاتية روائية في ١٦١٠، ونكّه إدجار آلن بو قصصه بمقتطفات من مكتبة لم توجد إلا في رأسه، وموّه تشارلز ديكنز أبواب مكتبه في منزله في جادز هيل برفوف كتب مزيفة تحتوي عناوين، مثل: «دليل هارساند لإنعاش الأغنام» (في تسعة عشر مجلدًا).

ربما كانت أشهر مكتبة أدبية هي التي تخيلها مؤلّفٌ كان أيضًا أمين

مكتبة، ففي قصته القصيرة «مكتبة بابل» تخيّل خورخي لويس بورخيس الكون كمكتبة (أو ربما كان يتخيل المكتبة ككون). كانت مكتبة مُوحَّدة على نحو يثير الفضول، ونموذجًا أفلاطونيًّا، وهي بحسب الراوي: «مؤلفة من عددٍ غير محدد وربما لانهائي من الصالات سداسية الشَّكل». ثمة أربعة جدران يحتوي كلٌّ منها خمسة أرفف كتب، وينفتح الجداران المتبقيان على غرفة مجاورة مماثلة، ويشرح الراوي: «يمر هنا أيضًا درج حلزوني ينحدر بشكلٍ مخيف نحو الأسفل، ويحلق نحو الأعلى إلى مسافات كبيرة». وفي الصالات مرايا يفترض الراوي أنها «تجسد المدى اللانهائي للمكتبة وتعدُ به». وتؤكّد تجربة أمناء مكتبة بابل الجوالين أنَّ هذا النموذج يكرر نفسه على نحو غير نهائي في الاتجاهات كلها، كما أنَّ الكتب التي تملأ هذه المكتبة يجب أن تكون محدودة الطول، حيث يتألف كلٌّ منها من ٤١٠ صفحات، وتنوعها محدود بالعدد الثابت لأحرف الأبجدية. مع ذلك لا يستطيع أمناء المكتبة الذي يسكنون في هذا الكون تصوّر حدٍّ أو تخم، ويعتقدون أنَّ الكون يجب أن يكون نوعًا ما لانهائيًّا.

لا يُرجى أن تُقدم المكتبة جوابًا محددًا عن أي سؤال. وبالرغم من أنها تحتوي نبوءات عن حيوات جميع من عاشوا أو يعيشون، علاوة على نظريات تشرح أصول الكون نفسه واشتغالاته، لا بدَّ أنَّها تحتوي أيضًا على عدد لا يمكن تخيله من الحسابات الزائفة دون وسائل لفرز الحقيقي والجوهري عن الزائف والمضلل.

يتجول أمناء المكتبة في مجموعات أو متسولين وحيدين، حيث يبحث بعضهم عن كتابٍ واحد يفهرس الكتب كلها، فيما ينشد

آخرون: «توضيح ألغاز الإنسانية الأساسية، وما يزال هناك آخرون يؤمنون أنَّ الكتب بلا معنى»، حيث تؤلفها كائنات بدائية تافهة تحاكي الهندسة المعمارية التامة للإله، لكن راوي بورخيس يعتقد أنه اكتشف المفتاح الكوني للمكتبة، ونظريتها النهائية عن كل شيء. يقول: «إنَّ المكتبة دائرية ومن دون حدود، وإذا حدث وعبر مسافر أبدي في أي جهة، فسيشاهد بعد قرون أن المجلدات نفسها تكررت في الفوضى نفسها (التي بتكرارها على هذا المِنوال تصبح نظامًا: النظام)».

أصيب أمين المكتبة بورخيس بالكَمَه، وسرق عماه منه في النهاية متعة رؤية أشكال الكتب المادية، وصار عماه كلياً في الوقت الذي تقلد فيه منصب مدير مكتبة الأرجنتين الوطنية بعد سقوط النظام البيروني.

ينبغي ألا يقرأ أحدٌ شفقةً على الذات أو توبيخًا
في هذه المقولة عن الله عزّ وجلّ الذي بمفارقةٍ رائعة
وهبني الكتب والكَمَهَ بلمسةٍ واحدة.

يذكّرني فقدان بورخيس لبصره بلافينيا في مسرحية شكسبير «**تيتوس أندرونيكوس**» التي منعتها إصاباتها من القراءة.

اغتصبها أبناء تامورا وقطعوا يديها، وبتروا لسانها، وجردوها من حاستي اللمس والتَّذوق أيضًا.

كان ألم لافينيا مؤثرًا بالرغم من اعتماد شكسبير على عنفٍ صارخ

في لاواقعيته أضعف هذه المسرحية الرديئة التي حاول المدافعون عنها طويلًا ودون نجاح عزوها إلى مؤلفٍ آخر.

اشتاقت لافينيا إلى طعم الكلمات، ولم تستطع أن تروي القصة التي ستؤدي إلى الانتقام من معذبيها، وعبّر ألمها عن نفسه في صمتها، وحين دخلت مكتبة تيتوس، شاهد الأسى في عينيها، وأمر صبيًّا أن يقلب صفحات أي كتاب تختاره، وقال لها: «اختاري من مكتبتي كلها، وبهذا تحرري من أحزانك».

كان الهدف هنا هو أن نتماهى بعمق مع تغريب لافينيا عن علاقتها الحميمة مع الكتب، ويجب أن يثير تعاطفنا معها إحساسنا بالشفقة، لكن لافينيا لم تكن تتوق إلى العزاء الملهي للكتب، بل إلى قدرتها على أن تروي قصصًا، وهكذا اختارت كتاب «التحولات» لأوفيد وبجدعتيْ ذراعيها قلبت الصفحات حتى وصلت إلى قصة فيلوميل. وحين تذكرت اغتصاب تيريوس لفيلوميل على يد تيريوس، فهمت تيتوس ما تريده، وبدأت عجلة العدالة بالدوران.

كان بورخيس محرومًا من التجربة الحسية للكتب مثل لافينيا، لكن الكتب كانت ما تزال فيه، وكان هو بحد ذاته مكتبة على غِرار أمين المكتبة المركّب في لوحة أرسيمبولدو، ويقر بورخيس في «قصيدة الهدايا» أن كتب المكتبة بالنسبة لعينيه الضريرتين الآن «بعيدة كالمجلدات التي يتعذر الوصول إليها، والتي أُحرقت مرة في مكتبة الإسكندرية».

أستكشف علاقات المكتبات: المتشابكة الخيالية والأصيلة، الحمقاء والكشفية، والبارناسية والشمولية، كما فعل أحد أمناء مكتبة

بورخيس المفقودين، ويعكس أسلوبي في الصفحات التالية أسلوب يوجين جانت: ألتقط كتابًا، ربما هو كتاب جيبون «اضمحلال الحضارة الرومانية وسقوطها»، ويقودني شيء أقرأه فيه إلى «أناشيد كاليماكوس» أو «رسائل سينيكا».

تاركًا إصبعي عالقًا بين هذه الصفحات، أتبع مسارًا يقود من كاسيدوروس إلى فرانسيس بيكون، ومن الخليفة عمر إلى جوناثان سويفت وجون ستيورات ميل.

أتخلى عن نصٍّ كي أتبع آخر، شاقًا طريقي بين سلاسل الكتب، ضائعًا بين الرفوف، وفي أمكنة تتراكم فيها كتب كثيرة تكسوها طبقة سميكة من الغبار، وتلوح فيها ثقوب أحدثتها حشرات جائعة للكتب إلى حدٍّ ما مثلي.

في خضم هذا التداعي الحر كله يستند بحثي إلى خطة. فأنا أبحث عن المكتبة حيث تعيش، وأسلّم أن تاريخًا شاملًا للمكتبة، وأعني سجلًا وثائقيًّا للمكتبات أينما وُجِدت، وفي أي شكل تجلت، يحتاج إلى مجلدات عدة. إلَّا أنَّ ما أبحث عنه هو نقاط تحول، لحظات قام فيها: قراء، ومؤلفون، وأمناء مكتبات بطرح أسئلة عن معنى المكتبة، وبينما أتبع بورخيس، أمين المكتبة الأعمى، بين الأرفف إلى داخل جداول المعطيات التي تتدفق على الإنترنت، أواجه صدمة أقل ممَّا توقَّعت، فهناك في الخارج تتصف عملية البحث بالاحتمالية والترابط وقائمة على ضربة الحظ كما كانت دائمًا.

الفصل الثاني
حرق مكتبة الإسكندرية

لا بد أنَّ الفاتح المسلم عمرو بدا ليوحنا النحوي، الكاهن القبطي الذي كان يعيش في الإسكندرية إبَّان الفتح العربي في ٦٤١م بدعةً، وحين عُيّن يوحنا مستشارًا لقائد الجيش سرّه اكتشاف أنَّ حاكم المدينة الجديد لا يملّ: الموسيقى، والشعر، والمعرفة، كما من المفترض أن يكون البرابرة، وصار يوحنا في الحال جسورًا وآملًا بما يكفي كي يسأل عمرو ما الذي يمكن فعله بخصوص «كتب الحكمة» الموجودة في «الخزائن الملكية»، المكتبة الشهيرة الموجودة في قصر البطالمة، كان يحدوه من دون ريب أملٌ بأن القائد سيعهد إليه بالمسؤولية عن المكتبة.

أجابه القائد أنه لا يستطيع أن يقرر مصير الكتب دون أن يستشير الخليفة عمر، وكان جواب الخليفة الذي اقتبسهُ هنا من كتاب ألفرد جي. بتلر «الفتح العربي لمصر» صارخًا: «يجب ألا تُمسَّ الكتب التي ذكرتها إذا كان المكتوب فيها يتفق مع كتاب الله، أما إذا كان يخالفه، فلا رغبة لنا بها وعليك إتلافها»، وبحسب التقليد المتبع، جُمعت المخطوطات، وأُرسلت وقودًا إلى حمَّامات المدينة، وقيل: إنها زوّدت المواقد بالوقود مدة ستة أشهر.

من المؤسف أنَّ هذه الحكاية النابضة بالحياة التي نظرًا لطبيعتها

تناسب كتاب «ألف ليلة وليلة» لا تحمل إلا جانبًا من الحقيقة. من المحتمل أنَّ هذه القصة كما نعرفها اخترعها ابن القفطي وهو مؤرخ سني من القرن الثاني عشر. وبحسب عالم الكلاسيكيات المصري مصطفى العبادي من الوارد أنَّ القفطي اخترع القصة؛ كي يبرر بيع الكتب على يد الحاكم السني في القرن الثاني عشر صلاح الدين الذي باع مكتبات بأكملها؛ كي يُموّل معركته ضد الصليبيين، وبالرغم من أصلها الإسلامي المحتمل انتشرت القصة في الغرب بوصفها رثاءً استشراقيًّا لمصير المعرفة الهيلينية في الشرق الهمجي.

كانت مكتبة المدينة المكونة من طوابق قد شهدت على الأقل حريقًا رئيسًا واحدًا من قبل، وربما أكثر في الوقت الذي وصل فيه جيش الخليفة إلى الإسكندرية في القرن السابع للميلاد، ولم تكن هناك مكتبة واحدة، بل اثنتان: مكتبة كبيرة أُنشئت في القرن الثالث قبل الميلاد داخل المتحف، أو معبد ربات الإلهام، ومكتبة وليدة صغيرة. ووُضعتْ هذه المكتبة الثانية التي بُنيت في القرن التالي في معبد سيرابيس، وهو إله مصري مُهلْين (أُضفي عليه طابع هليني)، في الوقت الذي وصل فيه جيش الخليفة إلى الإسكندرية في القرن السابع للميلاد. وسيرابيس هو أيضًا راعي إلهي للإسكندرية التي اتسمت بالنزعة التوفيقية، وكان هذا شيئًا ابتكره البطالمة الحاذقون لاهوتيًّا لأنفسهم. وُضعت المجموعتان في الحي الملكي، وغالبًا ما وُصفتا بأنَّهما تشكلان كيانًا واحدًا. وكان يمكن العثور على الكتب في أنحاء المدينة في كميات كبيرة خارج الحي الملكي.

وكانت الإسكندرية، موطن صناعة ورق البردي، مركز تجارة

الكتب في أنحاء منطقة البحر الأبيض المتوسط تقريبًا منذ تأسيسها وحتى القرن الثالث ميلادي.

حين جاء يوليوس قيصر؛ كي يساعد كليوباترا في حربها ضد بطليموس الثامن الشاب في ٤٨ قبل الميلاد، في الوقت الذي كان فيه عمر المكتبتين تقريبًا ثلاثمائة عام، أحرق السفن في مرفأ الإسكندرية؛ كي يمنع أعداءه من الاستيلاء على المدينة من طريق البحر. وبحسب سينيكا، فُقد ما يقارب أربعين ألف كتاب في الحريق الهائل الذي أعقب ذلك، بالرغم من أنَّ بعض المراجع تقول: إنه لم يُحرق إلا بعض الكتب المخزنة في مستودعات بانتظار الوضع على الأرفف، ربما كانت هذه الكتب في الحقيقة تنتظر الشحن إلى روما بأوامر من القيصر. وحتى ولو كانت تقديرات سينيكا صحيحة، فقد تم تقزيمها عن طريق السبعمائة ألف مخطوط التي اعتُقد أنَّها كانت في المكتبة الرئيسة في المتحف وحده، وانتشرت شائعات عن نيران لاحقة، لكن زوار الإسكندرية بعد موت يوليوس قيصر قدموا دليلًا على استمرار وجود المكتبتين العظيمتين، وتبين أنَّ سترابو الذي كتب في زمن أغسطس وولادة المسيح على علم بوجود مكتبة عاملة في الإسكندرية، وتروي الأساطير أن مارك أنطوني قدم لكليوباترا كتب مدينة بيرجاموم (خصم الإسكندرية الكبير التي تقع في ما يُدعى الآن: «إزمير في تركيا»)؛ كي يعوضها عن فقدان مكتبتها، لكن بلوتارك شكك في حقيقة الحكاية، وكتب سويتينيوس أن دوميتيان، الإمبراطور الروماني في القرن الثاني الميلادي وظّف باحثي الإسكندرية لاستبدال نصوص أغسطس في مكتبة بالاتين

بعد أن دمرها الحريق، وأشار هذا إلى الحضور المتواصل لجماعة فكرية في الإسكندرية، لديها نصوص ثمينة يمكن نسخها. ومن المرجّح أن ما تبقى من المكتبات دُمر بشكلٍ كامل في القرن الثالث الميلادي حين أُحرق المتحف في أثناء حرب الإمبراطور أورليان ضد زنوبيا ملكة تدمر. كانت المكتبات في ذلك الوقت تتدهور في ظل حكم المسيحيين الذين بعد انتصارهم الثقافي على الوثنيين واليهود والأفلاطونيين الجدد، وجدوا أن الثروات الهيلينية للمكتبتين مشوشة. ووصل غضبهم إلى أوجه في القرن الرابع الميلادي. ورغب ثيوفيلوس، بطرك الإسكندرية في الاستيلاء على موقع معبد سيرابيس؛ كي يبني محله كنيسة، فأطلق الرعاع المسيحيين الذين دمروا المعبد الوثني، وربما الكتب التي في مكتبته أيضًا، ومهما كانت حقيقة حكاية مرسوم الخليفة بعد ثلاثمائة سنة، نجد واضحًا أنَّ ورق البردي الواهي للإسكندرية احترق أكثر من مرة.

لم يكن ممكنًا أن تحترق المكتبات الأولى؛ لأنها كانت مليئة بكتب مكتوبة على الألواح الطينية على النقيض من مجموعة مكتبة الإسكندرية المكونة من مخطوطات البردي. وكان أدب بلاد ما بين النهرين يعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد ويتسلسل من الشعر إلى الصلاة، ومن الرسائل إلى كتب الحسابات، وكان الخط الذي كُتبت به يُدعى: «المسماري»، وسُمّي بهذا الاسم؛ نظرًا لشكل حروفه المقطعية التي تتألف من عناقيد من العلامات الصغيرة على شكل إسفين محفورة في ألواح فخارية بقلم مستدق الطرف.

وكان الفخار يُترك كي يجفّ، أو يُحرق في فرن، وكانت الكتب المصنوعة بتلك الطَّريقة تصمد زمنًا طويلًا خاصَّة في المناخ الجاف للهلال الخصيب، وقدمت تلك الكتب الفخارية المتينة نفسها لدافع بناء المكتبة. وفي بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد ضمَّ معبدٌ في بلدة نيبور، في ما هو الآن جنوب شرق العراق، غرفَ أرشيفٍ مليئة بالألواح.

وصلت مكتبات بلاد الرافدين إلى ذروتها تقريبًا بعد ألفي سنة في أثناء حكم آشور بانيبال الثاني الذي حكم الإمبراطورية الآشورية في القرن السابع قبل الميلاد. وأسس مكتبة كبيرة في عاصمته التي هي مدينة نينوى القديمة، والتي نمت إلى أن ضمت ٢٥ ألف لوح طيني. كانت المكتبة بمثابة أرشيف، إلَّا أنَّ طموحات آشور بانيبال كانت كونية، فأمر بجمع: البشائر، والتعاويذ، والتراتيل فحسب، بل الآداب القديمة للغات بلاد ما بين النهرين القديمة: الآشورية، والسومرية، والأكادية، والأوغاريتية، والآرامية، وغيرها أيضًا.

وتبين أنَّ المكتبة عالية التنظيم، وربطت الأعمال معًا في ألواحها الطينية المختلفة، وتم تعليمها بتسمية عرّفت محتوياتها، وعُثر أيضًا على فهرس سجل عناوين الأعمال وعدد الألواح التي تتألف منها، وأظهرت أرشيفات ومكتبات أخرى في أنحاء بلاد ما بين النهرين على نحو مشابه مستويات عالية من التنظيم، وحُفظت الألواح في بعض المخازن في سلال مصنفة، وكتبت عناوينها على حواف اللوح الطيني من أجل التعرف عليها بسرعة؛ ونظرًا لقدم هذه الكتابات، فإنَّ العدد الذي بقي مذهلًا، إذ يوجد نحو عشرين ألف شظية من

مكتبة آشور بانيبال وحدها محفوظة الآن في المتحف البريطاني. ولم يستطع خلفاء آشور بانيبال أن يديروا الأراضي الشاسعة التي فتحها، وضعفت قوة إمبراطوريته بسرعة بعد وفاته، وهُجرت نينوى بالتدريج ونُسيت. لا بد أنَّ المزيد من مكتبات بلاد ما بين النهرين ما تزال مدفونة في تلال أو روابي المدن المدمرة، وتنقط مشهد الموطن الآشوري الذي هو العراق الآن، وأكيد أن القنابل الدقيقة دمرت مكتبات لا نعرف عنها أي شيء.

بعد أربعمائة عام من دمار مكتبة نينوى، غزا الإسكندر الأكبر الشرق الأدنى. وفي ٣٣١ قبل الميلاد، حين قرر أن يحتفل بفتوحه ببناء مدينة عظيمة على شاطئ المتوسط في مصر، قيل: إنه رسم محيط الإسكندرية المستقبلية بخيط من الطحين. وبحسب إحدى الروايات، حلق سرب كبير من الطيور المخوّضة من شواطئ بحيرة قريبة تُدعى: «ماريوتيس» كي تتبعه في طوافه والتهمت الطحين وهو يسير.

عدّ الفاتح الأمر نذير شؤم في البداية إلى أن أشار أحد مستشاريه إلى المغزى الحقيقي: إنَّ الإسكندرية ستزدهر وتقدم غذاء وثروة هائلة لسكانها. على أي حال اختار الإسكندر مدينته وخطط لبنائها، وكان موقعها متميزًا، وقدم أفضل ميناء على شاطئ المتوسط في مصر والمدخل الوحيد إلى سلة خبز الدلتا ونيل الداخل. لكن الإسكندر توفي قبل أن يحقق طموحاته ويرى المدينة مشيدة، إلَّا أنَّ أحد قادة جيشه السابقين سوتير جعل المدينة عاصمة السلالة البطلمية بعد وفاة الفاتح الشاب، وكان سوتير هو الذي تصوّر المكتبة التي

ستدعّم المعرفة في العالم الهيليني وتعزز هيمنة ورثته.

اعتمدت مكتبات الإسكندرية مدرسة أرسطو المشائية بوصفها مصدر إلهام مباشر لها كما فعلت المدارس اليونانية في ذلك الزمن. وكان أرسطو أستاذ الإسكندرية، وصار اسم مدرسته يُطلق على أتباع فلسفته العقلانية، وأشار مصطلح peripatos الذي يعني حرفيًّا: «المشي على الأرض»، إلى أسلوبه في التَّعليم، فقد أخذ علم أصول التدريس من أفلاطون الذي كان معلمه سقراط يمشي ويعلّم في جميع الأمكنة، على: الطرقات، وفي منازل أتباعه الأثرياء، أو في الساحة العامة لأثينا، وصار أسلوبهم الشفهي العرف السائد حتى في العالم اليوناني المتعلم.

تزعم بعض المصادر القديمة أن مكتبة أرسطو الخاصَّة نُقلت إلى الإسكندرية، وصارت النواة التي نمت منها المكتبة الكبيرة، ويروي الجغرافي اليوناني العظيم سترابو الذي تبيّن أنه يعرف المكتبة جيدًا أنَّ كتب أرسطو دُفنت في حفرة في أثينا؛ كي لا يستولي عليها الملوك الأتاليون، حكام أثينا، الذين أرادوها من أجل مكتبتهم في بيرجاموم.

ولاحقًا أُخرجت الكتب التي أتلفها الماء وأكلتها الديدان، وبيعت لاحقًا إلى مقتني الكتب أبيليكون الذي ارتكب الكثير من الأخطاء في محاولته لجمع المخطوطات التالفة وإصلاحها. واستولى على مكتبته الجنرال الروماني سولا الذي انتزع أثينا من قوات الملك ميثراداتس السادس في ٨٨ قبل الميلاد. وأمر بحزم المكتبة وإرسالها إلى روما، حيث فُصلت الكتب ونُسخت بشكلٍ خاطئ، وفُقدت

كلها تقريبًا.

انفصلت المكتبة عن النمط المشائي بطريقة لافتة للنظر بالرغم من إلهامها الأرسطي.

كان الهدف منها جذب الباحثين والمفكرين، إلا أنها لم تتبن أي برنامج تعليم رسمي، وكانت هذه إحدى فوائدها الرئيسة، ذلك أن المفكرين وجدوا آنذاك كما الآن أن التَّعليم عبء بقدر ما هو نداء، وحرّر الراتب الملكي الباحثين من اضطرارهم للإعلان من أجل طلاب؛ كي يتمشوا معهم، بينما قدمت لهم أكوام المخطوطات فرصًا لا تُستنفد لعملهم.

وصف سترابو المشهد الذي كان يراه القراء في الإسكندرية، حيث كانت الكتب الموجودة على الرفوف الداخلية مُحاطة بسلسلة من الأروقة المهواة أو الممرات المسقوفة التي يمكن أن يجتمع الباحثون فيها؛ كي يدرسوا ويتناقشوا.

وصارت أروقة كهذه، التي ربما تذكّر بغيضة أفلاطون المظللة، عنصرًا للقياس في المكتبات القديمة، وحتى المكتبات الرومانية، التي كانت لديها غرف قراءة فيها طاولات وكراس على غرار المكتبات الحديثة.

لم يكن الباحثون يقرأون بالطبع كتبًا كما نعرفها الآن، ذلك أنَّ المخطوطات أو الكتب المجلدة لم تُستخدم حتى العصر المسيحي في روما، وكانت مكتبتا الإسكندرية، على غِرار جميع المكتبات القديمة، مليئتين بمخطوطات البردي، وهو قصب مائي ينمو على ضفاف النيل، وكان ورق البردي هشًّا وصعب الحفظ بالمقارنة مع الألواح

الطينية.

وكان غزيرًا، على أي حال، ويمكن تحويله إلى أداة ملائمة للكتابة بسرعة ويُسر، وحين يُطرق كي يُسطّح تعمل عصائر النبتة باعتبارها نوعًا من الإسمنت للصق الأنسجة وتثبيتها، وتعلَّمَ صانعو الورق الأوائل أن يقسموا سيقان النباتات المفردة، ويضعوها متداخلة مع بعضها البعض ويضربوها إلى أوراق بأي طول يريدونه. وحالما تجف، تُلفّ الأوراق الناتجة حول وتدٍ يُدعى: «السرة». لم يتبق أي دليل مادي لمكتبات الإسكندرية، ولا تزال الأدلة الأثرية لمكتبات الإسكندرية والأدلة الأثرية من المكتبات الأخرى اللاحقة ذات قيمة مشكوك فيها في إعادة بناء الرفوف والوصول إلى المخطوطات في أكوامها، إلَّا أنَّ التوصيفات الحديثة تسمح على أي حال ببعض الاستنتاجات: إن المخطوطات في المكتبات عليها بطاقات معلمة بمؤلفي وعناوين العمل المتدلي من هذه السُّرر، وكان هذا ضروريًّا؛ خاصَّة لأنَّ اللفائف، على عكس المخطوطات (الكتب المكتوبة باليد) لا توضع على الرفوف. يجب عوضًا عن ذلك أن تُكوم اللفائف معًا في أكوام غير ثابتة. ولإخراج لفيفة واحدة على القارئ أو مساعد المكتبة أن ينقل الأخرى كلها التي على الرف؛ نتيجة هذا فقط سيكون من الممكن الحفاظ على نوعٍ من الترتيب العام.

كان باحثو المتحف يأكلون معًا في صالة الطعام ويحتفظون بمقتنياتهم على نحو مشترك، كما كان الباحثون القروسطيون يفعلون في الجامعات الأوروبية الأولى، وتُجمِع المصادر أن الباحثين تمتعوا بدرجةٍ فائقة للعادة من الحرية الأكاديمية، وبدا كأن البطالمة فهموا

أنهم لن يبدعوا الكتب الأكثر فائدة إلا إذا مُنحوا الحرية، وتبين أن هذا الامتياز شمل أيضًا التعامل داخل المنزل الملكي، فحين طلب بطليموس الأول سوتير الذي كان فاقدًا الصبر من تقدمه البطيء في الرياضيات من إقليدس طريقة مختصرة، كان لدى عالم الهندسة الجرأة كي يجيب: «لا يوجد طريق ملكي إلى الهندسة»، وأثارت امتيازات العمل في الإسكندرية غضب باحثين معزولين، كان أحدهم يُدعى: «تيمون الفليوسي» الذي كتب ساخرًا من «ديدان الكتب داخل الأديرة» التي تتغذى ويتم الاعتناء بها في «قن دجاج ربات الإلهام» (أميل إلى الاعتقاد بأنَّ استعارات تيمون الساخرة هي التي عرقلت ترشحه لمنصب في الإسكندرية)، وحوّل البطالمة المكتبة إلى مؤسسة للأبحاث تحت سيطرة البلاط الملكي عن طريق إحضار الباحثين إلى الإسكندرية ودعوتهم؛ كي يعيشوا ويعملوا، على حساب الملك، في مستودع ضخم من الكتب. ذلك أنه لم تفت البطالمة المعاني الضمنية الاستراتيجية لاحتكار المعرفة وخاصَّة في: الطب، والهندسة، واللاهوت، وكانت كلها بين نقاط قوة الإسكندرية. وأمر البطالمة بمصادرة كتب زوار المدينة التي نُسخت للمكتبات (بالرغم من أنه أحيانًا تم الاحتفاظ بالأصول)، وزُينت ببطاقة كُتب عليها: «من السفن».

وحظر حكام المدينة تصدير البردي في محاولة لإيقاف نمو المكتبات في رودس وبيرجاموم اللتين هددتا تفوق الإسكندرية، وكانت لهذه الحركة نتائج عكسية دفعت سكان بيرجاموم إلى ابتكار ورق البرشمان الذي نظرًا لقوته وإمكانية استخدامه مرة أخرى

برهن أنه أداة الكتابة المفضلة في أوروبا لأكثر من ألف سنة.

وبالرغم من منافسة رودس وأثينا وبيرجاموم ومراكز أخرى للثقافة الهيلينية، ازدهرت مكتبة الإسكندرية في عهد البطالمة، وما تزال أسماء الباحثين الذين تبعوا اللفائف السبع آلاف إلى الإسكندرية يتردد صداها إلى اليوم، فإقليدس الذي وُلِد على الأرجح في قرية مصرية ذات طرق غبارية وُجدت قبل أن يؤسس الإسكندر مدينته ألّف كتابه: «العناصر» هنا. ومر أرخميدس من هنا حين كان طالبًا قبل أن يستقر في محبوبته سيراكيوز، واعتمد كلٌّ من إراتوسينس وسترابو وغالن على ثروات الإسكندرية. وتروي الأسطورة أنه بتشجيع من بطليموس الثاني اجتمع سبعون باحثًا يهوديًّا في المكتبة؛ كي يترجموا التوراة إلى اليونانية، وكانت النتيجة الإعجازية هي «الرسالة السبعينية»، وكانت الإسكندرية أيضًا موطنًا لمدرسة الشعر الغنائي اليوناني الأكثر عالمية وانتقائية. وكان ممثلها الأكثر شهرة كاليماكوس الذي عمل أيضًا أمينَ مكتبة في متحف الإسكندرية القديم. ويشكل كتابه المهم «الألواح» المؤلف من ١٢٠ مجلدًا أو لوحًا فهرسًا لمجموعة الأدب اليوناني الكبيرة الموجودة في المكتبة، ولقي فهرسه مصير المكتبة: لم يبق منه أثر.

أصبحت المدينة في القرن الأول للميلاد مشهد صراعات ثقافية عظيمة بين: الوثنيين، واليهود، والمسيحيين، والأفلاطونيين الجدد. وما نعرفه الآن باسم: «التراث اليهودي المسيحي» له أصوله في انتقائية الإسكندرية، وكانت للمكتبات دائمًا مهمة أكبر من أي من هذا، ذلك أنها سعت إلى أن تقتني الأجزاء الكاملة من الأدب

اليوناني والكتب الأكثر أهمية في كثير من اللغات الأجنبية. هكذا كانت مكتبة الإسكندرية أول مكتبة لها طموحات كونية، وبجماعتها من الباحثين صارت النموذج البدئي للجامعة في العصر الحديث.

عرّفتْ كومة الكتب الكبيرة في الإسكندرية نهجًا اقتنائيًّا جديدًا لقيمة المعرفة، وكان الهدف هو احتواء كل شيء، من مخطوطات «الإلياذة» الموثوقة بمرجعيتها وكتاب هسيود «الأعمال والأيام» إلى القوائم الأشد غموضًا من التعليقات الثانوية والمغلوطة حول هوميروس، إلى كتب نُسبت خطأً إلى هوميروس، وكانت هناك كتب تشير إلى الخطأ في الإسناد، وكتب تفند تلك الكتب. وبتسريعهم لهذا الهدف سار البطالمة بهدي من حدس الإسكندر الأكبر الجوهري بأنَّ المعرفة مورد وسلعة وشكل من أشكال رأس المال يجب أن يكسب ويُخزن بطريقةٍ تخدم النظام. وخدمت تقوية المكتبات ومركزيتها الباحثين والأمراء على حدٍّ سواء وأراحتهم، لكن الكتب الكبيرة مثَّلت إشكالية في أوقات الحرب أو بسبب التآكل، ذلك أنَّ مصيرها يصبح مصير الأدبيات التي تحتويها، وبقي الكثير مما أتانا من العالم القديم؛ لأنه حُفظ في مكتبات صغيرة خاصَّة موضوعة في مواضع خلفية منعزلة وغامضة، حيث كان من الأفضل عدم لفت انتباه المتعصبين والأمراء.

كانت هذه النقطة الأخيرة - احتياجات القراء والجامعين الخاصين وأذواقهم - هي ما يحدد ما يبقى على قيد الحياة قبل أي شيء آخر، وكان مصير الكتب قبل ألسنة اللهب والسرقة والرقابة مقيدًا بالخلط المستمر للكلمة وتحولها في استخداماتها كلها، وبالرغم

من أنَّ مكتبتي الإسكندرية كانتا شاملتين، حيث واجه أمناؤهما خيارات صعبة، وكان إنتاج لفائف المخطوطات مكلفًا ومستهلكًا للوقت، ولم يكن من الوارد أن يكرس النَّاسخون وقتهم الثمين في غالب الأحيان للنصوص الثانوية. وكان الدور الرئيس لمكتبة قديمة هو تقديم النماذج التي سينسخ منها القراء نسخًا خاصَّة بهم، وكانت الأعمال الرئيسة هي الوحيدة التي تُنسخ في كميات كبيرة. أما البقية - الثانوية، التي هي خارج المعايير والمشكوك بأمرها- فقد كانت تغيب عن الأنظار.

لو لم يتبن البطالمة سياسات اقتنائية صارمة في الإسكندرية قائمة على مصادرة الكتب من القراء الخاصين وعدم إعادة لفائف مستعارة من مستودعات أخرى للنسخ، لبقي الكثير من الأعمال الضائعة، بيد أنَّ البطالمة لم ينظروا إلى مكتبتهم بوصفها مستودعًا شاملًا مكرَّسًا للحفاظ على المعرفة الليبرالية، بالرغم من أن كثيرًا من الأساطير التي نجلّها يمكن أن تجعلنا نعتقد هكذا. تتحدث المكتبات عن فقدان الحقيقة ـ عن طريق إرضاء البرابرة الداخليين كـ: الأمراء، والرؤساء، والمتظاهرين - بقدر ما تتحدث عن اكتشافها، وينجم فقدان المكتبات إلى حدٍّ كبير عن: خوف محسنيها، وحماتها المفترضين، وجهلهم، وجشعهم، ويلعب انتفاء الكفاءة المتعمد لدى البيروقراطية عبر التَّاريخ دوره أيضًا. ويمكن أن تكون الصور المهددة للبرابرة الغزاة ملطِّفًا في أمثلة كهذه، والكارثة هي وحدها التي يمكن أن تقدم البُعد الدرامي الذي يلعب بمثابة المخدر ضد الرعب الوجودي للانحطاط والتدهور.

ربما لاقت مكتبات الإسكندرية مصيرًا متواضعًا، وبليتْ ببطء عبر القرون فيما صار النَّاس لامبالين حيال محتوياتها وحتى عدائيين تجاهها. وصارت اليونان القديمة التي لم تشكل قط وحدة لغوية متراصة، غير قابلة للفهم بالنسبة إلى سكان الإسكندرية في الحقبة المسيحية التي جمعت بين: القبطية، والآرامية، والعبرية، واللاتينية، أو لغة العامة، أو اليونانية الديموطيقية. إن اللفائف التي تجاهلتها أجيال لم تستطع فك حروفها، تلفتْ من مدد متعاقبة من الرطوبة والجفاف، وأكلتها النباتات والحشرات التي تطورت خصيصًا؛ كي تعيش في المكتبة، أو سُرقت وضاعت وحُرقت. وحلت محلها كتابات: آباء، وكهنة الكنيسة، والأدب المتناقص للعالم الروماني المنهار.

إنَّ العدسة التي تنظر إلى الماضي تضغط الألفيات، وتضع ثيودوسيوس (القرن السادس الميلادي) على الأرضية نفسها التي شغلتها كليوباترا وأرخميدس (اللذان عاشا في القرنين الأول والثاني قبل الميلاد على التعاقب).

ما الذي حدث لكتب الإسكندرية؟ يعرف مصيرها الحقيقي أمناء المكتبة، ذلك أنه مرت عليها قرون كثيرة كافية لضياعها المحتم واختفائها، بحيث لا يمكن تجنبهما، بصرف النظر عمن كان يحتكر البردي، وعمَّنْ شاغب رعاعه في الشوارع، وعن الأباطرة الذين أشعلوا النَّار.

بعد قرن من إحاطة الإسكندر لمدينته بجدارٍ من الطحين، بدأ الإمبراطور تشين شي هوانغ يربط قلاعه البعيدة بحصونه الحجرية

التي صارت فيما بعد سور الصين العظيم، وبحسب أسفار الأخبار القديمة، كان الشيء التالي الذي فعله شي هوانغ هو ربما أكبر عملية حرق كتب عرفها العالم. هدف من وراء ذلك، كما تروي الأسفار نفسها، إلى تدمير: الأدب، والتَّاريخ، والفلسفة الصينية التي كُتبت قبل تأسيس سلالته. وحين وافته المنية، رافقه ستة آلاف محارب من محاربي الطين النضيج، دُفنوا معًا في مدفن جماعي قُرب مدينة زيان الحالية وسط الصين، وكما روتْ الأسفار، لم يتم توسيع ترف نحت الأشخاص كي يشمل الباحثين الكونفشيوسيين، فدُفنوا أحياء حين أُحرقت كتبهم.

ظهر أول إمبراطور صيني (شي هوانغ، اللقب الذي اختاره لنفسه) في القرن الثالث قبل الميلاد في نهاية ما يُدعى الآن بـ: «مرحلة الدول المتنازعة»، قبل نشوء الصين الموحدة، وكان والده ملك كين، الدولة الجبلية في الأراضي الحدودية الصينية الشمالية الغربية، التي لم تكن تختلف في تضاريسها وثقافتها عن أراضي «البرابرة» الذين سيسوّر شي هوانغ بسببهم يومًا ما مملكته. وُلد الطفل «تشاو تشينغ»، حين كان والده رهينة في دولة تشو، وربما تشرح هذه الحقيقة عناد الابن في القضاء ليس فقط على التشو، بل على دول الصين الخمس المستقلة الأخرى أيضًا، وكانت نخبة هذه الدول تتألف من كونفوشيوسيين تقليديين كانت الفضيلة الشخصية وحب التراث بالنسبة إليهم أساس المجتمع المدني والسلطة الملكية. بالمقابل، كان قادة كين وباحثوها يرون الرجال أنانيين ومعارضين ضمنيًّا لسلطة الحاكم، وفرضوه عن طريق الأساليب الأشد قسوة.

تربع تشاو تشينغ على عرش والده وهو في سن الثالثة عشرة، وأبقى «النَّاس ذوي الشعر الأسود»، وهي التسمية التي كان يطلقها على جموع الشعب الصيني، في حالة مستمرة من الحرب في السنوات الست وعشرين التالية، إلى أن سقط الملوك الستة في النهاية، وسقطت دولهم وخضعت لسيطرة حكمه المتشدد.

وعلى الرغم من القصص الأسطورية التي رواها المؤرخ عن مآثر شي هوانغ، فقد تعددت بلا شك مظاهر جنون العظمة لديه.

اعتقد أن نطاق سلطته يشمل الطبيعة والسماء، فحين كان يتسلق مع حاشيته نازلًا جبل تاي، هبّتْ عاصفة. وعثرتْ المجموعة الملكية على مأوى تحت شجرة، وامتنانًا لها كافأ الإمبراطور الشجرة بأن جعلها إقطاعيًّا، «سيدًا من المرتبة الخامسة». وفي وقتٍ آخر، حين كان يسافر باتجاه تيار ماء النهر هبت ريح وأزعجت المركب الملكي قليلًا، وبعد أن علم أنهم عبروا معبدًا يخلّد ذكرى الأميرة، لام روحها على المخالفة التي قامت بها الطبيعة. ردًّا على ذلك، أمر بأن يُجرد الجبل الذي يتوضع عليه المعبد من الأشجار، ويُدْهن باللون الأحمر.

انجذب الباحثون التقليديون إلى هذه القوة الجديدة الغرائبية، وغصَّ البلاط الملكيُّ بهم، وحذّروا الإمبراطور من أخطار يمكن أن يواجهها إذا فشل في اتباع نماذج وضعها الملوك القدماء، لكنهم أساؤوا الحساب على نحو فادح، ذلك أنهم بفعلتهم هذه، أساؤوا إليه هو الذي مثلتْ سلالته فجرًا جديدًا غير مسبوق في السلطة والطموح.

استثمر مستشاره لي سي - الذي تجاهل أتباع كونفشيوس معرفته القانونية - الفرصة كي ينتقم من خصومه. «بدأ جلالتك هذا العمل العظيم الذي أسس استحقاقًا سيستمر عشرة آلاف جيل، وهذا أمر لن يقدر على فهمه كونفشيوسي غبي». أصغى الإمبراطور لمستشاره. وكما يروي المؤرخ من القرن الأول قبل الميلاد، سيما كيان (في ترجمة بورتون واطسون)، لاحق لي سي قضيته:

كانت الإمبراطورية في الماضي مفككة وتسودها الفوضى، ولم يتمكن أحد من توحيدها، لهذا نهض الإقطاعيون جنبًا إلى جنب، وخطبوا ممجدين للماضي؛ كي يستخفوا بالحاضر، وقدموا كلمات جوفاء؛ كي يشوشوا الحقائق. وتباهى الرجال بنظرياتهم الخاصَّة، وانتقدوا الإجراءات التي تبناها أسيادهم. بالتالي، أطالب بحرق سجلات المؤرخين كلها عدا تلك الخاصَّة بدولة كين.

أكد سيما كيان لقرائه أنَّ الإمبراطور وافق من كل قلبه وصدر «مرسوم إمبراطوري وافق على الاقتراح».

احترقتْ السجلات احتراقًا تامًّا بألسنةِ اللَّهبِ، وتجدر الإشارة إلى أن الورق في الصين لم يُخترع حتى القرن الثاني الميلادي، وبينما كان الحرير يستخدم أداةً للكتابة، كانت الكتب في الصين القديمة تُكتب عادة على شرائط من الخشب أو الخيزران، وتُخاط معًا كالستائر الفينيسية بخيط حريري، وكانت كل شريطة تحتوي صفًّا واحدًا من الحروف، تُقرأ عموديًّا، وساعد الشَّكل الرقيق لهذه الكتب الأولى في تحديد انسياب الكتابة الصينية على الورق بعد قرون (بالرغم من أنَّ الصينيين اتبعوا تاريخيًّا نماذج متنوعة على الصفحة)، وكانت الكتب

تُلف بإحكام من أجل التخزين. ويذكر تقرير إمبراطوري من القرن الأول قبل الميلاد (بعد مائتي عام تقريبًا من حرق الكتب) المكان الواسع الذي خُصص لتخزين الكتب في حرم القصر الذي احتوى على 484حزمةً مكررة من أعمال كوان تزو وحده.

لم يمضِ وقت طويل على الحرق المزعوم للكتب حتى غضب عرّافان من منع الإمبراطور للسحر والبحث الذي يتم خارج البلاط وهربا باحثين عن أعشاب الخلود.

غضب الإمبراطور، وأمر بجمع «معلمين» مستقلين كهؤلاء، وهو المصطلح الذي، كما يروي مارتين كيرن المتخصص بلغة الصين وآدابها، يشير إلى: الباحثين الكلاسيكيين، والأطباء، والعرافين، ومفسري الأحلام. وبحسب سيما كيان، أُعدم أكثر من ٤٦٠ منهم. كانت الكلمة التي يستخدمها «كينج» تُترجم عادة ب: «أعدموا»، بالرغم من أنها عنت حرفيًّا: «دُفنوا أحياء». وورد المصطلح الذي استخدمه سيما كيان عن الحدث، الجامع والدقيق، لدى أجيال من الباحثين الكونفشيوسيين ك «فينجشو كينجرو»، أي: إحراق الكتب ودفن الباحثين.

كانت هذه هي القصة التي جذبت خورخي لوي بورخيس الذي فُتن بطريقته الخاصَّة بالجمع بين حرق الكتب وبناء السور. يقول في مقالته «السور والكتب»:

إنَّ هذين العملين الجبارين، وأعني بناء خمسمائة أو ستمائة فرسخ من الحجر ضد البرابرة ومحو التَّاريخ، أي: الماضي، اللذين قام بهما الشخص نفسه، وهو ما يتَّسق مع مواصفاته المعروفة، أسرَّاني بشكلٍ

لا يوصف، وفي الوقت نفسه أزعجاني. ربما كان السور استعارة، وربما حكم شي هوانغ تي على أولئك الذين أحبوا الماضي بأن يقوموا بعمل هائل كالماضي، وغبي وبلا فائدة مثله.

وُظفت القصة أيضًا بوصفها نوعًا من الحكاية الرمزية عن الثورة الثقافية، وروّج لها الباحثون الذين دعموا حكومة الجمهورية الشعبية باعتبارها مثالًا مفيدًا عن نظام يتعامل بشكل ملائم مع نخبة رجعية. لا عجب أن قصة حرق شي هوانغ للكتب، مثلها مثل مكتبة الإسكندرية، هي أسطورية إلى حدٍّ كبير.

ورغم ما حدث من إحراق للكتب واضطهاد الباحثين، فمن المرجح أن سيما كيان بالغ في حديثه عن الأمر.

كان نهج كين مع الكتب أكثر تعقيدًا مما يمكن أن توحي به حكاية المؤرخ عن فينجشو كينجرو، واكتشفت حفريات جرتْ في ١٩٧٥ لمدفن كين أن أحد التوابيت يحتوي ١١٠٠ شريط من الخيزران المكتوب عليها والمختلطة بالعظام، وكانت تنتمي إلى النصوص القانونية، وكان الميت على الأرجح باحثًا قانونيًّا، دُفن باحث آخر ويومياته ملفوفة وموضوعة كمخدة تحت رأسه. وكانت الكتب مهمة لنخبة كين، وواصلوا قراءتها وتأليفها طوال حكم الإمبراطور، ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لبدا من غير المرجح أن يُحتفل في أثناء دفن الباحثين بعلاقتهم بالكتب.

واصل الباحثون نشاطهم في أثناء حكم شي هوانغ، ولم يترددوا في استخدام معرفتهم في الاحتفاء بحكمه. وبين ٢١٩ و٢١٠ قبل الميلاد، تجول الإمبراطور الجديد في الدول الشرقية التي فُتحت

حديثًا، وفي أثناء جولاته حجّ مع أوثق مستشاريه إلى قمم الجبال، حيث شيدوا مسلات، أو أعمدة حجرية، نُقشت عليها كلمات تمجّد فضائل حكمه، وتألّفت رسميًّا نصوص المسلات السبع المتبقية بأسلوب لمّح بشكلٍ مكثف إلى تقاليد البحث الكونفشيوسي، واستطاع مارتن كيرن الذي كانت ترجمته لنصوص المسلات موثوقة وممتازة أن يتعقب إلى حدٍّ ما كلّ سطر من سطور النقوش الجامعة المؤلفة من أربعة مقاطع إلى مصادر تراثية، فالنقوش على جبل لانغ – يه تقول: «إنه يعملُ باجتهادٍ على المهمات الرئيسة، ويطور الزراعة ويتخلص من المهن الثانوية». عقّب كيرن بأن هذا يشير ربما إلى قمع شي هوانغ للباحثين، ولم يحاول شي هوانغ في مسلاته على الأقل أن يمحو مرجعية التّاريخ والنصوص التي تناقلها، بل على العكس، بنى قصة حكمه من الأدبيات نفسها التي أُشيع أنه أحرقها.

بحسب كيرن، يشير حضور الإحالات إلى الكونفشيوسية في هذه النقوش الحجرية، وكذلك في شعر بلاط كين وترانيمهِ التي عُثر عليها منقوشة على: الأجراس، والجرار، وآنية برونزية أخرى، إلى بقاء المعرفة القديمة في أثناء حكم شي هوانغ.

ومن المرجح أن الكتب المحروقة كانت خاصَّة بالباحثين الذين رفضوا الخضوع لسلطة كين على المسائل الفكرية، وكان الباحثون والعرافون والمثقفون الأحرار الذين دُفنوا مثل كثير من الجنود الطينيين.

وتبين أنَّ الإمبراطور سعى إلى السيطرة ليس على المعرفة الكلاسيكية فقط، بل على الأعمال الفكرية كلها، بما فيها عمل

الأطباء والعرافين الذين يعملون خارج القيود الإمبراطورية، والذي كان سيشكل تهديدًا واضحًا لسلطة الإمبراطور الجديد العلمانية. وبدا كأن شي هوانغ أدرك ما اكتشفه بطالمة مصر: إنَّ احتكار مصادر المعرفة مهم للحكم كمثل التحكم الإمبراطوري بإنتاج الأرز والحرير، وبزغ المعيار الكونفشيوسي من سلالة كين أكثر انسجامًا، مما كان عليه في البداية بالرغم من أننا يمكن أن نُخطِئ بإنصاف اختيار الإمبراطور للأسلوب التحريري.

لم يكن مصير سلالة كين عظيمًا. تُوفي شي هوانغ في طريق عودته من حملة ضد انتفاضات الفلاحين، وبعد مرور ثلاث سنوات تمامًا، قُتل ابنه ووريثه وتفككت الإمبراطورية في ذلك الوقت؛ بسبب الصراعات بين زعماء الفلاحين والدوقات الإقطاعيين. وحاكى قادة الفلاحين الذين أسسوا في النهاية السلالة التالية، الهان، سلالة كين في وحشيتهم. وحين اختُطف الإمبراطور المستقبلي والد ليو جي على يد خصم هدد بسلقه حيًّا، أظهر القائد جَلَده الشديد طالبًا صحن حساء مصنوع من المرق الناتج عن ذلك.

حالما تأسست سلالة هان وتم القضاء على خصومها، انطلق دوقاتها ووزراؤها للبحث عن الشرعية في المعرفة والتأمل، وقدّم الشرعية الباحثون الكونفشيوسيون، قائلين: إن سلطة هان يجب أن تستند إلى دفاعهم عن المعرفة الكلاسيكية التي قمعها شي ومستشاره لي سي واستغلاها.

قدم الباحثون ما هو أكثر من التعاويذ الطقسية والمشورة البلاطية، فقدموا شرعية لمغتصبي العرش أيضًا، وتم التعتيم على نقاط القوة

الكثيرة لإمبراطور كين الأول - تدعيمه للسلطة، إحلاله للسلام بين الدول المتحاربة، توحيده الذي أُثني عليه كثيرًا لـ: الأوزان، والمقاييس، والنقد وحتى أحجام محاور العجلات - بينما أُعيد تأويل وحشيته التي بالكاد ميّزته عن ملوك آخرين بأنها لا سابق لها أو مبرر. أما لو جيا، كبير وزراء الإمبراطور الجديد، فقد قال في تقريره للإمبراطور الجديد إنه بسبب وحشية كهذه فقدت سلالة كين إمبراطوريتها، ولا تستطيع سلالة هان أن تأمل تدشين حكم بلا نهاية إلا عن طريق تبني طرق الحكمة الكونفشيوسية التي لم تتضمن بين فينة وأخرى وجبات من الحساء الأبوي. لكن لو جيا نفسه لم يشر إلى القصة التي وسمت حكم أول إمبراطور من سلالة كين في الأزمنة اللاحقة «فينجشو كينجرو»، أو حرق الكتب ودفن الباحثين.

فيما بعد وفيما كان الباحثون الكونفشيوسيون يتنافسون كي يبرزوا في خدمة الإمبراطورية، سعوا إلى تأسيس تراث نصي يعود إلى كونفشيوس نفسه عن طريق كوارث فترة الدول المتحاربة وصعود كين إلى السلطة، وصدر الأمر لسيما كيان، وهو كونفشيوسي من سلالة هان كانت لديه رغبة شديدة لتشويه كل ما فعله شي هوانغ، بأن يروي النسخة الأخيرة. وألف هيرودوت الصيني، سيما كيان كتاب «الشيجي» العظيم، أو «سجلات المؤرخ العظيم»، وهو تاريخ الصين الإمبراطورية الذي تميَّز بأنه ذا نطاقٍ عالمي، وبالرغم من أن موسوعة يانغ لو تا تيين لم تكن أضخم كتاب في الصين فإنها تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي وتتألف من أكثر من أحد عشر ألف

مجلد.

كانت تقريبًا عالمية في حجمها أيضًا إلى حدٍّ ما. بدت ضخمة على شرائط الخيزران الضيقة، كما وصفها المتخصص في الدراسات الصينية جرانت هاردي: «كان من المستحيل أن يحمل المرء الشيجي الأصلية بين يديه، وفي الحقيقة كان الأمر يحتاج إلى عربة كي تتسع لها».

روى سيما كيان فيها قصة مرسوم المستشار، وقصة الباحثين الأربعمائة وستين الذين دُفنوا أحياء.

هكذا وُلدت القصة المُلونة، لتمثِّلَ خليطًا من الحقائق التي أعيد ترتيبها والأخيلة العملية، وعن طريق قصته عن فينجشو كينجرو، وحرق سلالة كين للكتب، ساعد سيما كيان في استعادة المعرفة إلى السلطة الإمبراطورية، وسمح لها بالتمتع بالسلطة والحرية اللتين كانت ستفتقر إليهما لو لم يحدث هذا. ذلك أنه من دون قصة كتب محترقة كان من المحتم ألا يتم تأليف كتب أخرى كثيرة.

فَعَل الخيزران الواهي لسيما كيان وحبره ما لم تستطع مسلات شي هوانغ الحجرية وأجراسه البرونزية القيام به: فقد روى قصة فجر إمبراطورية، وجعل تلك القصة تعلق في الأذهان.

كان التَّاريخ الفكري للصين في القرون الوسطى، بمعنى ما، قصة صراع بين الزائل والأبدي، بين النقوش الحجرية والبرونزية للدولة وبين الخط المكتوب على الحرير والخيزران للباحثين والكهنة، وكان الثاني مقنعًا لأن النَّاسخين واصلوا الكتابة، ولأنهم أداروا الأرشيف، وكانوا يعرفون القصص على نحو أفضل، ولم يتوقفوا عن

سردها.

أما بالنسبة لسيما كيان، فقد حصل تشويهه الأشد مكرًا للإمبراطور الأول حين مدحه. ذلك أنه فعل ذلك بلغة قارنته مع الحكام القدامى لكين وأباطرة الزمن القديم. واتبعت مثل هذه المدائح الشَّكل المحافظ للبحث الكلاسيكي، لكن بما أن علاقة شي هوانغ متناقضة مع الأعمال الكلاسيكية، فإن مديحًا تقليديًّا كهذا انطوى على مسحة ساخرة، ولم يساعد تأكيد السلطة السماوية لهان في أي حال مؤلفه في النهاية، وبعد دفاعه غير الناجح عن وزير مذموم من تهم شوهت سمعته، مُنح خيارًا: أن يتم خصاؤه أو إعدامه، وهكذا صار سيما كيان خصيًّا، واضطر إلى أن يدفن كتابه (الذي كان يشكل مكتبة في حد ذاته) في الأرض من أجل أن يحميه من السلطات الإمبراطورية.

تواصلتْ التهديدات ضد الكتب والباحثين حتى في سلالة هان، بالرغم من القيمة التي أضفتها على المعرفة الكلاسيكية، وسعى الباحثون إلى أداة أكثر استمرارية من شرائط الخيزران وأوراق الحرير حُفظت عليها الكتابة بشكل عادي ردًّا على مثل هذه التهديدات، وفي القرون التي عبرت بين صعود كين واختراع الورق أسس الباحثون والكهنة أنواعًا جديدة من المكتبات في أنحاء الصين، مكتبات منيعة على النَّار والدفن، وكانت مجموعة فانغ شان من كتب السوترا البوذية التي تأسست في ٥٥٠ ميلادية في هونان بالصين، على سبيل المثال: مكتبة ضخمة، وشكلت نصوصها التي بلغت أربع ملايين ومائتي ألف كلمة إحدى المجموعات المرجعية الكاملة

للنصوص البوذية في اللغة الصينية، لكن لم يكن هناك كتاب واحد في مكتبة فانغ شان، ولم تكن هناك لفيفة حريرية واحدة، أو شظية ورق واحدة. عوضًا عن ذلك، نُقشت كلمات السوترا في أروع مرجع بأحرف بارتفاع بوصة واحدة، على مسلة حجرية وعلى جدران الكهوف. لم تكن نقوش الكتابة الحجرية جديدة كما شهدت على ذلك مسلة شي هوانغ الحجرية على قمة الجبل، لكن الجمع والحفظ المنهجي للنصوص الكلاسيكية على الحجر عكسا تطورًا فريدًا. وأدرك البوذيون، الذين بزغت مجموعة تعاليمهم في القرن الأول الميلادي في سلالة هان أن النصوص المحفورة سمحت بالرسم والتصوير عن طريق الفرك والتمسيد ما قدم نسخًا جاهزة للمؤمنين، واليوم تُكتشف مكتباتهم الحجرية و«متاحفهم» في جميع أنحاء الصين، وتمثل الملايين، وربما المليارات من نسخ الكتب المصنوعة بشكلٍ أرخص، ورغم أن التاويين والكونفشيوسيين اشتركوا في الممارسة، فإن النقش على المسلة كان مهماً خاصة للبوذيين خاصَّة الذين حفّز تبشيرهم فيما بعد على اختراع الطباعة التي كان الصينيون روادًا في تقنياتها قبل القرن الحادي عشر، ما مثّل تجسيدًا وانعكاسًا لأهمية إعادة اكتشافها في ألمانيا في القرن الخامس عشر ودورها الرائد في تقدم حركة الإصلاح والثقافة الأوروبية.

كان لعمليات حرق الكتب وإتلافها سواء أكانت أسطورية أم حقيقية أسبابها، وكانت في الغالب غير متعمدة كما هو الحال عندما أحرق قيصر سفنه في ميناء الإسكندرية.

وانقسم حرق الكتب المتعمد إلى قسمين: ربما كان الأول محاولة

للمراجعة والتنقيح كما فعل شي هوانغ. أما القسم الثاني فقد تجلى بعد ظهور الإسلام، حين أحرق المؤمنون بالقرآن نصوصًا دينية أخرى عُدَّت غير موثوقة. كان الحرق في تلك الحالة نوعًا من الطقس الديني، ذلك أنَّ المؤمنين رموا الكتب في ألسنة اللهب بإجلال خشية أن تحتوي كلمات من الحقيقة مُخبأة بين الصفحات التي تحتوي الخطأ، أو ربما كانت الكتب تُحرق من أجل محو مؤلفيها وقرائها من التَّاريخ، كما بيّنَ غزو المكسيك.

بعد أن سقطت تينوشتيتلان أمام هيرنان كورتيز صار غزو المكسيك معركة كتب، وأعني تاريخ المكسيك المدون إزاء الكتاب المقدس المسيحي. نشأت تقنية الكتاب في أمريكا الوسطى على الأقل قبل وصول كولومبس بألف سنة، وعكست في ذلك الوقت دقة وتطورًا فائقين للعادة. في كتابات المايا التي ربما كانت أكثر أنظمة أمريكا الوسطى تعقيدًا قد تكون الصورة الرمزية تسمية تقويمية أو اسمًا، أو حتى رمزًا صوتيًّا لمقطع لفظي. وتنوعت المواد من الأحجار إلى الجلد ومواد أخرى. وألّف الآزتيك كتبهم على جلود غزلان معدة خصيصًا، أو على ورق أصلي مصنوع من أنسجة نبتة الصبار. وكانت المخطوطة تُدهن بألوان متألقة بفراشي دقيقة والأغطية تُصنع غالبًا من جلود اليغاور.

انتقص الباحثون من الكتابة الهيروغليفية في أمريكا الوسطى في القرون التي تلت الغزو، ونعتوها بأنها: «أقل تقدمًا» من الهيروغليفية الفرعونية. وحين تواصل فك شفرة المخطوطات والنقوش صار من الواضح على نحو متزايد أن النقاد الأوروبيين

الأوائل لم يكونوا دقيقين في مصطلحاتهم. ذلك أن المخطوطة الأيقونية المعروفة بالنهواتلية باسم: «تلاكويلولي tlacuilolli»، على سبيل المثال: قال عنها غوردون برزرستون: إنها «تصهر في تعبير بصري واحد ما يشكل بالنسبة إلينا المفاهيم المنفصلة للحرف والفن والحساب». وعلى صعيد المفاهيم، تخفي البساطة الظاهرية أيضًا أعماقًا مُخبأة في الكتابة الأمريكية الوسطى، وكانت معظم قوانين الضرائب الإمبراطورية الأزتيكية على سبيل المثال مؤلفة بحسب خطة أهم أنظمة الترتيب الأمريكية الوسطى: التقويم. لكن هذه الحوليات التقويمية أدخلت: التَّاريخ، والكهانة، والسيرة الذَّاتية، والأسطورة، وعكست عالم الدين في أمريكا الوسطى وتفاصيل تاريخها. ووُجدت أجناس أخرى أيضًا، فهناك كتاب لافت يصف الأعشاب الطبية (كتاب يحتوي أسماء ومواصفات النباتات المفيدة) وقوانين إمبراطورية آزتيكية وهو من بين مجموعة قليلة من الكتب التي نجت وتعود إلى ما قبل الفتح. لكن المكتبات الآزتيكية تألفت بصورة رئيسة من الحوليات التقويمية، وكانت مبجلة؛ بسبب المعرفة الدينية وقوة العرافة التي تحتويها.

رصد الغزاة، وأحرقوا جميع الكتب الآزتيكية المرسومة التي تمكنوا من العثور عليها بعد أن عرفوا أهمية هذه الكتب للكهنة وطبقة النبلاء المكسيكيين. وعرف النَّاسخون المكسيكيون أن تاريخهم معرض للخطر، فواصلوا إنتاج المخطوطات في السر، ولم يستطع الإسبان استئصال آخر كليات النسخ في جبال أواهاكا حتى قرن آخر، لكن الآباء الإسبان الذين عُهدت إليهم مسؤولية تحويل

سكان أمريكا الوسطى دينيًّا كانوا لا يعرفون الصفح، وبسبب عدم قدرتهم على الفصل بين القيمة التَّاريخية للكتب الآزتيكية والتهديد الديني الذي شكلته قاموا بإحراق الكتب أينما عثروا عليها.

استغرق الأمر بضع سنوات حتى اكتشفوا حماقتهم، فقد كانت الكتب الآزتيكية الضائعة تحتوي معلومات حول تاريخ وإثنوغرافيا ولغات أمريكا الوسطى برهنت أنها جوهرية لتحول ثقافات المكسيك إلى المسيحية. وبعد بضع سنوات من الغزو، وبحسب مؤرخ مكسيكي رائد هو ميغيل ليون- بورتيّا، بدأت البعثات التبشيرية بتدريس النبلاء الآزتيكيين استخدام الأبجدية الرومانية كي يدونوا اللغة النهواتلية، وذهب بعض النَّاسخين الذين دربوهم للتعاون مع الأوروبيين في إنتاج كتب جمعت بين الكتابة الهيروغليفية السابقة لكولومبس والكتابة الصوتية الأوروبية، وكان أعظم هذه الأعمال هو الكتاب الذي ألفه فرانسيسكان برناردينو دي ساهاغون، والذي شكّل كتابه «التَّاريخ العام لشؤون إسبانيا الجديدة» موسوعة شاملة لحضارة أمريكا الوسطى تناولت: التَّاريخ الآزتيكي، وعلم النبات العرقي، والدين والطب.

وكانت المخطوطة الأجمل التي تم فيها مزجٌ فريد بين تراث أمريكا الوسطى والتراث الأوروبي في صناعة مخطوطات الكتب، معروفة باسم: «المخطوطة الفلورنسية» وهي موجودة في مكتبة لورنتيان في فلورنسة بإيطاليا، التي أنشأها كوسيمو دي ميديتشي وصممها مايكل أنجلو.

لم يكن الإسبان أول من أحرق كتب وادي المكسيك، فقد اكتشف

الآزتيكيون وحدهم كيف يجلّدون الكتب وكيف يتلفونها. وكان أسلاف حكام تينوشتيتلان الآزتيك هم المكسيكا، وهم قبائل بدوية جاءت من الشمال قبل مائة عام من الغزو الإسباني تقريبًا، وبعد أن دعم المكسيكا سيطرتهم وشرعوا ببسط نفوذهم في أنحاء المنطقة أدرك كهنتهم أن السجلات القديمة للتنقل والوحشية لن تنفع، فحوّل المكسيكا أنفسهم بسرعة إلى آزتيك، وأنشأوا نظامًا جديدًا من النبالة، وفرضوا ضرائب جديدة، ونظامًا جديدًا من الثيوقراطية في وادي المكسيك، واستدعت مثل هذه التحولات الشاملة أيضًا كتابة تاريخ جديد، فجُمعت الكتب القديمة وأُحرقت. وجاء القرار من الإمبراطور الآزتيكي الأول إتزكواتل الذي شارك في تأليف القصة الجديدة، وألّف ترانيم لتاريخ الآزتيك المنقّح، ولم يترك الكتاب الجديد أي شك حول الأصول القديمة لحق الآزتيك بالسلطة، ولم تكن هذه الفرصة الأخيرة التي سنحت لناسخي الآزتيك كي يراجعوا تاريخهم، فحين شرعوا بالتعاون مع كهنة مثل الأب برناردينو لإعادة تدوين سجلات الإمبراطورية الضائعة أدخلوا في تواريخهم بشائر بأثرٍ رجعي ونبوءات «تنبأت» بمجيء الفاتحين بلغة أُضفي عليها طابع أسطوري. وهكذا أشبعوا غرور حكامهم الجدد، حتى حين شرّعوا سلطة الدين المعقد الوحشي الذي أُجبروا على التخلي عنه.

جرت عمليات حرق كتب عشوائية وتنقيحية وشاملة، وشهدت روما هذه الأمور كلها، وتقدم أساطير روما صورة عن حضارة من

المحتمل أنها عثرتْ على ميلادها في حرق الكتب. وبين حكايات أصل روما حكاية سيبيل الكومانية، وهي نبية ألفت كتب نبوءات تنبأت بمجد روما، لكنها أحرقتها بيدها. حين كانت عذراء رفضت الإله المتيم بها أبولو الذي انتقم منها بأن قدم لها الخلود الذي اشتهته مجردًا من الشباب الأبدي.

(قساوسة يحرقون كتبًا أزتيكية (في براثن الكاهن في أقصى اليمين). مخطوطة تلاكسكالا ١٣. مكتبة جامعة جلاسكو، مجموعة هنتريات ٢٤٢. حصلنا على إذن من مكتبة جامعة جلاسكو).

وهكذا كانت تكتهل عبر العصور، وتنفّر الآخرين الذين نبذوها؛ بسبب ثآليلها الكثيرة وظهرها المحني.

أشفق أبولو عليها على ما يبدو، بالرغم من ذلك، فقد منحها هبة النبوءة.

اعتكفت في كهف في هضبة كوما، وأمضت الأعوام في تدوين رؤاها النبوية على أوراق النخيل.

وفي رواية فيرجيل جاء أينياس إلى الشاطئ في كوما، حيث زار سيبيل التي نقلت إليه نبوءتها المخيفة والمريعة عن مستقبل روما.

ضمّن مايكل آنجلو صورتها بين الأنبياء في مصلى سيستين، وصورها في رأس ملفع في عمامة، وجهها عميق التجاعيد، لكنها تحمل كتابها النبوي بذراعين سميكين ومرنتين كيديْ قاطع حجر.

إنَّ صورتي المفضّلة لسيبيل الكيومانية هي في نهاية الصالة، حيث رسمها مايكل آنجلو في صالون سيستينو في الفاتيكان.

كانت هذه الغرفة المتألقة قلب مكتبة الفاتيكان، وفي الحقيقة، كانت القاعات التي يمر عبرها الزوار الآن هي المكتبة، وكانت الخزانات الخشبية المدهونة التي تصطفُّ على الجدران (سمعتُ سائحًا يسأل زوجته «هل تظنين أنهم يحفظون أثواب الكهنة فيها؟»)، تحتوي على كتب، ويُعدّ التصوير الجصي في صالون سيستينو إحدى السلاسل التي تصور المكتبات الكبيرة وعمليات حرق الكتب في العالم القديم، وتظهر سيبيل وهي تحاول بيع تسعة كتب نبوءة (رؤاها المجمَّعة والمنقوشة في كتب من سعف النخيل) للملك الروماني الأول تاركوين الشجاع. وحين رفض تاركوين شروطها رمت الكتب الثلاثة الأولى في النَّار، وعرضت الستة المتبقية بالسعر الأصلي، لكن الملك رفض مرة أخرى، وحين رمت سيبيل

الكومانية ثلاثة كتب أخرى في النَّار تأثر تاركوين ذو الاستيعاب البطيء في النهاية، ودفع لها ثمن الكتب الثلاثة المتبقية. كان هذا هو المشهد الذي عبّر عنه التصوير الجصي في الفاتيكان، وفيه تاركوين يتألم فوق الكتب المكومة في الكانون، بينما تقف سيبيل الشابة غير مكترثة أمامه على نحو غريب.

تنتهي الأسطورة بوضع الكتب في المنتدى الروماني، حيث كان يعود إليها الأباطرة الرومانيون في أوقات اليأس حتى القرن الرابع قبل الميلاد. ولكن في مرحلة ما اختفت هذه الكتب، وربما ضاعت، أو ربما تسلّى بربريٌّ مبتسمٌ أو قائد روماني بدفع المجلدات الثلاثة المتبقية لأن تلقى مصير أخواتها بدلًا من وفي نقطة ما، على أي حال، اختفت، وربما ضاعت فحسب، أو ربما سلّى بربريٌّ مبتسمٌ ما أو قائد روماني نفسه بتسليم المجلدات الثلاثة المتبقية إلى مصير أخواتها.

وما تزال المحتويات الدقيقة لكتب سيبيل لغزًا حتى اليوم، ويبدو من بضعة مقتطفات وردت في مصادر أخرى أنها مؤلفة من بضعة أمثال غامضة مكتوبة باليونانية تخفف عن أو تعزي إمبراطورًا يواجهه وباء الطاعون أو مهدد بالاغتيال، أو غزوات البرابرة.

بالرغم من أنَّ سيبيل أسطورية، إلا أن كتبها كانت واقعية بما يكفي. وبعد أن وُضعت أولًا في المنتدى الروماني، استقرت فيما بعد في تجويف تحت تمثال أبولو في مكتبة أغسطس في البلاط. وفي الحقيقة، حدّدتْ بداية مكتبات روما. كانت الكتب في روما إلى حدٍّ

كبير في أيد خاصَّة حتى زمن يوليوس قيصر، وتقاسمها مالكو المكتبات الكبيرة مثل شيشرون مع أصدقائهم وزملائهم في النخبة، وكانت فكرة مكتبة عامة تشبه مكتبتنا من إبداع يوليوس قيصر الذي خطط لبناء مكتبة للمدينة تمامًا قبل اغتياله. وبعد مقتل قيصر، تولى مناصره أسينيوس بوليو والكاتب فارو (الذي لم تبق أطروحته حول إدارة المكتبات التي حملت عنوان: «حول المكتبات») القضية، وبنيا مكتبة روما العامة الأولى في المنتدى في نحو ٣٩ قبل الميلاد.

حققا رغبة يوليوس قيصر وبنيا مكتبة فيها غرفتان للقراءة واحدة للكتب اللاتينية وأخرى لليونانية مزينتان بتماثيل شعراء وخطباء ملائمين. كان هذا هو النموذج الذي اتخذته جميع المكتبات الرومانية اللاحقة من مستودعات أوغسطس وتراجان إلى المكتبات العامة الأكثر تواضعًا وإلى المجموعات الصغيرة في الأقاليم. وحددت نقطة انطلاق وانفصال عن النموذج اليوناني، بنموذجه في الإسكندرية، المكتبة التي ليست فيها غرف قراءة كهذه. وعبرت طبيعة المكتبة الرومانية التي كانت ثنائية اللغة عن التراث المتوسطي الذي ادعت روما تمثيله، بينما قدم التشديد على تجربة القارئ البرهان على أصلها الجمهوري.

اتبع أغسطس، أول إمبراطور حقيقي لروما، قيصر وجهد كي يبزه في آن في المكتبات كما في كل شيء آخر. وحالما صفّى خصومه واستراح منهم انطلق أغسطس كي يحول روما إلى مدينة إمبراطورية. وتباهى فيما بعد بتحويل مباني روما من الآجر إلى الرخام، ووُضعت بين صروحه الرخامية مكتبة البلاط العظيمة التي

جاورت معبده الخاص بأبولو. وبنى مكتبة ثانية فيما بعد في الرواق القريب الذي شيّده تخليدًا لذكرى شقيقته أوكتافيا. لم يتبق من هذه المكتبة الثانية أثر، لكن بقايا مكتبة البلاط تقدم صورة عن المكتبات الإمبراطورية بغرف قراءتها الاثنتين المتجاورتين، بتجاويف في الجدران لتثبيت الخزانات المغلقة، أو خزانات الكتب الخشبية ذات الأبواب التي كانت توضع فيها المخطوطات، واستُخدمت تجويفات أعمق للتماثيل، واتفق كاتب سير الأباطرة الروماني سويتونيوس مع فيرجيل أن كتب سيبيل أُحضرت إلى هذا المعبد، حيث وُضعت تحت تمثال راعيها المتقلب أبولو.

ومثلما فعل أغسطس قام كلٌّ من الأباطرة اللاحقين بتضمين مكتبة أو اثنتين في مشاريع بنائهم الإمبراطورية. وبين هذه المكتبات، ربما كانت مكتبة الإمبراطور تراجان هي الأعظم، واختلفت عن المكتبات الأخرى المؤلفة من طابقين متجاورين، وكانت غرفتا القراءة تواجهان بعضهما بعضًا وتتصلان بممرات مسورة. وفي البلاط بينهما انتصب عمود تراجان، وهو صرح شهير لذلك الإمبراطور. ووضع رجل الحرب والمكائد هذا النصب التذكاري الأكبر لحياته العملية وسط المكتبة بالرغم من أن هذا يبدو غير قابل للتصديق الآن.

لم يشيد الأباطرة مكتبات داخل قصورهم الخاصَّة ومعابدهم فحسب، بل منحوها أيضًا لشعب روما، وفي عهد أغسطس كانت الحمامات العامة - وهي جزء من سخاء «الخبز والسيرك» الذي كانت المدينة الإمبراطورية ترضي به الجماهير - تحتوي المكتبات بين

وسائل راحتها، وبالرغم من أنَّ هذه المكتبات اتبعت التخطيط الإمبراطوري بغرفتيْ قراءة متواجهتين للغتين، من المحتمل أنها كانت تحتوي أعمالًا أدبية كلاسيكية مألوفة أكثر من المجموعات الملكية، وعلى أطروحات سرية قانونية وعلمية وطبية أقل، وبينما كان من المعروف أن الكتب في الإسكندرية لاقت مصيرها في مواقد الحمامات العامة، يبدو أن أصل المكتبة العامة نفسها جاء من الحمام.

كان تطور المكتبات وانتشارها في أنحاء العالم الروماني لافتًا للنظر؛ خاصَّة بسبب الحياة الفكرية الرومانية غير المركزية وغير الرسمية. وكان السعي إلى المعرفة في المجال العام كالسعي إلى الثروة أو السلطة مسألة ارتباطات خاصَّة وعلاقات بين النَّاس قائمة على المصادفات. ونادرًا ما سعى الأباطرة الرومان إلى فرض سيطرة مباشرة على حياة الذهن على عكس البطالمة، وسلالة كوين، أو طبقة النبلاء الآزتيكية. وكما أشارت عالمة الكلاسيكيات إليزابيث روسون كانت روما تفتقر للمدارس والجامعات. وكان عدد كبير من النخبة الرومانية يذهبون إلى اليونان من أجل الدراسة، ولم توجد مسابقات رسمية للكتاب والفنانين، كما كان يحدث في اليونان، ولم تدفع الدولة رواتب: المهندسين، والفيزيائيين، والمدرّسين، أو مهنيين آخرين. وكانوا يعتمدون على رعاية الأفراد من السيناتورات أو المنزل الإمبراطوري. في ضوء هذا، كانت مكتبات روما المزدهرة فريدة وتشكل أقرب ابتكار روماني إلى المؤسسات الثقافية الرسمية كما نعرفها اليوم.

وعلى نحو مشابه، لم يكن الأدب مهنةً قط بالنسبة إلى الفرد، بل

مجرد هواية. وكانت كتابة التَّاريخ والمسرح أو الشعر الغنائي مناسبة فقط لوقت فراغ رجل من العامة. ولكن كما بيّن كتاب ماركوس توليوس شيشرون أن هذا لا يقلل أهمية الأدب والمكتبات في حياة روما العامة. كان شيشرون المثال الأبرز على رجل الأدب الروماني، فعمله سيناتور ومحام ومسؤول جمهوري شمل مرحلة روما الأكثر اضطرابًا التي في أثنائها دمرت الحروب الأهلية الجمهورية، وأطلقت الإمبراطورية. وتشكل رسائله سجلًا مهمًّا للاضطرابات في روما كأعمال أي مؤرخ، لكن مواهبه الخطابية هي التي رفعته إلى ذروات نخبة السيناتورات، وكانت الحياة العامة والرسائل أمرًا واحدًا بالنسبة لشيشرون، كما أن تاريخ روما الجمهورية وعائلاتها المؤسسة زوَّداه بقصص تنويرية شغلت ساعات فراغه وبذخيرة سياسية جوهرية أيضًا. كان ابن مواطنٍ ثري من أصول عامة، وصُدم مرارًا من الجهل الذي أبداه سليلو أسر روما الكبيرة بتاريخهم، كما أن رسائله للأصدقاء والزبائن احتوت غالبًا طلبات مدروسة بعناية لمعلومات من أرشيف السيناتورات.

بذل شيشرون جهدًا كبيرًا في شراء الكتب ونسخها وبناء مكتبته مثل جميع الكتاب الرومان، واستفاد في هذا الأمر من مساعدة تيرانيو، معلم روما وباحثها الأعظم الذي اشتهرت مكتبته الخاصَّة بأنها تحتوي ثلاثين ألف مخطوط، كما استفاد من أصدقائه، وخاصَّة تيتوس بومبونيوسو أتيكوس الذي بقيت رسائله الأربعمائة وست عشرة من شيشرون حتى الآن في طبعات حديثة. استفاد أيضًا من عبيده اليونانيين المثقفين الكثيرين. وكان العبيد المثقفون في روما،

ومعظمهم يونانيون، يقومون بمهمات أبحاث كثيرة شملت: التَّعليم، والنسخ، والتحرير، وعلم المكتبات. وكانوا من بين الأعضاء الأكثر قيمة لأي نخبة منزلية. وفي هذه الثقافة التي تستند إلى المخطوط، لم يكن رجل الأدب يملك عبدًا كاتبًا وناقدًا وقارئًا فحسب، بل صار أيضًا وبسبب الضَّرورة ناشرًا أعماله الخاصَّة وأعمال الآخرين.

وعلى الرغم من أنَّ روما دعمت تجارة كتب مزدهرة، عرف القراء القادرون على التمييز أنَّ الكتب المعروضة في أكشاك الكتب كانت في غالب الأحيان فاسدة بشكلٍ يدعو لليأس.

وقدّم شيشرون وأصدقاؤه لبعضهم نسخًا منسوخة بعناية من أعمالهم الخاصَّة ومن تلك التي في مجموعاتهم. وفعل شيشرون هذا حين جمع كتابه: «الكتب الأكاديمية» العظيم في الفلسفة الأكاديمية، كي يستخدمه الكاتب فارو. روى لصديقه أتيكوس في رسالة في ٢٤ حزيران، في ٤٥ قبل الميلاد كيف ألفه:

استقيتُ كتاب «الكتب الأكاديمية» كله من شخصيات أرستقراطية رفيعة، ومن كتابين جعلتهما أربعة. كانت أكبر من القديمة، فأزلت منها كمية كبيرة. إنني أعد هذا الكتاب – وربما يدفعني الغرور إلى ذلك الحكم – الأفضل في تصنيفه حتى اليوم، حتى في اليونانية. أنا متأكد أنك ستتبنى وجهة نظر فلسفية حول تبديد عمل ناسخيك حول أطروحة العقيدة الأكاديمية التي تملكها مسبقًا. سيكون هذا العمل أفضل وأروع وأكثر دقة.

كانت خطاباته أمام مجلس الشيوخ مثل كتبه «أروع وأكثر دقة» بكثير من خطابات أقرانه، ومحبوكة بأسلوب خطابي محكم وانتقائي تميّز به شيشرون وحده. واستخدم مواهبه التي لا تُضاهى كي يترأس دفاعًا مثابرًا عن روما الجمهورية في وجه تقدم يوليوس قيصر وخصومه، وبالرغم من أنه لم يشارك في اغتيال قيصر، كانت ميوله الجمهورية معروفة جيدًا. وحين واجه المشكلات من خليفة قيصر أوكتافيان - الذي دعي فيما بعد باسم: «أغسطس» - تمت ملاحقته وقتله، حيث قُطعت يداه ورأسه، وعُرضوا في موقع انتصاراته الأعظم، فوق منصة المتحدثين في قاعة مجلس الشيوخ.

وحين صارت الجمهورية إمبراطورية ازدهرت مكتبات شيشرون المحبوبة. وحتى وسط النيران المزمنة التي ابتليت بها روما، تمَّ الحفاظ عليها حتَّى القرن الرابع. وأتى حريق المدينة الكبير في ٦٤ ميلاديَّة (قيل: إن نيرون عزف على الكمان بينما كانت المدينة تحترق) على مكتبة البلاط. استعاد دوميتيان المكتبة، وفعل الأمر نفسه مع مكتبة أغسطس أوكتافيان حين احترقت، وكان هذا لافتًا؛ بسبب عدم اهتمام دوميتيان بالأدب، وكتب سويتونيوس عن دوميتيان قائلًا: «أهمل جميع الدراسات الثقافية في بداية إمبراطوريته، بالرغم من أنه تلقى الأمر لإصلاح المكتبات التي أحرقتها النيران، وتولى فوق مسؤولياته المتعاظمة القيام بالبحث عن أجزاء نسخ الكتب المفقودة كلها، والإرسال إلى مناطق بعيدة كـ: الإسكندرية لكتابتها وتصحيحها».

تواصلت روعة الإمبراطورية مدة طويلة حتى في أثناء تدهورها،

وكان الرومان المسيحيون حتى أواخر القرن الخامس يزورون فيلات بعضهم؛ كي يعيشوا من جديد روعة الأيام الخوالي. وقد وصف الكاهن وعالم الدين غزير الإنتاج سيدونيوس أبوليناريس، في رسالة إلى صديقه دونيديوس كُتبت في ٤٣٠ ميلادية مشهدًا تتعالى فيه صيحات شبان يمارسون الرياضة في الملاعب، وأصوات النرد، والضحك الذي تضج به الغرف المعزولة، وعثر على متعته الأعظم، على أي حال، في مكتبة فيلا، حيث:

هناك كتب بأعداد كبيرة جاهزة للاستخدام، ويمكن أن تتخيل نفسك وأنت تنظر إلى: رفوف باحث محترف، أو الصفوف في الأثينيوم، أو الأكوام العالية لبائعي الكتب. وكانت الترتيبات تتم بطريقة تكون فيها المخطوطات التي تقعُ قرب مقاعد السيدات من نمط تعبدي، بينما تلك التي تقع بين مقاعد السادة كتب تتميز بعظمة الفصاحة اللاتينية.

وتتضمن الثانية كتابات محددة لكُتَّاب محددين تحافظ على تشابه في الأسلوب بالرغم من اختلاف عقائدها. وكانت القراءة لكتاب تتشابه أساليبهم ممارسة متكررة، فهنا كان أوغسطين، وهناك فارو، وهناك هوراس، وهناك برودنتيوس.

يقدم وصف سيدونيوس دليلًا على التغيرات في استخدامات الكتب، حتى وسط التقدير المتواصل لعظمة الفصاحة اللاتينية. أولًا: يوجد الآن مكان للكتب التي عُدت منشقة في إحدى المرات للذين دعاهم جيبون الجليليين. وكان سيودنيوس نفسه مسيحيًّا

ورعًا، كما كان معظم زملائه في النخبة في ذلك الوقت، لكن هذا لم يمنعهم من تقدير أهمية عمق كتّاب وثنيين، مثل: فارو وهوراس.

وكان القديس جيروم ما يزال قادرًا في القرن الرابع على أن يحلم بأنه ملعون بسبب الوثنية وولعه بالأعمال الكلاسيكية الوثنية، وبالرغم من ذلك لم يكن الحظر ضد الوثنيين حتى بعد عقود عدة عظيمًا كي يدفع سيدونيوس وأصدقاؤه إلى التوقف.

تقدم حقيقة أنَّ «الكتب التعبدية» وُضعتْ قرب مقاعد النساء وجهة نظر أخرى حول سوسيولوجيا القراءة في أواخر أيام الإمبراطورية، وفي الأزمنة الوثنية، لم تُمنح النساء الكثير في مجال التَّعليم.

كانت ابنة شيشرون توليا استثناء نادرًا، فقد حصلت على تعليم خاص، ودُعيت دوكتيسيما، أي: الأكثر تعلمًا، على يد والدها في مقالته المؤثرة «عزاء» التي ألفها بعد وفاتها. وحين كان النساء يتلقين التَّعليم إما عن طريق اجتهادهن وإما الأساليب غير الأرثوذكسية لوالديهن، كن يملن إلى تفضيل الفلسفة والحساب على الأدب. ذلك أن الأدب كان موضوعًا ذكوريًّا وعمليًّا ينسجم مع احتياجات الخطاب العام في مجلس الشيوخ، وربما جهزت القراءة الميتافيزيقية الصوفية النساء الرومانيات كي يكنّ أكثر تلقيًا للفكر المسيحي واحترام الأعمال التأملية وتفضيلها على البلاغة المنمقة للشعراء والمؤرخين.

نستطيع أن نتخيل أخيرًا أنه بين اللفائف الكثيرة في المكتبة التي زارها سيدونيوس كان هناك عدد جيد من الكتب كما نعرفها اليوم،

وأدخل المسيحيون المخطوط أو الكتاب المجلد إلى روما بعد أن أحضروه من موطن الكنيسة الأولى في: فلسطين، ومصر، واليونان. وفي حافظات من العاج أو الخشب المغطى بالشمع التي حملها الرومان المتعلمون لفترة طويلة باعتبارها نوعًا من دفاتر الملاحظات، تم تجميع صفحات ورق البردي والرق معاً لأول مرة بطريقة مماثلة للعصر المسيحي، وتظهر قطعة فسيفساء في رافينا، تعود إلى زمن سيدونيوس، خزانة كتب رومانية مليئة بمخطوطات توضع مسطحة وأغلفتها مقلوبة، وعناوينها بادية للعيان. كانت أناجيل. وكان المخطوط ما يزال أداة مسيحية متميزة.

لم تكن المخطوطات أسهل للقراءة من اللفائف فحسب، بل أسهل للتخزين أيضًا. ورغم أن مادتها كانت معرضة للتلف مثل البردي المستخدم في اللفائف فإن موقعها المتوازن على رف المكتبة ساعد في ضمان حياة أطول لها مع القليل من التصحيحات. وكان تنظيم المخطوطات أسهل من اللفائف ما جعل المكتبات تتطور أكثر مما كانت عليه في الزمن القديم، لكن المخطوط لم يستطع أن ينقذ المكتبات الخاصَّة، كتلك التي وصفها سيدونيوس، من الاختفاء النهائي. وفي قرون الحرمان والفوضى التي أدت إلى تراجع روما، عانت الكتب مثل كل شيء آخر.

علاوة على ويلات عمليات التدمير والإتلاف التي قام بها الأباطرة والبرابرة والرعاع الغاضبون عانت الكتب من الكوارث الطبيعية، ودفنتْ مدينة هركولانيوم في أنهارٍ من الرماد تدفقت من انفجار جبل فيزوف في ٧٩ ميلادية، كما فعل الانفجار المشابه الذي

دمَّر بومباي وحفظها. وكشفت عمليات التنقيب في القرن الثامن عشر أن غرفة فيلا بابيري المشهورة تحتوي الشظايا المختلطة للفائف سودتها نيران الانفجار، ورغم أن كثيراً منها كان احتراقها في غاية السوء ولا تمكن قراءته فإن مخطط الغرفة نفسه كان مثالاً رائعًا على مكتبة رومانية بتجاويف في الجدران، حيث كانت الخزانات المغلقة مركبة بأناقة.

كان حجم المكتبة فائقًا للعادة ويحتوي نحو ألفي لفافة، وكانت هركولانيوم ضاحية لنابولي نمت من مستعمرة يونانية مبكرة إلى مدينة عالمية أُضْفيَ عليها طابع هيليني عميق، وعكست كتب فيلا بابيري هذا المناخ الانتقائي المثقف، وكان معظمها كتبًا يونانية، وأغلبها أطروحات في الفلسفة الأبيقورية، وكانت بقايا قليلة من هذه الكتب فقط قطعًا متفحمة غير قابلة للمعرفة كلفائف. ومنذ أكثر من مائتي عام رمى المنقبون شظايا ظنوا أنها قطع من الفحم.

اخترع قسٌّ إيطالي من القرن الثامن عشر يُدعى: «أنطونيو بياجيو» آلة فائقة للعادة لفتح اللفائف المحترقة: خيوط من الحرير مخيطة إلى الحافة الأمامية لورق البردي، حيث يتم لفها حول مجموعة من البراغي التي عن طريق الشد التدريجي تقشر الطبقات المحترقة، وتُقطع شظايا المخطوطة الهشة وتُلصق على شرائط لاصقة لتقويتها والحفاظ عليها. وعن طريق هذه العملية، تم فك عدد من اللفائف بحرص، وقُرئت ونُشرت. واعتُقد أنَّ غالبيتها غير قابل للقراءة حتى وقت متأخر، ويستخدم الآن فريق من جامعة بريغهام يونغ والمكتبة الوطنية الإيطالية في نابولي تقنيات تصوير رقمية لفك شفرة

الشظايا المتبقية. ويعكس الحبر الضوء على نحو مختلف في ورق البردي المتفحم الذي وُجد عليه، ويمكن أن يضيء التصوير الطيفي الاختلافات بين الاثنين مقدمًا صورة واضحة للكتابة، وبقيت عشرة آلاف شظية يعتقد أعضاء الفريق أنهم قادرون على فك شفرتها كلها.

توصل كلٌّ من أفلاطون وأرسطو قبل وقت طويل من سقوط روما إلى استنتاج بأنه لا يوجد نظام سياسي لا يعاني من التدهور، وبناءً على هذه القاعدة يمكن أن نضيف أنه لا توجد مكتبة لا تختفي في النهاية تاركة ثغرة لأجيال المستقبل؛ كي تحار في فهمها.

تجلت في مأساة فيلا بابيري مأساة المكتبات عبر التاريخ: تضحية الثقافات والملوك بالكتب المجمعة في مكانٍ واحد، وهذا ما حدث لأغلب مكتبات الزمن القديم من آسيا الوسطى إلى إسبانيا، ومن الإسكندرية إلى بيرجاموم، وقدم الباحثون الذين يعملون على شظايا هركولانيوم احتمالًا محيرًا وهو أنهم يمكن أن يعثروا على بعض الأعمال الكثيرة المفقودة للعالم القديم بين الشظايا. لكن، حتى لو كانت آخر الحروف المتفحمة قليلة ولا تقدم شيئًا جديدًا، هناك شيء واحد مؤكد وهو أن المكتبة القديمة الأكثر كمالًا المتاحة لنا اليوم بقيت؛ لأنها احترقت.

الفصل الثالث
بيت الحكمة

حين انحسر ضوء روما مما دعاه جيبون «أجمل بقعة على وجه الأرض»، بدأت مكتباتها أيضًا بالتدهور والموت.

كان هذا وقتًا سيئًا لـ: المعرفة، والكتب، والمكتبات، فقد بنى المسيحيون الرومان على المستوى الثقافي هوية لأنفسهم مضادة لأدب العالم القديم الوثني وفنه. ونضبتْ الموارد المالية المخصصة لشراء الرق والبردي وتحضيرهما وزيادة أعداد النَّاسخين الغفيرة مع تفاقم التدهور التجاري والاجتماعي للإمبراطورية، وانهيار التَّعليم والطرق التي حملت فيما مضى البريد القوي لروما الذي كان في غاية الأهمية لحياة جمهورية الآداب. وأظهرت رسائل لاحقة أنَّ النبلاء الرومان تولّوا مهمة عملية النسخ، وكانت هذه علامة مؤكدة أن عدد العبيد المتعلمين الذي كان منتظمًا تضاءل.

كان ما يزال هناك لسان لهب ضعيف يرتعش بين جماعات الرهبان المسيحيين، وبالرغم من البؤس المادي والوصايات الدينية تواصلت الثقافة الأدبية للعالم القديم بين الرهبان، وفي جماعة واحدة من الرهبان في مصر في حوالي ٦٠٠ محا الأخوة سطورًا ليس فقط من الكتاب المقدس، بل حتى من الإلياذة وكتاب «الجمل» لميناندر، وعن قطع الحجر أو الفخار.

أشار عدم التمكن من العثور على مادة أكثر جودة للكتابة في أبرشية في موطن البردي إلى بؤس الجماعة بالرغم من أنَّ هذا لم يوقف الرهبان عن مواصلة القراءة والدراسة، لكن ربما كان يوحي هذا أيضًا بحدوث تغيير في استخدامات القراءة والكتابة، وفي أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية صارت الكتابة أداة قابلة للتلف، وكانت استخداماتها مؤقتة ونفعية، وحين خفّ جوع الإمبراطورية للنقش على الحجر، ولم تصدر مرسومات وخطابات رسمية تُدون على الرق والبردي، كُتب القليل من أجل الحفظ في سجل دائم، وكان الرهبان يكتبون كي يتعلموا قراءة الكتاب المقدس ونسخه، ولفرض أنفسهم في عمل مكافئ روحيًّا. علاوة على الكتابة التي تمت على الفخار، كانت معظم الكتابة في ذلك الوقت تحفر على ألواح شمعية لم تكن تستمر طويلا بسبب طبيعتها.

من المرجح أنَّ الكهنة الأقباط في مصر استمدوا من هذه الألواح الشمعية أولًا الإلهام؛ كي يخترعوا، أو على الأقل كي يتمّوا، شكل الكتاب كما نعرفه اليوم: المخطوط. وكان اللوح الشمعي أداة كتابة مهمة من زمن بلاد ما بين النهرين حتى العصور الوسطى، وتم التكهن بأن الكلمة الإنكليزية «كتاب book» أتت في الحقيقة من الكلمة الأنجلوسكسونية لخشب الزان (boc) المادة المفضلة التي صيغت منها الكتب اللوحية، وكانت تُحفر في الألواح عادة تجويفات صغيرة وقليلة العمق يُصبُّ فيها شمع النحل، ثم يُبرّد، وبعد ذلك يصنع الشمع سطحًا ناعمًا يمكن أن تُحفر عليه الحروف بقلم حادّ، وكان الفرك القوي يمكن أن يمحو اللوح بسرعة، وكان هذا ملائمًا

جدًّا للكاتب، لكنه لم يكن يلائم المؤرخ، ذلك أن ألواح الشمع لا تصمد في وجه الزمن، وغالبًا ما كان لوحان من هذا النوع يثبتان إلى بعضهما البعض بحبل، بالرغم من أن بعض الكُتَّاب فضلوا كتبًا لوحية مختلفة، ومن المحتمل أن النَّاسخين في مصر كيّفوا أوراق البردي مع شكل أقراص الشمع ذات الألواح الكثيرة، لتحلَّ محلَّ اللفائف التي كانت العنصر الأساس في العالم القديم.

يقع قرب مدينة نجع حمادي في مصر المكان الذي توضعت فيه أبرشية خنوبوسكيون في القرن الرابع، وفي عام ١٩٤٥ عُثر فيها على ثلاث عشرة مخطوطة بسيطة تعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع مختومة في إناء فخاري، وقدمت النصوص التي تحتويها هذه الكتب للباحثين صورةً كاملة عن العالم الفكري والروحي للمسيحيين الأوائل، وعن الطوائف الغنوصية التي كانوا على اتصال أو صراع معها، وبقيت الأغلفة أيضًا، وقدّمتْ أفضل مثالٍ عن الأصل القبطي للمخطوطة، وكانت هذه الكتب تتألف من تجميع بسيط لأوراق البردي التي تُخاط داخل غلاف من الجلد. وبدتْ مخطوطات نجع حمادي بطياتها المربوطة أنيقة، حتى وفق معايير يومنا هذا، وصُنعت كتب اليوميات الأنيقة التي يمكن العثور عليها اليوم في أي محل للقرطاسية تمامًا ككتب نجع حمادي.

لم تكن الكتب وحدها من نجا، ففي صندوق واحد على الأقل حافظت مكتبات الأبرشيات الصغيرة على أدبيات كاملة أيضًا، وحافظت أبرشية سوريّة كان يرأسها موسى النصيبي على ٢٥٠ مخطوطة تقريبًا في القرن العاشر، وكان كثير منها مكتوبًا بالسريانية،

وهي لغة سامية قريبة من الآرامية، كانت تتكلمها الطائفة النسطورية، وكانت السريانية في القرون الوسطى لغة واسعة الانتشار، لها أهمية كبرى للمسيحيين الأوائل (كان المسيح يتحدث الآرامية)، ولم تقتصر أهمية السريانية على علم اللاهوت المسيحي، إذ توجد نقوش حجرية من القرن الثامن عشر بالصينية والسريانية في مدينة شيان الحديثة في الصين، وكان للسريانية شعراؤها الكبار أيضًا مثل أفرام النصيبي الذي كتب بأشكال تمتد جذورها إلى الأدب المسماري في بلاد ما بين النهرين، وجمع موسى الذي ينتمي إلى القرن العاشر كتب أولئك المؤلفين وكتب كتاب آخرين في الوقت المناسب تمامًا، ذلك أن الغزاة الأتراك دمروا تقريبًا اللغة السريانية مع الناطقين بها. وظلت اللغة حية اليوم على أفواه سلالة الناطقين بها المتبقين على قيد الحياة الذين يعيش معظمهم في: سورية، والعراق، وإيران، وفي شتات يمتد من تركيا إلى أوروبا الغربية. وحُفظ كثير مما تبقى من الأدبيات السورية في المجموعة التي جمعها موسى.

نشأت تيارات قروسطية ليس فقط في علم المكتبات، لكن في طريقة حياة الأبرشية برمتها بفضل كاسيدورس وهو نبيل روماني مسيحي عاش في القرن السادس.

وخدم كاسيدورس ملك القوط الشرقيين ثيودوريك العظيم إلى أن قام الإمبراطور الروماني الشرقي جستينيان بفرض الحصار على روما، وأخضع إيطاليا لحكم القسطنطينية. وعاش كاسيدورس حتى رأى دمار آخر مكتبات روما العظيمة، مكتبة البلاط ومكتبة ألبيان، في أثناء حصار المدينة. وبعد أن سقطت العاصمة، بنى البابا

أغابيتوس مكتبة مهمة وأكاديمية خاصتين به، لكن كاسيدورس الذي أقلقه الدور السياسي الذي صارت تلعبه الكنيسة، فضّل أن يواصل «الحياة التأملية» خارج صراع الكنيسة على السلطة مع السلطات العلمانية، وأسس في عزبته في كالابريا أبرشية وضعت نموذج الأنظمة القروسطية القادمة، وأنقذ جنوب إيطاليا إلى حدٍّ كبير من متاعب الحروب التي عانت منها روما في تلك الأعوام، واحتوى ملاذ كاسيدورس، الذي سُمي فيفاريوم على اسم برك الأسماك القريبة - التي تذكّر بإحدى الاستعارات المسيحية الدالة الأولى عن الأسماك - على برنامج حيوي ومهم لبناء المكتبات وصناعة المخطوطات، وجُمعت النسخ الأولى من الأناجيل التي برهنتْ أنها جوهرية لنشر الكتاب المقدس في القرون الوسطى في فيفاريوم، وكانت النصوص المقدسة تحظى بالامتياز كما هو متوقع بالرغم من أن كاسيدورس بذل جهودًا جبارة للحفاظ على التراث الأدبي لليونان وروما أيضًا، وكانت الخزانات التسع المغلقة في مكتبته مخصصة للكتابات اللاهوتية، إلا أن خزانة أخرى احتوت المؤلفات الكلاسيكية اليونانية، وجعل كاسيدورس رهبانه يعملون بكدٍّ على برنامج ترجمة هذه الأعمال أو نسخها.

أما كتابه الخاص العظيم «معاهد الأدب الإلهي والعلماني»، فقد ساعد في وضع نظرية معرفة أوروبا في القرون الوسطى في موضعها، وكان موسوعة صنَّفت الفكر الديني والفكر العلماني وشرحتهما من أجل إفادة رهبان فيفاريوم، وكان كل طرف من الثقافة في منظار كاسيدورس يعكس الآخر في مجموعة من التراتبيات التي تسلسلت

من الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة وآخر التعليقات المعاصرة من جهة، ومن ذروات: هوميروس، والخطباء، وكُتّاب المسرح، ومؤرخي العالم القديم من جهةٍ أخرى، وساعدت صورة الأدب بوصفهِ لوحًا مزدوجًا لترتيبات تعكس الإلهي والدنيوي في تنظيم مكتبات القرون الوسطى، وحتى مكتبات عصر النَّهضة العظيمة مثل مكتبة الفاتيكان.

كان مصير مكتبة كاسيدورس الخاصَّة مجهولًا. وحين كانت في أوجها في القرن السابع احتوت ما لا يزيد عن بضع مئات من الكتب، واحتوت الأبرشية الإيرلندية العظيمة في بوبيو في شمال إيطاليا ٦٦٦ كتابًا، وربما صيغت على أساس المكتبة التي تقعُ في فيفاريوم في القرن العاشر، وبالرغم من الإبداعات الجمالية في الشَّكل وزخرفة الكتب الناتجة عنها، إلا أنَّ المكتبات القروسطية في أوروبا كانت محافظة، وركزت اهتمامها على بعض النصوص المقدسة فحسب.

حين كانت روح المكتبة الشاملة تتدهور في الغرب ازدهرت في الشرق، وفي أثناء الألف سنة بين وفاة الإسكندر الأكبر وصعود الإسلام، كانت سوريا الوطن الأكثر استقرارًا للمعرفة اليونانية بالرغم من الصراع المتواصل بين روما والحكام الفرس، وحين قام الإمبراطور جستنيان في ٥٢٩ بإغلاق المدرسة في أثينا واضعًا المعرفة تحت السيطرة الإكليريكية، بحث أساتذة اليونان المنفيون عن ملاذ لدى العدو العريق لكل ما هو يوناني: فارس. ولم يكن خيار كهذا

غير مرجح، إذ جعل العداء الطويل بين فارس واليونان الثقافتين في اتصال مباشر كما يفعل الصراع دائمًا، بينما أدخل الإسكندر وخلفاؤه - لا البطالمة المصريون فقط، بل السلالة السلوقية التي أسسها في سوريا قائد آخر من قادة الإسكندر أيضًا - المعرفة اليونانية إلى الثقافة المهيمنة للشرق الأدنى. وحافظ النساخ النساطرة المسيحيون في سوريا على المعرفة حتى حين ازدروا أدب اليونانيين مفضلين التراث الشعري الفارسي عليه، واستقبل بلاط أنوشروان (كسرى الأول) في فارس أساتذة أثينا المنفيين.

حدث الازدهار الأعظم للمكتبات مع انتشار الإسلام. وربما كانت المفارقة محمداً ثمّن أميته لأنها قدمت دليلاً على صدق رسالته؛ فلم يكن بوسعه أن يقرأ ويتلقى تأثير أي كتاب مقدس آخر، ولم يكن قادرًا على كتابة كلمة الله بيده، وحتى الكتابة الإعجازية - كالوصايا التي أُنزلت على موسى على جبل سيناء - كانت ستفشل في إشعال شرارة الإيمان بين العرب المتشككين. وفي سورة الأنعام (٦:٧.٩) يذكِّر الله محمدًا: (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ). عوضًا عن ذلك، أوصى الله نبيه أن يأمر أتباعه أن ينسخوا القرآن؛ كي يؤمنوا به بأنفسهم. وعن طريق هذا الأمر لتدوين الكلمات التي أوحاها الله لنبيه، تحمّس أتباعه كي يتعلموا. وفي الحقيقة برهنوا، مع اتساع إمبراطوريتهم، أنهم كانوا متحمسين لكل شيء، ومتلهفين للتعلم من الذين غزوهم. وحين انطلقت جيوش محمد من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال في القرن السابع فتحت فارس التي حافظت على روعة

ثقافتها العريقة. وفُتحت للمترجمين كنوز المكتبات الفارسية التي امتلأت في أثناء قرون النزاع مع اليونان ليس فقط بنصوص فارسية، بل بعلم العالم الهيليني وفلسفتهِ أيضًا، ثم تبع العلم اليوناني الشعر الفارسي إلى العربية على يد الخطاطين، وهكذا بدأت مرحلة بناء المكتبة الإسلامية التي استمرت ألف سنة، تراثاً يونانيًا مشتركاً لأوروبا حديثة النعمة.

نمت الثقافة الإسلامية ومكتباتها بسرعة مدهشة، وفي نهاية القرن الثامن حوّلت السلالة العباسية بغداد إلى مركز عالمي للمعرفة، وكان أسلاف العباسيين، خلفاء بني أمية، قد شرّفوا الكتب والمعرفة من قبل، فقد بنوا مكتبات مقدسة في عاصمتهم دمشق وفي المسجد الأقصى في القدس، وعيّن الخليفة الأموي الأول معاوية صاحب المصاحف؛ كي يعتني بمكتبته الملكية التي لم تدخل إليها الكتابات المقدسة فحسب، بل في كتب الفنون والعلوم الحرة أيضًا. وصارت جامعة شاملة مزدهرة مثلها مثل الإسكندرية، لكن حين أطاح العباسيون بالأمويين في الشرق، بدأت الكتب تتدفق نحو عاصمتهم بغداد.

يتجسّد الصعود السريع للحضارة العربية في قصة بني موسى وهم ثلاثة إخوة عملوا في البلاط العباسي رياضيين وعلماء فلك، فثمة معلومات قليلة معروفة عن حيوات الإخوة الثلاثة الذين ألّفوا معًا «كتاب معرفة مساحة الأشكال البسيطة والكريّة»، أحد النصوص التأسيسية في علم الرياضيات عند العرب. وترسم تفاصيل سيرتهم الذّاتية صورة محيرة لصعود أسرة واحدة، فكان

والدهم موسى بن شاكر رضيعًا حين استلم الأمير العباسي الأول السلطة، وكان في صباه يسترزق من قطع الطرقات إلى أن أقنعته القوة البازغة للخليفة الجديد بالبحث عن مصدر أكثر أمنًا للرزق، فربما اعتمد على النجوم المفضلة؛ كي يضمن نجاحه في السرقة بعد أن اشتغل في مهنة أكثر أمانًا هي التنجيم، فلفت نجاحه في هذه المهنة الجديدة نظر الأمير المأمون الذي استولى على الخلافة من أخيه في ٨١٣. وحين تُوفي اللص العجوز تولى الخليفة الوصاية على أولاده الثلاثة الأذكياء والمتعلمين الذين أظهروا نضجًا فكريًّا مبكرًا، وعيّنهم باحثين في بيت الحكمة، ولبّى بيت الحكمة الذي كان في ذلكَ الوقت مكتبة ومدرسة ومركز بحث جميع احتياجات الشبان الموهوبين فكريًّا، وهكذا في جيلٍ واحد، صعدت عائلة موسى بن شاكر من ارتكاب الجرائم التافهة إلى أعلى مراتب السلطة الأكاديمية.

كانت بغداد في العهد العباسي مكانًا فائقًا للعادة لنضوج موهبة أبناء بني موسى، وكان بيت الحكمة مركز الترجمة والتأليف والمقارنة بين معارف وثقافات الشعوب الواقعة تحت الحكم الإسلامي الممتدة من الهند إلى شبه الجزيرة الإيبيرية.

وعمل المترجم العربي لإقليدس، الحجاج، في بيت الحكمة جانب الخوارزمي، مؤسس علم الجبر الذي اشتُقت من اسمه كلمة: «خوارزمية». وبعد أن درس الخوارزمي الأطروحات الرياضية الهندوسية الموجودة في المكتبة في دار الحكمة تبنى نظام الترقيم الهندوسي؛ كي يلائم أهدافه، ما أدى إلى ولادة الأرقام العربية كما

نعرفها اليوم.

قدم العرب والنساطرة واليهود الذين كانوا يعملون في بغداد للإخوة الثلاثة الشبان أفضل تعليم يمكن الحصول عليه، وحين التحقوا ببيت الحكمة وظفوا ذكاءهم الشديد باعتبارهم رياضيين وعلماء فلك في خدمة أربعة خلفاء متعاقبين، وقاموا معًا بخطوات لا يمكن إنجازها إلا في مكتبة شاملة كتلك التي كانت موجودة في بيت الحكمة. ووسّع عملهم طرق أرخميدس ويودوكسوس، وكانوا أول من فكّر بالسطوح والفضاءات من زاوية رقمية عن طريق تطبيق إحساس مُطور بدقة بالرقم على دراسة الهندسة اليونانية، وبجمعهم بين علم الحساب والهندسة ساعدوا في وضع الأسس التي بُني عليها العلم الغربي، علاوة على تأليف أطروحتهم المشهورة، قاس الإخوة العام الشمسي بدقة غير مسبوقة، وصمموا قنوات للري، وقدَّموا اكتشافات فلكية جديدة من مرصدهم الذي كان فوق السطح. كانوا في قمة العالم الفكري الإسلامي، في عالم اتسم بالصراع مثل الجامعة اليوم.

لم يكن الخليفة الرابع المتوكل الذي خدمه الإخوة متسامحًا مع الخصام بين العلماء مثل سابقيه، وفضّل بني موسى الذين يبنون الجسور ويشقون القنوات على خصومهم، وحين اصطدم الإخوة مع الفيلسوف الكندي دعم الخليفة علماءه المفضلين ما أدى إلى التضييق على الفيلسوف ومصادرة مكتبته.

ورغم وجود مثل هذه الصدامات والتحيزات فقد ازدهرت الكتب والمكتبات والفنون في العهد العباسي إلى أن سقطت الخلافة

العباسية[1] على يد الغزاة المغول بعد خمسمائة سنة.

تدين غالبية ثقافة الكتب في الغرب بتراثها إلى الإسلام. تعلّم الفاتحون جيدًا من رعاياهم الجدد، وأخذوا أشكال الكتاب وصنعته وطوروها إلى ذرى جديدة.

وتعلّم المسلمون من سجنائهم الصينيين فن صناعة الورق في بداية القرن الثامن، واستعاروا من النَّاسخين الحبشيين في إثيوبيا شكل المخطوط، وطوروا الغلاف الجلدي المخيط إلى درجة عالية من الإتقان، وكانت الكتب بالنسبة لليونانيين والرومان أدوات ومستودعات معرفة نفعية. وكانت اللفائف التي صنعوها بسيطة ومن دون تزيين لا تقدم جماليًّا إلا الكلمات التي تحتويها، إلا أن الخطاطين والرسامين المسلمين، بالمقابل، جعلوا من الكتاب نفسه شيئًا جميلًا، وصار الجامعون يُثمّنون المنظر البديع، وينظرون إلى جمالية شكل الكتب كما ينظرون إلى المضامين التي توصلها، وكان اقتناء الكتب المزينة وتذوّق جمالها الفني في أوروبا المسيحية في العصور الوسطى حكرًا على الطبقات العليا في المجتمع، ولم يكن يستطيع دفع التكلفة العالية لإنتاج الأناجيل وكتب القدّيسين والأدعية المزينة فنيًّا إلَّا النبلاء وكبار رجال الدين، أما في العالم الإسلامي الأكثر ميلًا إلى التجارة، فقد كان شرط التاجر أن يعكس الكتاب ذوقًا رفيعًا، وشكا باحث من القرن العاشر بأنه خسر في المزاد العلني للكتب في قرطبة مجلدًا ثمينًا بسبب مزايد آخر رفع

(1) وردَ في النَّص الأصلي سقوط الدولة الأمويَّة على يد المغول وهذا خطأ تاريخي من الكاتب ولهذا ارتأينا تصويبه (المترجم)

السعر عاليًا جدًّا إلى أن تجاوز قيمة الكتاب، وحين تحدث مع الفائز اعترف له أنه لم يكن يعرف ما الذي يحتويه الكتاب، وأنه يجمع مكتبة كبيرة؛ كي يثير إعجاب شركائه في العمل، ولديه مكان على أرففه يناسب هذا الكتاب جدًّا. وأضاف أنه علاوة على ذلك كان الكتاب جميلًا؛ لهذا لم يستطع تركه.

لم تتنافس النخب الإسلامية على اقتناء الكتب الفردية فحسب، بل على اقتناء المكتبات الكاملة أيضًا، وثمة إحصاء يفيد بأن الأندلس العربية كانت تحتوي سبعين مكتبة أكبرها بناها الخليفة الحكم في قرطبة في عام ٩٧٦. كانت قرطبة تحتل في تلك الأيام المرتبة الثانية بعد القسطنطينية بين المدن الأوربية من جهة الحجم، ذلك أن أنابيب المياه أحضرت المياه إلى مئتي ألف منزل وتسعمائة حمام عام، وكانت المدينة تتوهج في الليل بمصابيح الشوارع العامة، وبحسب المؤرخ ابن الأبار وصل فهرس مكتبة الحكم إلى أربعة وأربعين مجلدًا. وكان عدد الكتب بين أربعمائة وستمائة ألف، أي: بمقدار كتابين أو ثلاثة لكل بيت في المدينة، وكان هذا إنجازًا هائلًا في وقتٍ كان فيه عدد الكتب في أضخم المكتبات الأوروبية لا يرقى إلا إلى مئات المجلدات فحسب، وفي قرطبة وطليطلة اللتين فتحهما المسيحيون في ١٠٨٥ تُرجم التراث اليوناني الفارسي للعلم العربي إلى اللغة اللاتينية، اللغة التي نجت فيها الثقافة الفكرية العربية من الدمار على يد الأتراك والمغول والصليبيين.

نشأت المكتبات الكبيرة في الأمكنة كلها التي انتشر فيها الإسلام، وكانت مكتبة البلاط الفارسي إحدى هذه الثروات، كما شهد

الفيلسوف والفيزيائي الذي كان من أصل فارسي ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧)، فكان ابن سينا معجزة في قوة الذاكرة وسعة المعرفة مثل بنو موسى، وفي سن العاشرة لم يكتف بحفظ القرآن عن ظهر قلب فحسب بل حفظ أيضًا أبياتًا كثيرة من الشعر، واستُدعي في سن الثامنة عشرة؛ كي يعمل طبيبًا في البلاط الساماني في فارس، حيث ضمن له العلاج الناجح الذي أعده للأمير نوح بن منصور الساماني الحظوة في البلاط، وكان الشيء الرئيس الذي حصل عليه من فوائد رعاية البلاط له هو المدخل إلى المكتبة المدهشة للمنزل الملكي، فقال:

عثرت هناك على غرف تغصُّ بالكتب مرتبة في صناديق في صفوف متلاحقة، وكانت إحدى الغرف مخصصة لكتبٍ في: فقه اللغة العربية، والشعر، وأخرى لكتب الفقه وهلمَّ جرًّا، وكانت الكتب حول كل علم موضوعة في مكانٍ خاص بها.

فتشتُ فهرس المؤلفين اليونانيين القدماء، وبحثتُ عن الكتب التي أردتها، وشاهدت في هذه المجموعة كتبًا لم تسمع بها إلا قلة من النَّاس التي أنا نفسي لم أشهد لها مثيلاً من قبل.

كان افتتان ابن سينا بالمكتبة معروفًا جيدًا؛ لأنه حين احترقت المكتبة بعد زيارته بوقت قصير اتُهم الفيلسوف الشاب بإضرام النَّار؛ كي يجعل من نفسه «مستودع الحكمة الوحيد».

بصرف النظر عن القصص التي رُويتْ عن مصير كتب الإسكندر في عهد عمر كان من المؤكد أنها نجت في عهده بما أن عددًا كبيرًا من كتب المكتبة نُقل إلى أنطاكية في عهد خليفته عمر الثاني، وحين

خلفت الدولة الفاطمية العمرين في مصر، أنشأت عاصمتها في القاهرة، حيث بنى الخليفة العزيز مكتبة لتكون جزءًا من «بيت المعرفة» المهيب الخاص به احتوت ربما على ستمائة ألف مجلد، كما ضمت ألفين وأربعمائة نسخة مزينة من القرآن، وحُفظت بقية الكتب في تجويفات أو خزانات كبيرة، وكان كلٌّ منها يُظهر قائمة بالكتب التي تحتويها، علاوة على ملاحظة بأسماء العناوين اللازمة لإكمال المجموعات.

وفي ١٠٠٤ ضم الخليفة الحكم هذه الكتب إلى مجموعته في «بيت الحكمة» الخاص به الذي أُشيع أنه يحتوي مليون ونصف كتاب، ولكن في ١٠٦٨، ومع اقتراب الغزو التركي، باع الوزير أبو الفرج حمولة ٢٥ ناقة من الكتب كي يدفع لتمويل جيشه، وحصل على مائة ألف دينار مقابلها. هزمه الجيش التركي بعد شهور عدة، فتخلص من بقية المجموعة بطريقته الخاصَّة نازعًا الأغلفة الجلدية الرائعة من أجل صناعة الأحذية، ودُفنت الصفحات الممزقة خارج القاهرة في مكان عُرف لأجيال باسم: «هضبة الكتب».

وصل هذا الازدهار العظيم للكتب والمعرفة والمكتبات إلى نهاية مفاجئة، حيث أشار المؤرخ س. كي. بادوفر إلى أن حصول أوروبا على المعرفة العربية في أثناء منتصف القرن الثالث عشر حصل «تمامًا في حينه»، ذلك «أن الشرق الإسلامي تدمّر تقريبًا؛ بسبب غزوات المغول». وأمر إمبراطور هابسبرغ تشارلز الخامس بأن تُحرق جميع الكتب العربية حين استولى على تونس في ١٥٣٦. وبعد طرد المغاربة من إسبانيا في ١٤٩٢، فإن البلاد «جُردت من المخطوطات العربية،

وحين بنى فيليب الثاني مكتبة الإسكوريال لم يكن بالإمكان العثور على مخطوطات عربية في المملكة»، وتم الاستيلاء على سفينة مغربية تحتوي على حمولة من الكتب لإضافة العناوين العربية المطلوبة إلى المكتبة الملكية، لكن حريقًا شبَّ في مكتبة الإسكوريال في ١٦٧٤ أتى على ثمانية آلاف كتاب عربي تقريبًا، وبين القرنين الثالث عشر والخامس عشر اختفت مكتبات العالم الإسلامي العظيمة. ذلك أن غزاته من: المغول، والأتراك، والصليبيين لم يكن لديهم حب المعرفة الذي ورثه الإسلام عن أسلافه اليونانيين والفرس.

تواصلت الصلات بين ثقافتيْ الكتاب الإسلامية وأوروبا المسيحية في القرون الوسطى، وزار باحثون أوروبيون أسواق الكتب الكبيرة في طليطلة وقرطبة، وتدفقت الكتب إلى أوروبا في صورة غنائم حرب في أثناء الحملات الصليبية وبعدها، وفي ذلك الوقت بقي التأثير اليوناني قويًّا في جنوب إيطاليا، ونُسخت النصوص الطبية اليونانية العربية لوقت طويل، وحُفظت، ودُرست في أبرشية مونت كاسينو المبجلة.

لم تبق مزقةٌ على قيد الحياة من النسيج الواسع المحاك بقوة للمكتبات العامة التي انتشرت في الإمبراطورية الرومانية من إسبانيا إلى اليونان.

انبعثت المكتبة العامة في فلورنسة مثل الكثير من مظاهر الثقافة الكلاسيكية، ومُنح لقب أول مكتبة «عامة» حديثة على الأرجح لمكتبة سان ماركو التي أسسها كوزيمو دي ميديتشي في ١٤٤٤، إلَّا

أنَّ كلمة «عامة» لم تُشر في فلورنسا في القرن الخامس عشر إلى الجماهير، بل إلى خشبة المسرح الذي أدت عليها الكنيسة وطبقة النبلاء والعائلات التجارية القوية أدوارها ومارست سلطتها، وكانت المكتبة في سان ماركو عامة بهذا المعنى، أي: إن عمل الباحثين الذين استخدموها سيفيد المجتمع بطريقة جديدة ومهمة، وكانت عامة أيضًا بمعنى أن آل ميديتشي لعبوا علنًا أدوارهم المزدوجة بوصفهم: خبراء، ورعاة، ومفكرين، وأمراء عن طريق منحهم المكتبة هبة ومن طريق كتب محددة اختاروها لها، وينطبق ما قاله جوهان هويزينغا عن شخصية القرون الوسطى على بدايات عصر النَّهضة أيضًا: «إنَّ الأشياء كلها في الحياة هي دعاية نفخر بها أو قاسية»، ذلك أن المكتبات العامة هي اليوم بين الحماة الرئيسن للفردانية والخصوصية الفكرية، وكانت مكتبة سان ماركو «عامة» في الحقيقة، بمعنى أنها كانت أداة للدعاية، وبدا تأسيس المكتبات رائقًا ومفيدًا بالطبع بالمقارنة مع بعض الدعايات الأقسى لآل ميديتشي، لكن فائدة كهذه لعبت دورًا في إضفاء طابع طقسي على سلطة آل ميديتشي.

تحدثتْ المؤرخة ليزا جاردين بلغة واضحة عن دور المكتبة في ارتقاء آل ميديتشي من طبقة التجار إلى طبقة الأمراء: «كانت إحدى الوسائل التي أدت إلى هذا الارتقاء هي أن اهتمامهم الخاص بالإنفاق على كتب نادرة ومخرجة بشكل رائع (القديمة والحديثة منها) أدى إلى اشتهارهم بأنهم يقومون بأفعال الخير المدنية» وأشارت جاردين إلى أربعة أنواع من الكتب حصل عليها آل ميديتشي، أسس كلّ نوع منها الشخصية

العامة للعائلة بطرق محددة:

أولًا: تأتي «الكتب التي أسست سمعة العائلة في رعاية ما هو غامض إنسانيًّا»، وكانت هذه كتبًا ضمنت سمعة آل ميديتشي بوصفهم باحثين وأشخاص متطورين.

ثانيًا: تأتي «الكتب التي خلقت جوًّا عائليًّا من النزاهة والممارسة الجيدة»، بتعبيرٍ آخر، أطروحات أخلاقية، وكتب حول الأخلاق، وآداب السلوك قدمت نوعًا من السيرة الذَّاتية اللطيفة لشرعنة أناقة الأسرة، ثم تأتي «كتب التراث الكلاسيكي الثمينة»، وبرهنت على رعاية آل ميديتشي للإنسانوية الصاعدة.

تأتي أخيرًا الكتب التي أسست نسباً من خلال الأشخاص الذين اقتنوها، كتب بتوقيع وقع عليها أسماء المالكين السابقين الذين كانوا أشخاصًا متميزين ومهمين. وكان آل ميديتشي سعيدين جدًّا بربط اسمهم بهم. وعقّبتْ جاردين: «أدى كلّ نوع من أنواع هذه الكتب إلى برنامج قابل للتعرف من الترويج للذات وإحياء ذكرى عام للأسرة، صارت فيه الكتب صروحًا لاستهلاك كلاسيكي متميز». واستطاع آل ميديتشي أن يعرضوا في المكتبة استقامتهم الفكرية، وفطنتهم في الرعاية، واصطفافهم مع قيم النَّهضة، وتمكنوا من أداء هذه الأمور علنًا. وكان اقتناء عائلة ذات سلطة للكتب المهمة يعكس أداء سلطتها الفكرية، وشكلتْ محاولتها لبناء مجموعة الكتب وتوسيعها إلى مكتبة خروجًا من العلاقات المنزلية القروسطية نحو التأثير في المجال العام بالمعنى الحديث.

كان المدخل إلى الكتب في العصور الوسطى ومعرفة القراءة

والكتابة متاحًا على أساس «الحاجة إلى المعرفة»، لكن الإنسانوية أزعجت الاقتصاد السياسي للقراءة، فلم تقدم أنواعاً جديدة من الكتب فحسب (أعني القديمة التي أعيد اكتشافها) بل قدمت طرقاً جديدة في قراءتها أيضاً، فلم يعد الأمراء يتلقون تعليماتهم من رجال الدين بصورة رئيسة، وقدّم أدب العالم القديم دروسًا لا تُحْصى للحكام وقادة الجيوش، ووصف بائع الكتب التوسكاني فيسباسيانو دا بيستيكشي في مذكراته عن فيديريكو دوق أربينو الأمير المثالي بلغة إنسانوية متشددة: «من الصعب أن يتفوق قائد في استخدام السلاح إلا إذا كان رجل أدب يرى أنَّ الماضي مرآة للحاضر، كما أن قائدًا عسكريًّا يتقن اللاتينية هو أفضل بكثير ممن لا يتقنها ويتفوق عليه». لكن فيديريكو لم يكن آخر حاكم قام بقراءة كتب العالم القديم، أو بناء المكتبات؛ كي يأويها ويعتني بها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. واستمدت الإنسانوية طاقتها الأولى وسلطتها من خيلاء الأمراء.

قدم فيسباسيانو نفسه دليلًا وافرًا على هذا. احتوى كتابه: «حيوات الرجال اللامعين في القرن الخامس عشر» على سلسلة قصص عن رجال أقوياء والمكتبات التي شيدوها.

يجب أن تُؤخذ مهنة فيسباسيانو الخاصَّة هنا بالحسبان كبائع كتب فلورنسي ساعد في بناء مجموعات مكتبة الفاتيكان ومكتبة لورينتيان ومكتبة فيديريكو دوق أربينو، وعرّف القراء على الرجال اللامعين الذين قدّمَ عنهم لمحة من منظار الكتب التي اشتروها أو نسخها لهم فحسب، لكن هذا هو بيت القصيد، فقد امتلك بائع الكتب معرفة

كافية عن كثير من الشخصيات الأكثر أهمية لعصر النَّهضة في إيطاليا، واستطاع أن يكتب مذكرات مهمة عنهم.

وكما تشير هذه الملاحظة عن جمع الكتب النادرة والمهمة وتنظيمها في مكتبات في أثناء حياة هؤلاء الرجال، نرى أنه تغيّر شيءٌ ما في الحقيقة جوهريًّا في طبيعة الكتب والقراءة في زمنهم، وعبّر هذا الشيء عن نفسه في بناء المكتبات، وصار من المهم فجأة جمع الكثير من الكتب معًا في مكانٍ واحد، وجعلها متاحة ليس فقط للأصدقاء والعائلة والفنانين والكتّاب تحت الرعاية المقيمين في المنزل الخاص، بل للجمهور العام أيضاً، من أجل ترجمة تلك الأفعال الخاصَّة من القراءة إلى أداءات عامة، واتخذت المسألة صفة عامة أيضًا في عصر النَّهضة، حين تمَّت إعادة اكتشاف القراءة الموسعة بين الباحثين، ولم يكن مجيء الكتب المطبوعة بعد بضع سنوات هو الذي ملأ المكتبة، فقد كانت الشهية لكتب بكميات كبيرة تُلبى مسبقًا في الوقت الذي ظهرت فيه المطبعة، وعبّر فيسباسيانو عن تلك اللحظة التي شكلت نقطة تحول في مذكراته عن فيديريكو دوق أربينو:

كان الدوق وحده هو الذي امتلك بُعْدَ نظرٍ وفَعَلَ ما لم يفعله امرؤ منذ ألف سنة أو أكثر، أي: إنشاء أجمل مكتبة منذ الأزمنة القديمة. لم يدخر الكلفة ولا الجهد، وحين كان يسمع عن كتاب مهم، سواء أكان في إيطاليا أم خارجها، كان يرسل في طلبه. مرّ الآن أربعة عشر عامًا منذ أن أنشأ المكتبة ووظّف دائمًا في أربينو وفلورنسة وأمكنة أخرى، ثلاثين أو أربعين ناسخًا في خدمته، وسلك الطَّريق الوحيد؛ كي يُنشِئ مكتبة رائعة بادئًا بشعراء اللاتينية، وبأية تعليقات وشروح

مهمة، ثم بالخطباء، وبأعمال تولي والكتاب اللاتينيين والنحويين الكبار كلهم، حيث لم يتجاوز أياً من الكتاب البارزين. سعى أيضًا إلى الكتب المعروفة حول التَّاريخ في اللاتينية، ليس ذلكَ فحسب، بل تواريخ الكتّاب اليونانيين المكتوبة باللاتينية، والخطباء أيضًا.

رغب الدوق أيضًا باقتناء جميع الكتب في الأخلاق والفلسفة الطبيعية في اللاتينية، أو في الترجمة اللاتينية من اليونانية.

امتدَّت قائمة فيسباسيانو من الكتب في مكتبة فديريكو إلى صفحات وضمَّت كتب كهنة الكنيسة، وأطباء الزمن القديم، والكتابة اليونانية المنجزة باللاتينية، والفلسفة اللاتينية وعلم اللاهوت، وكتب حول: علم التنجيم، والهندسة، وعلم الحساب، وفن العمارة، والرسم، والنحت، والقانون الكنسي، والطب، وكتب: ابن سينا، وأبقراط، وجالن، وابن رشد، وبوثيوس، وكُتَّاب حديثين، مثل: دانتي، وبترارك، وبوكاشيو، وطبعات كاملة لكتب أرسطو وأفلاطون (مكتوبة مثل كتابه المقدس على جلود الماعز الأفضل)، وضمت القائمة: الشعراء اليونانيين، وكتاب بطليموس «علم الكونيات»، وهيرودوت، وثيوسيديدس، ديموثينيس، و«شملت أيضًا أي كتب موجودة في العبرية»، وهلمَّ جرًّا. قال فيسباسيانو:

بعد أن أكمل الدوق عمله النبيل بتكلفةٍ كبيرة بلغت ثلاثين ألف دوقية صمم أن يمنح الكتب كلها لمسة جديرة به، وهي: تجليدها باللونين القرمزي والفضي.

ابتدأ بالكتاب المقدس بوصفهِ أهمَّ كتاب وكساه ببروكار ذهبي، ثم جلّد باللونين القرمزي والفضي كتب الأطباء والفلاسفة اليونانيين واللاتينيين، وكتب التَّاريخ، والكتب الطبية، وكتب الأطباء الحديثين، وكان هذا مشهدًا غنيًّا ورائعًا، وكانت جميع الكتب في هذه المكتبة جيدة على نحو فائق، ومكتوبة بقلم الحبر، *ولو كان هناك مجلد واحد مطبوع، لشعر بالخجل بين هذه الكتب.*

لم تنشأ المكتبات الكبيرة بسبب اقتصاد المطبعة وفعاليتها، كما خشي آخرون لاحقًا، بل ارتبطت برغبة الدوقات والتجار والبابوات بالمعرفة الجديدة المولودة في عصر النَّهضة، ذلك أنه بالرغم من تحديات الصحافة الحرة، فإن السيطرة على المعرفة المتراكمة قدمت أساسًا جديدًا لسلطتهم.

كتب فيسباسيانو عن كوزيمو دي ميديتشي باللغة نفسها. قال: إن كوزيمو امتلك معرفة باللاتينية نادرًا ما سعى إليها شخص يحتل مركز مواطن بارز منغمس في أعماله، فكان متجدد المزاج وميالًا للارتباط برجال يشغلون مناصب عالية ويكرهون توافه الأمور، وينفرون من المهرجين والممثلين الذين يمضون الوقت دون فائدة، وكان يعشق رجال الأدب ويسعى إلى رفقتهم، وتحدث مع: الراهب أمبروغليو ديغلي أغنولي، والسيد كارلو دي أريزو، ونيكالو نيكولي، والسيد ليوناردو دي أريزو والسيد بوجيو.

وحين استعانَ كوزيمو بفيسباسيانو لتأثيث المكتبة في سان لورنزو، فإن الثاني «وظف ٤٥ ناسخًا، وأكمل مئتي مجلد في ٢٢

شهرًا متخذًا مكتبة البابا نيكولاس نموذجًا يُحتذى بهِ».

نرى فيسباسيانو هنا يفسحُ مجالًا جديدًا لنوع من الدعاية سعى إليه كوزيمو في بناء مكتبته: الرغبة باستثمار مبالغ كبيرة، وتوظيف جيوش من النَّاسخين، واختيار النصوص بصرامة شديدة.

وأظهر هذا الالتزام الجديد بالمعرفة، والصلة الحقيقية التي ولّدتْها المعرفة الجديدة بصقل السلطة.

حين خطط كوزيمو لمكتبة سان ماركو استمدَّ إلهامه - ناهيك عن الكتب نفسها - من مصادر متنوعة، وكان النموذج الواضح الذي اتبعه مرة أخرى هو مكتبة الفاتيكان الجديدة للبابا نيكولاس الخامس، لكنه اطلع على نموذج أكثر أهمية عن طريق أحد أصدقائه وجامع الكتب المنافس له، الإنسانوي نيكولو نيكولي. لم يكن نيكولي صديق كوزيمو دي ميديتشي الحميم فحسب، بل كان مدينًا له أيضًا، ونصت وصية نيكولي على أن أي مكتبة تُبنى على أساس جمعه للكتب يجب أن تُفتح لخدمة «دراسة المدنيين كلهم»، وأن تُدار وتُعار كتبها بتوجيه من هيئة من الأوصياء يعملون أيضًا رعاةً، وكان كوزيمو بين أولئك الأوصياء، لكن نيكولو واجه مشاكل مالية قبل وفاته في ١٤٣٧، ولم يتمكن من جمع المال الكافي لبناء دار لكتبه وتقديم الرعاية لها.

تدخل كوزيمو مناورًا ضد أوصياء آخرين، وأمّن سيطرة فعَّالة على المكتبة مقابل تقديم التمويل المطلوب، وهكذا نقل المكتبة إلى دير سان ماركو الذي كان يبنيه في ذلك الوقت، ووضع كوزيمو لوحة رخامية في مدخل المكتبة كتب عليها معلنًا نفسه منقذًا لمكتبة

نيكولي.

تُظْهر مذكرات فيسباسيانو كيف أنَّ الكتاب والمكتبة شيئان مصنوعان، شيئان يُؤمر بصنعهما، وكان التأليف بالنسبة لـ: الرعاة، والبابوات، والأمراء الذين يأمرون بصنعهما عملًا يقوم به النَّاسخون فحسب، وكما نُسخت الأعمال الكلاسيكية، كانت الكتب الجديدة التي تتطلبها أيضًا شهوات الراعي، حيث يُقومون بإنتاجها نسخًا. وكان حلم الراعي هو الذي ينتج الكتاب، وكان الكتاب بطريقةٍ ما متضمنًا فيه، ويجب أن نتخيل الراعي ينظر إلى تفاني مؤلفه من قيمته الظاهرة، هكذا بُنيت مكتبات النَّهضة: من خلال الشهيات المتزايدة.

غير أنَّ ما وضع المعايير لبناء المكتبة في عصر النَّهضة لم تكن شهية أمير علماني، بل شهية نائب المسيح، وبالرغم من أنَّ الباب نيكولاس لم يعش؛ كي يرى مكتبة الفاتيكان مبنية بشكل كامل، فقد خطرت له فكرة أنه «من أجل تقديم الراحة للمتعلمين كلهم يمكن أن نبني مكتبة تحتوي على جميع الكتب المكتوبة باللاتينية واليونانية الجديرة بكرامة البابا والكرسي الإكليركي».

ويشير الجمع بين الراحة العامة والكرامة غير المألوفة لدى نيكولاس بشكلٍ جيد إلى الدوافع السياسية وراء النزعة الإنسانوية.

لم تكن المكتبة البابوية شيئًا جديدًا، فمنذ بداية زمن كاسيدورس، جمع البابا مكتبة لاستخدامه الشخصي، ولم يكن هناك فهرس للمجموعة البابوية قبل ١٢٩٥، لكننا نستطيع أن نتخيل أنها عكست إمكانية المكتبات الأبرشية القروسطية ومصالحها، وكانت

فكرة البابا نيكولاس عن المكتبة أكثر شمولًا.

أراد شيئًا أهم من أضخم مكتبات الأبرشية، نوعًا جديدًا من المكتبات.

بقيت المكتبات صغيرة في القرن الثاني عشر وحتى عصر النَّهضة، وتؤكد هذا حسابات القرن العشرين لمكتبات من هذا الحجم، في القرن العاشر احتوت المكتبة في رايكيناو (أبرشية في جزيرة في بحيرة كونستانس في ألمانيا) على ٤١٥ مجلدًا، وضمت مكتبة بوبيو في القرن العاشر في إيطاليا ٦٦٦ كتابًا، حيث وضعتهما هذه الأرقام بين المجموعات الأوروبية الأكبر في زمنهما، ولم يتغير حجم هذه المكتبات كثيرًا على مدى القرون، ففي القرن الثاني عشر أحصت المكتبة في كاتدرائية دورهام ٥٤٦ كتابًا، بينما كانت الأبرشية المشهورة في كلوني تحتوي ٥٠٠ كتاب فقط.

كان من الصعب تحديد حجم المكتبة الأوروبية العادية قبل عصر النَّهضة؛ لأن مجموعة الفهارس المتبقية محدودة وقليلة النفع، وكما أشار المؤرخ الذي جمع الأرقام أعلاه ستيورات بيدي: كانت معظم الفهارس القروسطية مجرد قوائم مختصرة، ولم تكن مجلدة بشكلٍ منفصل، بل مكتوبة فقط داخل أغلفة الكتب أو هوامشها في المجموعة، وكان إنتاج الفهارس يستهلك موارد ثمينة في زمن كانت فيه الكتابة على السطوح مكلفة، تُنتجُ بجهدٍ كبير، ولهذا كان تبديد الطاقة على أداة هامشية غير مرجح، وكانت الفهارس تسجّل عادة الكتب المجلدة للمكتبة، ويمكن أن يحتوي كل منها اثنين أو ثمانية كتب فردية، وقال بيدي: «في حال عُثر على أعمال عدة في مخطوطة

واحدة، فإن تلك التي تلي الأولى كان يُسمح بأن تمر دون فهرسة، وتبيّن أن المجلدات مذكورة بعناوين موجزة، وكانت أحيانًا غير محددة، مثل: كتاب فيرجيل، أو كتاب واحد لمؤلفين مختلفين». وأضاف: بالنسبة إلى المجموعات الأكبر يجب أن يُقْتطع شيءٌ ما للسماح بالنسخ، وتُظهر منها فهارس المكتبات الأكبر عددًا معتبرًا. هكذا امتلكت مكتبة كلوني تقريبًا دزينة نسخ من كتاب بوثيوس «عزاء الفلسفة». وشكّلت كتب أوغسطين جسم المكتبة القروسطية النموذجية بعد الكتاب المقدس بالطبع، و«يتجلى الاحترام الذي خصّ به مفهرسو القرون الوسطى أوغسطين في حقيقة أنه مُنح عمومًا المقام الأول في قوائمهم بعد الكتاب المقدس». وتُذهل غلبة كتب أوغسطين – كان كتاب «مدينة الله» الأكثر شهرة – في المكتبات القروسطية القارئ الحديث على أنه فعل مُنافٍ للعقل، ولاحظ بيدي أن «مكتبة لورش في القرن العاشر كانت تحتوي ٩٨ مجلدًا لأوغسطين من بين ٥٩٠. وكانت مكتبة بيك تحتوي في القرن الثاني عشر ٣٦ مجلدًا لأوغسطين، وضمت أبرشية القديس موريس في نامبورغ في المدة نفسها ٩٨ مخطوطة لأوغسطين من بين ١٨٤ في المكتبة». توحي هذه الأرقام أن المكتبات الضخمة مثّلت مستودعات لنماذج؛ كي تُعار من أجل أن تقوم بنسخها مكتبات أصغر، وتظهر الأرقام أيضًا أنّه أُوكلت المهمة للقساوسة؛ كي ينسخوا الأعمال من أجل تعليمهم الخاص ولزيادة مجموعات المكتبة، وكانت أعمال بوثيوس وأوغسطين المواضيع الرئيسة للقراءة في القرون الوسطى بعد الكتاب المقدس.

لكن المكتبة كانت تتغير حتى في هذه القرون التي تمتدُّ حتى عصر النَّهضة، وبزغت الجامعات في مدن أوروبا، وأُنْشئتْ على غرار بيوت الحكمة التي انتشرت في العالم الإسلامي، وكانت الجامعات إلهام نيكولاس الرئيس، ومنافسه الرئيس أيضًا، ونمت مكتبات الجامعات بالسرعة التي نما بها فضول هيئاتها التدريسية، وتُجسّدُ مكتبة السوربون في باريس، التي توسّعت على نحو مذهل في القرن الثاني عشر، التغيرات التي أحدثتْها الجامعات في عالم المكتبة الأوروبية، ودرسَ فهرسها بعناية فريقُ البحث المؤلف من الزوج والزوجة ريتشارد وماري روس اللذين أكدا أن النموّ السريع في عدد المخطوطات وسم تغيرًا نوعيًّا وكميًّا في طبيعة المكتبة التي كانت تُوزع كتبها بين معلمي الكلية؛ كي يستخدموها لأبحاثهم. وحين كان يسافر أحدُ الأستاذة كانت الكتب التي يستخدمها تُخزَّنُ في صناديق عامة، وفي العقود التالية من القرن، ضاعفتْ هدايا وصايا المتوفين الكبيرة والصغيرة (من ٤ كتب إلى ٣٠٠) عدد الكتب في الكلية. وفي عام ١٢٩٠، احتوت المكتبة ألفًا وسبعة عشر كتابًا. وتطلبت هذه المضاعفة لعدد الكتب في المكتبة تنظيمها، وأشير إلى أن الفهرس العام الأول لمكتبة السوربون كُتب في ١٢٩٠.

اعتاد أمناء المكتبة في السوربون استخدام أداة جديدة من أجل تنظيم الكتب هي الأبجدية، فقال روس وزوجته: «لم تكترث القرون الوسطى كثيرًا بالترتيب الأبجدي؛ لأنها كانت ملتزمة بالترتيب العقلاني». بالنسبة إلى العقل القروسطي فإن «الكون هو وحدة متجانسة ترتبط أجزاؤها ببعضها البعض ومسؤولية المؤلف

أو الباحث هي التمييز بين هذه العلاقات العقلانية: من حيث التسلسل الهرمي، أو التسلسل الزمني، أو التشابهات، أو الاختلافات وهلم جرا، وعكسها في كتاباته». وترافق تطوّر هذه المقاربة التحليلية للكلمة المدونة مع ظهور أداة أخرى في أوروبا: نظام الأرقام العربية. واستخدم الباحثون في أكسفورد في منتصف القرن الثالث عشر الأرقام التي أحصوا بها الأسطر في المخطوطات في البداية. وقال روس وزوجته: إنه «بينما يمكن أن يتحدث مؤرخو العلم بحسرة قائلين: إن الغرب كان كسولًا جدًّا في تبني وقبول فن الحساب العربي الراديكالي الجديد بمفهومه الثوري عن الصفر، نستطيع أن نلاحظ على العكس من هذا أن صانعي الفهارس اللامبالين بتفرعات علم الحساب تبنوا الأرقام بلهفة من أجل سبب بسيط هو أن هذه الأرقام قدمت وسيلة لا تُضاهى في حفاظ المرء على عمله». وهكذا، فإنَّ الأرقام العربية المُستنبطة والمستخدمة في مكتبة إسلامية في القرن الثامن في بغداد عثرت على موطنها الأول في أوروبا في مكتبات جامعة، مثل: أكسفورد.

هذه هي المكتبات التي ازدراها إنسانويون لاحقون، مثل: فالا وبترارك الذين غالبًا ما شكوا من أن مخطوطة نادرة أو أخرى لم تُقرأ تهرأت في مجموعة قروسطية وتعفنت، وربما يمكن القول: إن تبجيلًا قروسطيًّا للنص كما ظهر للقارئ أفسح مجالًا في عصر النَّهضة لتشكيك إنسانوي، وتساؤل حول أصل الكتاب الذي بينَ يديهِ ومشكلاته، وأشار أنطوني جرافتون في كتابه: «روما تولدُ من جديد» إلى أن «مفكري عصر النَّهضة فهموا أن كتابًا واحدًا، وخاصَّة

المخطوطة، يمكن أن يكون وثيقة تاريخية وكذلك أدبية». يقول جرافتون:

«قام الباحثون في أواخر القرون الوسطى باختيارات محدودة من النصوص المتبقية، وركزوا في البداية على النصوص المتعلقة بالمحاضرات ومجادلات منهاج الجامعة. وانطلق جامعو عصر النَّهضة وباحثوه؛ كي يجدّدوا المعيار ويوسّعوه، فنهبوا مكتبات خاصَّة وجامعية في أنحاء أوروبا، وبحثوا في الأبرشيات بالدرجة الأولى عن نصوص نادرة نُسخت ودُرست في الزمن القديم وأوائل القرون الوسطى، لكنها فقدت شعبيتها في عصر السكولاستية المحدثة، وصار الفاتيكان مركز هذا الأسلوب الجديد من البحث، ودعم بابوات عدة، وعلى رأسهم نيكولاس الخامس، صيادي الكتب القراصنة في أوائل القرن الخامس عشر الذين سرقوا كل ما لم يستطيعوا نسخه في المكان الأصلي».

في أثناء هذه المحاولات البطولية لإنشاء نوع جديد من المكتبة، فبقي أحد النماذج هو مكتبات الجامعات التي سعى الباحثون بكدٍّ؛ كي يضخموها وينظموها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

قام نيكولاس - فيما كان فيسباسيانو يهمس في أذنه - بتأمين الحصول على مجموعة عكست تقديرًا جديدًا للحيوات التي تعيشها الكتب، فقد توفي قبل أن يتطور برنامج الجمع الذي شرع فيه كثيرًا، لكن خليفته سيكستوس الرابع واصل العمل، ووسّع برنامج مكتبة

الفاتيكان، وزودها بمبناها الأول، حيث عيّن أيضًا النَّاسخين الثلاثة الأوائل، وكان كلٌّ منهم اختصاصيًّا في إحدى اللغات الثلاث القديمة: اليونانية، واللاتينية، والعبرية. واستمر منصب النَّاسخ حتى يومنا هذا، وشغله مفهرسو مجموعات مكتبة الفاتيكان ومسؤولوها الإداريون الرئيسون أيضًا.

صارت الفهارس التي جمعها أولئك النَّاسخون الأدوات الرئيسة للبحث الجديد، وأبدعوا قوائم تفصيلية للمقتنيات في اللغة التي كانوا مسؤولين عنها، ونُسقت كي تشكل قائمة أبجدية كاملة بالكتب، فكان المنهج مرهقًا، ويجب أن يُشار إلى الإضافات والمجموعات في الهوامش، أو في قائمة منفصلة في نهاية مقطع. لكن التفصيل برهن أنه جوهري لباحثي الإنسانوية.

إن الفهرس الذي جمعه «أوصياء» المكتبة بارامينيو وماماسينو في عام ١٤٧٥ مضيء، خاصَّة اليوم؛ لأنه يقدم صورة عن الكتب التي احتوت عليها المكتبة فحسب، بل عن كيفية تنظيمها أيضًا.

وتبيّن أنه كانت هناك صفوف طاولات على كل جانب من الغرفة الأولى من المكتبة، ووُضعت على هذه الطاولات الكتب بحسب الموضوع في أعداد كبيرة، واتبع الفهرس تصميم الطاولات، فحملت الطاولة الأولى التي على اليسار نسخ الكتاب المقدس، وحُفظت الطاولة التالية لآباء الكنيسة، ووُضعت على الطاولات التالية: كتب رجال الكنيسة، وكتب عن القديسين والقانون الكنسي، والكتب اللاهوتية المعاصرة. ثمة تراتبية محددة هنا، معكوسة عبر الغرفة. وبحسب الفهرس، توضع كتب الفلسفة على

الطاولة التي تواجه الكتب المقدسة، وتتألف من كتب أرسطو مع شارحيه ابن رشد وابن سينا، وكتب أفلاطون وهرمس الهرامسة. وتتوضع على الطاولة التالية، التي تواجه جيروم وأوغسطين في الجانب المقدس، كتب علم التنجيم والرياضيات. وفي الغرفة الأولى من المكتبة يعثر معلمو الكنيسة على نظرائهم العلمانيين من الشعراء، وبينهم: أوفيد وفيرجيل. ويعثر القانون الكنسي على نظيره في البلاغة والخطابة، وهلمَّ جرًّا. واحتوت الغرفة التالية، كما هو موثّق في الفهرس، طاولاتٍ تتوضّع فوقها كتبٌ في اليونانية منظمة بالطَّريقة نفسها، ورغم أن هذه الخطة تختلف في تفاصيلها فإنها تذكر بالتقسيم الأبستمولوجي لكتاب كاسيودوروس «مؤسسات»، أي: بحقليْ المقدس والعلماني اللذين يعكسان ويكملان بعضهما.

كما سعت الإنسانوية إلى استعادة حالات سموّ اللاتينية، من جهة، وإلى توثيق (إثبات صحة) الكتب المقدسة وسلطة الكنيسة من جهة أخرى، فإن مكتباتها لخصت الانسجام في العصور الكلاسيكية القديمة، ولم يكن واضحًا كيف حُفظت الكتب على طاولاتها، بالرغم من أن عناوينها في الفهرس مسجلة بحسب نظام أبجدي داخل نطاق كل موضوع. بالتالي، تظهر المكتبة وفهرسها في نهاية القرن الخامس عشر أن النظام العقلاني للمعرفة والنظام الاعتباطي للأبجدية فُرضت بينهما هدنة غير سهلة. على أي حال، جعل النمو المتواصل في المجموعات الفهرس القديم بلا فائدة في القرن الثامن عشر، بينما أدى الجديد إلى انتصار المكتبة. وكان هذا الفهرس أبجديًّا بالكامل، ويخلو من الخيال العقلاني للتصنيف بحسب الموضوع.

لم تكن المعرفة الدراسية التي أتيحت من خلال مثل هذا التناظر الشامل مفيدة دائمًا للكنيسة، واستخدم لورانزو فالا النوع الجديد من البحث الذي ولّدتْهُ المكتبة ليُظْهر أن «هبة قسطنطين» - وهذه وثيقة يُزعم أنها تكشف أنَّ الإمبراطور المسيحي الأول منح روما للكنيسة - كانت مزورة ومزيفة. كانت هبة قسطنطين بأي حال، أساس المطالب البابوية بالسلطة على روما، وفي القرن السادس عشر، وضع أمين المكتبة جيرولامو سيرليتو هجوم فالا على هبة قسطنطين على قائمة الكتب الممنوعة التي أعدها لمجمع المكتب المقدس لمحاكم التفتيش. وخُبئت أعمال مثل: «تواريخ زوسيموس»، و«الوثني الذي دفعه ذوقه السيء إلى لوم المسيحية على سقوط روما في الجزء الأعمق والأشد غموضًا من مكتبة الفاتيكان»، كما قال أنطوني جرافتون، حسب قارئ فرنسي محبط. وفي أثناء الإصلاح المضاد اكتشف سيرليتو ما عرفه أمناء المكتبات لوقت طويل، وهو أن أفضل مكان لإخفاء الكتب هو المكتبة. لكن سيرليتو لم يكن مقتنعًا بأن يخفي الكتب غير المرغوبة فحسب، بل أحرقها أيضًا راميًا المشعل على مجموعة من النصوص البيزنطية التي شجبت الكنيسة الرومانية.

وتمكن ميشيل دي مونتاني الذي زار المكتبة في زمن سيرليتو، من أن يلتف على السياسة، قال:

رأيتُ المكتبة دون صعوبة، ويستطيع أي شخص أن يراها هكذا، وأن يأخذ منها ما يريده، وهي مفتوحة تقريبًا كل صباح، فقد أرشدوني فيها كلها، ودعاني سيد كي أستخدمها متى شئت، فكان

سفيرنا قد غادر روما في ذلك الوقت دون أن يراها، وشكا من أنهم يريدون منه أن يطلب من الكاردينال سيرليتو، رئيس المكتبة، الحصول على الإذن (كي يرى المكتبة). وقال: إنه لم يتمكن قط من رؤية كتابات سينيكا بخط اليد، كما كان يرغب جدًّا بأن يفعل. أحضرني الحظ إليه، واعتقدت أن الأمر بلا أمل بناء على شهادته.

إن الفرصة والشيء الذي في أوانه لهما امتيازاتهما، وغالبًا يمنحان العامة ما لا يمنحانه للملوك، كما أن الفضول يلعب دوره أيضًا، كما تفعل أيضًا العظمة والسلطة.

تنتمي مكائد كهذه إلى الماضي بالنسبة لمكتبة الفاتيكان. وصارت اليوم من أهم مكتبات الأبحاث في العالم، وكي يستخدمها الباحثون يجب أن يقفوا في طابور أمام البوابة ويعبروا الحراس السويسريين الشبان بسراويلهم القصيرة ولغاتهم الكثيرة، ثم يواصلوا السير الطويل نحو الداخل إلى مدينة الفاتيكان، على الطرقات المرصوفة بالحصى في ظل جدران وأقواس ضخمة فيما ينحسر بالتدريج صخب حركة المرور الواسعة في روما، ويملأ نشاط الباحثين الراضين وهمهمتهم غرف القراءة الواسعة التي تضيئها الشمس، بينما يجيب الموظفون المبتهجون على الأسئلة ويملؤون الطلبات منتظرين بصبر الرعاة متعددي اللغات؛ كي يعبّروا عن احتياجاتهم بلغة إيطالية قابلة للفهم، ويجلس هنا وهناك رهبان في أرديتهم وراهبات في أرديتهن، وجوههم تسبح في وهج شاشات الحاسوب المحمول، وفي الطرف المقابل من الساحة في الخارج مقهى صغير بُني على أطلال نافورة ضخمة تنتمي إلى عصر النَّهضة يقدم للقراء: قهوة

إسبريسو جيدة، وفطائر، وسندويشات بانيني مجانية بعد الظهر، يأكلها القراء وهم واقفون ويتحدثون مع أمناء المكتبة والطلاب. هناك طاقة وبهجة تظلان دائمًا مكبوتتين في المكتبات العديدة الأخرى للكتب والمخطوطات النادرة، لكنهما هناك مثل الكتب التي حاول سير ليتو أن يخفيها على الرفوف المتراصة الكئيبة، لكنه فشل في النهاية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع
معركة الكتب

ازداد عدد الكتب من القرن الخامس عشر إلى السادس عشر على نحو كبير، ما ولّد مزيجًا من الإثارة والقلق لم يكن قط مقتصرًا على الفاتيكان. وتطوّر افتتان الإنسانويين بالعالم القديم من هوى تخريبي تجلّى لدى الأكاديميين إلى أداة سلطة ذات نفوذ. وحين هدّد العلم تفوّق علم اللاهوت ونفوذه الشرعي في مجال السياسة، سعى الحكام إلى الحفاظ على سلطاتهم في مثل كلاسيكية. بهذا المعنى صارت المكتبة التي شعرت بآلام التغيير بعد تزايد عدد الكتب وأنواعها ساحة معركة بين الأيديولوجيات المتنازعة، فهل كانت مستودعًا للحكمة، تحفظ مُثُلًا لازمانية لتنوير أولئك الواقعين تحت نير السلطة، أم هل يمكن أن تصبح حديقة كتب تنتشر فيها المعرفة وتزدهر في ألوان بلا حد أو شكل؟

قفزت جامعة هارفارد إلى وسط هذه المجادلات، وفي الحقيقة بدأت الجامعة حياتها باعتبارها مكتبة. حصل جون هارفارد، الوزير البيوريتاني (التطهري) الذي وهب الجامعة، على درجة الماجستير من كلية إيمانويل في كامبريدج، في ١٦٣٥ قبل أن ينتقل إلى ماساتشوستس حيث خدم الجماعة في تشارلز تاون. وتوفي بعد ثلاث سنوات تاركًا عزبته لكلية جديدة تأسست للوعاظ على الطَّريق في

قرية نيوتاون.

كانت هديته تتألف من مكتبة تحتوي ٢٦٠ عنوانًا و٤٠٠ مجلد في المجمل، وعكست مجموعة هارفارد معتقداته البيوريتانية (التطهرية)، وكانت ثلاثة أرباع كتبه لاهوتية، ومعظمها تعليقات على الكتاب المقدس ومجموعات من المواعظ البيوريتانية. وظهر شيشرون وسينيكا وهوميروس بين المختارات الكلاسيكية. لكن بصرف النظر عن هذه لم تحتو المكتبة على كتبٍ أدبية، فكانت هذه مجموعة كاهن بيوريتاني عامل في مستعمرة محفوفة بالمخاطر في العالم الجديد، لكن الكتب أضفت طابعًا شرعيًّا على الكلية الصغيرة، وزوّدتْها بأساس فكري صلب تحتاجه كلية، وكانت الكلية ممتنة، وأخذت اسم المحسن عليها الراحل، وأعادت نيوتاون تسمية نفسها كامبريدج، على اسم الجامعة الأم للكاهن الراحل.

كانت جامعة هارفارد جامعة بيوريتانية وُلدت في عصر كانت فيه التربية الإنكليزية - على غرار المجتمع الإنكليزي كله في السنوات السابقة للثورة المجيدة - مقسمة على طول الخطوط الدينية، وأصيب المفكرون الإنكليز بفضول عصر النَّهضة حيال كل شيء في عهد إليزابيث. وكان الضوء الهادي لهذا التغير في الفكر الإنكليزي هو فرانسيس بيكون، الذي دعا المفكرين في عصر تيودور إلى الاهتمام بالأشياء لا بالكلمات، وإلى أن يضعوا جانبًا المكائد الحرجة الخلافية للعصور الوسطى، وينصرفوا إلى الملاحظة والتجريب. وصار تقسيمه للمعرفة البشرية كلها إلى ثلاث فئات - الذاكرة، والحكمة، والخيال - مبدأ مُنظِّمًا للفكر التجريبي. وتجنب بيكون في نظامه

التقسيم إلى مقدس وعلماني، عائدًا إلى الوراء إلى نظريات المعرفة الكلاسيكية التي شددت على العلاقات بين مجالات العقل. وأحدث تصنيفه تأثيرًا متواصلًا، فقد تبنى ديدرو في المجلد الأول من كتابه: «الموسوعة» (١٧٥١) الخطة، ودُعيت السباقة في التصنيف الحديث للمكتبات. وفهم بيكون مع معظم معاصريه الفكر على أنه ناتج عن سقوط آدم وحواء مثل الكدح البشري كله، واعتقد، على النقيض من أي مفكر قبله، أن السقوط قابل للعكس، وأن أداة هذا العكس، أي: استعادة «حق السيطرة على الطبيعة الذي هو حق البشر بحسب الوصية الإلهية»، هي الفكر ومنتجاته. وكتب قائلًا: «لنأمل أنه يمكن أن تنشأ أمور تساعد الإنسان كخط وسلالة من الابتكارات التي يمكن إلى حدٍّ ما أن تُخضع ضرورات وحالات بؤس الإنسانية وتتغلب عليها».

تغيرت البَشَرة الفكرية لإنجلترا وصار تأثير بيكون مستقطبًا بعد وفاة كروميل وبعد الإصلاح. وفي ١٦٦٤ أُجبر المنشقون البروتستانت الذين شكّكوا بعجرفة وسلطة الكنيسة الأنجليكانية، على الخروج من الجامعات، ما أغلق في وجوههم أضمن الطرق للوصول إلى السلطة والموقع.

وأنشأ الكهنة المنشقون بدورهم جامعاتهم الخاصَّة التي هيمن فيها علم اللاهوت التطهري وعلم فرانسيس بيكون على المناهج الكلاسيكية لكامبريدج وأكسفورد.

ويبدو المزيج غير مرجح في زمننا هذا الذي يتسم بالمعارك بين المقدس والعلماني، وبين نظرية الخلق ونظرية النشوء. إلَّا أنَّ التفسير

الحرفي للكتاب المقدس والتجريبية العلمية فُصّلا من القماشة نفسها بالنسبة لعقل القرن السابع عشر، وكلاهما اتبع بيكون في اعتماده على سلطة الدليل كما تتجلى أمام عينيْ المرء، وعارض هذا بشدة المنهج الأكثر علمانية، حيث كانت السلطة والتراث والقيمة المفيدة للمحاكاة والاحتذاء يستندون إلى الإيمان.

كان أحد رواد منهج الكتاب المقدس والعلم الخاص بالمنشقين هو تشارلز مورتون الذي أدار أكاديمية منذ عام ١٦٦٢ (العام الذي طُرد فيه المنشقون من الجامعات) إلى ١٦٨٥.

احتلت الأكاديمية المرتبة العليا في ذلك الوقت، وحظيت باحترام كبير. وكان دانييل ديفو من خريجيها الفخورين. وصارت الحياة في إنكلترا لرجل لديه معتقدات مورتون خطيرة جدًّا في النهاية، فانتقل إلى أمريكا، حيث أصبح نائب رئيس جامعة هارفارد، ولم تكن هارفارد جامعة منشقة بالمعنى الدقيق للكلمة، ومما لا شك فيه أن هذا ما جذب مورتون إليها، فكانت هارفارد أكثر من هذا: جامعة حقيقية، تتمتع بالرعاية الكاملة للحكومة الاستعمارية. وقام البيوريتانيون بغزوات في المؤسسة التربوية في إنكلترا أيضًا، وهبوا كلية جون هارفارد الخاصَّة، إيمانويل، بوصفها تجسيدًا للانشقاق داخل حرم جامعة كامبريدج القديمة، غير أنَّه لا يمكن أن تستقل جامعة بيورتانية متمكنة بشكلٍ كامل إلا في يوتوبيا ماساتشوستس الدينية، وأصبحت جامعة هارفارد بمثابة جامعة كامبريدج وأكسفورد لدى الكومونويلث البيوريتاني، في انسجام مع العقل والوحي باعتبارهما ينبوعين لقدرتها على تحويل الأولاد إلى رجال.

نمت مكتبة جامعة هارفارد في القرن السابع عشر ببطء وعلى نحو عشوائي، وكانت ما تزال تعتمد على سخاء المتبرعين، ولم يتغير هذا الاتكال، ما تغيّر هو عدد المتبرعين والسخاء الذي أبدوه فقط، وبقيت المكتبة مكتبة لاهوتية إلى حدٍّ كبير، متساوقة مع مهمة الجامعة في إنتاج كهنة لمستعمرة خليج ماساتشوستس، وتم وضع كتب الكاهن البيوريتاني الإنكليزي ثيوفيلوس جيل في ١٦٧٩، وكان معظمها لاهوتيًّا على غرار كتب هارفارد. ومع النمو المتقطع للمكتبة، بقيت الأوضاع فيها بسيطة. ووجَد متبرّع لاحق من لندن اسمه توماس هوليس وضع المكتبة لا يحتمل، فكتب في ١٧٢٥ للجامعة:

إن مكتبتكم سيئة الإدارة تحتاجون إلى مقاعد للجلوس والقراءة، وسلاسل لكتبكم القيمة. تسمحون بأن تُؤخذ كتبكم بكل سرور إلى منازل البشر، ما أدى إلى ضياع الكثير منها.

إن طلابكم الذين يتصرفون كالأطفال يأخذونها إلى غرفهم وينتزعون منها الصور والخرائط؛ كي يزينوا بها جدرانهم. إنَّ أمورًا كهذه ليست جيدة، وإذا أردتم أن يتسع المكان للكتب الحديثة، فيمكنكم أن تنقلوا الأقل فائدة بين هذه الكتب إلى أمكنة بعيدة، لكن لا تبيعوا أيًّا منها، إنها مكرسة.

لطّف هوليس انتقاداته بكرمٍ حاكاه ورثته. وفي ١٧٦٤ بعد ليلة باردة في كانون الثاني/ يناير دمّر فيها حريقٌ المكتبة، ملأت هداياهم المكتبة بخمسة آلاف مجلد، ما جعلها أضخم مكتبة بريطانية في

أمريكا الشمالية، فقد عكست السلسلة الكاملة للمعرفة في نطاقها البيكوني، وكانت الذاكرة والحكمة والخيال ممثلين بشكل كامل، لكن حتى مجموعة كهذه، شاملة كما يمكن أن تكون في مداها وطموحها، كانت ما تزال مضغوطة بما يكفي؛ كي تتسع لها غرفة واحدة كبيرة في الطابق العلوي من قاعة هارفارد، ومرفقة بحسب الحجم - الاستخدام الأكثر فعالية للمكان- في بضع خزانات كتب يبلغ عددها ثلاثًا وعشرين على الأرجح.

كان المشهد الفكري في أنجلترا قد تغير مرة أخرى في الوقت الذي احترقت فيه مكتبة هارفارد، ذلك أن العلم الذي رحّب به المنشقون في كلياتهم هيمن على الجامعات، وكانت حتى كلية وعّاظ على حدود الإمبراطورية البريطانية المتنامية بحاجة إلى مؤونة منتظمة من الكتب، وكان هناك هوليس آخر اسمه توماس هوليس وهبَ ٥٠٠ جنيه استرليني لتأسيس أول صندوق لتمويل الكتب للمكتبة، وبدأت المكتبة انتعاشها ونموها الثابتين، ويسجل فهرس المكتبة على الإنترنت - نظام معلومات مكتبة هارفارد على الإنترنت، أو هوليس - اليوم مجموعة تتجاوز عشرة ملايين كتاب، بعضها يتواصل شراؤه من دخل نقود هوليس إلى يومنا هذا.

كانت المكتبات ما تزال متواضعة في: حجمها، ونطاقها، وطموحها قبل قرن من حريق مكتبة هارفارد، وكان ذلك العدد القليل من الجامعات المنشقة التي لديها مكتبات إلى حدٍّ ما، يمتلك مجموعات مثل التي في هارفارد، تحتوي مواعظ وأعمال آباء الكنيسة،

وآيات تنبؤية مع عدد محدود من الكتب التَّاريخية والمجلات الفلسفية التي يمكن العثور فيها على مقالات عن أحدث الاكتشافات العلمية، ولكن هارفارد كانت مستعدة مثل الجامعات المنشقة؛ كي تستقبل في مكتبتها أعمال الكتاب الحديثين؛ بسبب انفتاحها على النقد وقبولها كرم المتبرعين ذوي العقول التقدمية وتوجيههم. من جهة أخرى، فكان اهتمام أمناء المكتبة في أوكسفورد وكامبريدج محدودًا بهذا الهراء.

لا يعني هذا القول: إن مكتبات الجامعة امتنعت عن شراء منتجات تجارة كتب علمية ازدهرت وتدفقت بصورة رئيسة من أقلام زملاء الكلية وجعلها متاحة. بالرغم من أنه كان من الممكن الاطلاع على العلوم في الجامعات، والقراءة على نحو جيد ومستفيض، كانت العقبات التي واجهت التربية «الحديثة» صعبة بين: أبراج كامبريدج، وأكسفورد، وخلاياها، وفجواتها. ذلك أن الجامعتين لم تشغلا نفسيهما بإنتاج علماء ومهندسين وفنانين جدد، بل بتحويل السادة الشبان إلى رجال دولة وقادة في الكنيسة الأنجليكانية، وكان لعلماء الجامعة العظام مثل: إسحق نيوتن، وروبرت بويل تأثير قليل في المنهج الجامعي بالرغم من شهرتهم، ولم يكن طلاب الكلية الذين يُعدون للكنيسة أو مناصب السلطة الدنيوية يدرسون منهجيًّا «الفلسفة الطبيعية»، في الصفوف الرسمية أو التَّعليم الخاص. ومن دون صفوف تساعد في الاطلاع على الكتب العلمية في المكتبة، لم يكن معظم الطلاب يعرفون أنها موجودة.

لم يكن المنهاج الذي عُدّ ضروريًّا لتحويل الأولاد ذوي

الامتيازات إلى رجال أقوياء لاهوتيًّا أو علميًّا، بل كلاسيكيًّا، وكان أحد منتجاته الأروع البارون السيد ويليام تيمبل. اعتزل تيمبل السياسي والدبلوماسي المشهور والكلاسيكي غير الموفَّق، في تسعينيات القرن السابع عشر في عزبته في سوري، مور بارك. وهناك، بمساعدةٍ من سكرتيره الشاب جوناثان سويفت، الذي تجمعه به قرابة بعيدة، كرّس وقته كله للشؤون الفكرية التي كانت مليئة بالمجادلات والمؤامرات مثل الدبلوماسية الأوروبية لمهنته الأولى.

حدث هذا في نهاية القرن السابع عشر، وحدث نزاع جديد في أوساط النخبة الفكرية البريطانية تناغم مع الصراع الطائفي بين البيوريتانيين والأنجليكانيين وتجاوزه.

بدأ حول مسألة التقدم: هل كان ممكنًا، أو حتى مرغوبًا، أن يبني النَّاس على حكمة القدماء؟

تابع تيمبل الصراع منذ بدايته، وعرف أن تشارلز بيرو ألقى في ١٦٨٧ قصيدة أمام الأكاديمية الفرنسية احتفى فيها بشفاء المريض لويس الرابع عشر، ومدح في القصيدة الملك والعصر الذي يمثله، ومجّده كعصر ذهبي تجاوز أمجاد روما القديمة، وتجسّد الجدل الذي سببه إلقاء بيرو لقصيدته في تيار من المنشورات تدفّق من المطابع الباريسية.

كانت نظريات نيوتن تُحدث تأثيراتها العميقة في الوطن، في إنكلترا، في الصفوف الثرثارة التي سعت إلى المؤالفة بين صورة كون بارد تسيّره آلية ساعيّة وفكرة إله شخصي خالق. وبقي تيمبل على

اطلاع على هذه المعركة البازغة بين القدماء والمحدثين، وبينما كان يتابع الجدال شعر بالقرف، وآلمتْهُ فكرةُ أن الكتاب الحديثين يمكن أن يأملوا الوصول إلى ذروات وصل إليها هوميروس وبندار. وتحالف تيمبل بقوة مع ما يُدْعى بالقدماء مع الذين اعتقدوا بأن الأعمال الكلاسيكية جسّدتْ ذروة إنجازات الإنسان على الأرض، وأن ما يأمل المؤلفون الحديثون فعله هو مجرد محاكاة للنماذج الرفيعة لـ: الشعراء، والمؤرخين، والمسرحيين القدامى بطهارة وتواضع. وحين شاهد أن تفوق الأعمال الكلاسيكية معرض للخطر في الوطن وفي الخارج في آنٍ معًا، انخرط تيمبل في الجدل، وأحضره بقوة إلى شواطئ إنكلترا، ونشر في ١٦٩٠ مقالة خاصَّة بعنوان: «حول المعرفة القديمة والحديثة».

حاجج تيمبل في المقالة أنَّ إحدى إشكاليات التَّعليم الحديث الرئيسة هي اعتماده على الكتب، وأضاف أننا لسنا بحاجة إلى مزيد من الكتب، فقد كان لدى القدماء الكثير منها، إلا أنه كانت لديهم معرفة أيضًا وذوق، كما أن انتشار الكتب فحسب ليس ضمانًا لأي توسع في المعرفة والذوق، فالمعرفة الحديثة معزولة جدًّا، ويجب أن تكون حياة الآداب ما كانته للرومان: شخصية وسياسية في آن معًا، وحيوية قبل أي شيء آخر، حيث قال تيمبل: «إنَّ الباحثين الجدد يذهبون إلى حدٍّ بعيد في البحث عن الكتب، بدلًا من بحثهم عن الرجال، من أجل التوجيه، بالرغم من أن هؤلاء الرجال أحياء، والذين في الكتب هم بالمقارنة معهم معلمون موتى فحسب، وهذا يشبه يدًا منقوشة تستطيع أن تشير إلى الخط المستقيم للطريق، لكنها

لا تستطيع أن تخبرك أين المنعطفات التالية، وكيف تتخلص من شكوكك أو تجيب على أسئلتك....». وعقّبَ أن الكتب التي يجب أن يقرأها المرء مختارة ببساطة: إنها الأقدم، تلك التي تم تأليفها في وقتٍ أقرب إلى زمن العصر الذهبي الهوميروسي، وهذه يجب ألا تُفكك وتُفحص علميًّا من قِبل عالم فقه لغة متصيد للأخطاء، لكن يجب أن تُقرأ بتبجيل ككتاب للقوة الدنيوية. وكأمثلة، يذكر تيمبل كتاب «رسائل» للطاغية اليوناني فالاريس وكتاب «حكايات خرافية» لإيسوب الكتابين اللذين اعتُقد لوقت طويل أنهما من بين أوائل الكتابات الكلاسيكية.

كان ذكر تيمبل للنماذج سيئ الحظ بأكثر من طريقة، فكان فالاريس شخصية بغيضة، وذاع صيته بوصفهِ طاغية يشوي أعداءه داخل ثور برونزي. جرّد هذا بالنسبة لتيمبل الملك من جدارته بحياة الآداب. وكانت المشكلة، عوضًا عن ذلك، هي أنَّ كتاب «الرسائل» كان مزيفًا، نعم، تم تأليفه في الزمن القديم، لكن بعد زمن فالاريس بوقت طويل، وكان هذا واضحًا للمتخصص في دراسة الكتب الكلاسيكية ريتشارد بينتلي الذي اكتشف أن المحكية اليونانية التي تكلمها فالاريس تختلف إلى حدٍّ كبير عن اليونانية الأتيكية التي أُلِّفَ بها كتاب «الرسائل». وفي رد حاسم على تيمبل نشره تحت عنوان: «أطروحة حول رسائل فالاريس» وبّخ بينتلي الدبلوماسي على خياراته غير الحكيمة وكلاسيكيته السطحية، وكما هاجم بينتلي صرامة كلاسيكية تيمبل، فعل تلميذه الباحث الشاب ويليم ووتون الذي انتقد الفكرة المحورية لحجة تيمبل ووجهة نظره: إن القدماء

أبدعوا أعظم أعمال الإنسانية في الفنون والعلوم التي تشحب إلى جانبها أعمال المفكرين الحديثين، وقال ووتون: إن المقاربة العلمية لفنون العالم القديم تمنحه فهمًا أعمق للعالم الكلاسيكي، وأقرّ أن فكرته أزعجت كثيرًا السادة الباحثين الذين حذوا حذو تيمبل.

إن التنقيب في المخطوطات القديمة، والمقارنة بين القراءات المختلفة، وتصفّح المسارد والمخطوطات القديمة حول: المؤرخين، والخطباء، والشعراء القدماء، والانتقاد الدقيق لكل أساليب اليونانيين والرومان القدماء التي فقدت ذكراها بطريقةٍ ما، وضاعت في أعوام مضت بعد أن كانت مستخدمة، قد تكون حججًا جيدة حول اجتهاد الإنسان واستعداده للكدح، ولكن يبدو أنها لا تعني سوى القليل لوصفه بأنه عبقري عظيم أو شخص قادر على القيام بأشياء كبيرة بنفسه.

شجبَ تيمبل انتشار نصٍّ أنتجتهُ المطبعة، وأقرَّ ووتون أيضًا بأن توافر عدد كبير من الكتب أحدث تغيّرًا في المعرفة، لكنه تغيّر نحو الأفضل كما وصفه. وأضاف: «حين تكاثرت نسخ الكتب عن طريق الطباعة، بدأ النقد الذي مورس في البداية بنشر نسخ صحيحة من الكتب القديمة». واعترف ووتون بأن عملًا فكريًّا كهذا صار منذ ذلك الوقت «معرفة مطابقة للزي الحديث». وإذا بدا التقدم كأنه تباطأ، فإن السبب في هذا ليس «لأن مواهب البشر معطلة، بل لأن الموضوع مستنفد بطريقةٍ ما». ووافق ووتون على أن فقه اللغة يمكن اتهامه بأنه «متحذلق والسبب في ذلك أنه مارسه مرة رجال بدا كأنهم

يُضْفون قيمة على أنفسهم على أساس وفرة المقتطفات من اليونانية واللاتينية والتباهي الفارغ بالقراءة المنتشرة دون أي شيء في كتابتهم لتزكيتهم». ويرى أيضًا أن عملًا صعبًا كهذا سينتج دائمًا كمية كبيرة من العمل غير المثمر. وهكذا، بالرغم مما لديهم من خَبَث، قام فقهاء اللغة باكتشاف ما يكفي من الكنوز المعرفية «للثناء على الحكمة العظيمة، وعلى صناعة هذه العصور اللاحقة» أيضًا بالمقارنة مع العالم القديم.

لم يشاهد تيمبل «صناعة» حين نظر إلى فورة الكتب الجديدة المطبوعة، بل إسهابًا وانحلالًا ومشاحنات تافهة فحسب، فقد رأى ووتون أن مجادلات الحديثين، والكتب الجديدة التي بزغت منها، تبرهن فقط على قوة الحداثة واحتمالاتها التقدمية بالمقارنة مع إمبراطورية رومانية متجانسة ومركزية، قامت فيها «مصلحة مشتركة واحدة بتوجيه تلك المجموعة الكبيرة». وفي الأدب كما في كل شيء آخر، قادت كل الطرق مرة إلى روما، وهذا وضعٌ برهن في النهاية أنه مُسفّه، «بينما الآن»، كما يلاحظ ووتون، إن «جميع الممالك تقف على مؤخرتها، وتغار كلّها من مجد بعضها، وليس في أي شيء أكثر من مسائل المعرفة». وأشار ووتون إلى المشاحنات التي ازدراها تيمبل - بالرغم من أنه لم يترفع عنها واشترك فيها - كعنصر في الطَّريقة الحديثة في المعرفة:

بالرغم من أن المجادلات أديرت على نحو متحذلق جدًّا مرات كثيرة، عن طريق إساءة معاملة المتعلمين، إلا أنه كان لها تأثير جيد. وكان البعض متحمسين لضمان مجد ابتكار الأشياء المكتشفة سابقًا،

لبلدانهم. وكان آخرون مهتمين بصورة مساوية بإضافة المزيد من الشرف غير القابل للجدل، بابتكار جديد كانوا متأكدين أنه لا يوجد إنسان يمكن أن يتحداه.

فهم ووتون أن القدماء أنتجوا كتبهم في حالة من الحماس التقدمي والطاقة الوافرة، وقال: إنَّ تأليف الكتب والجدل حولها هو من أجل محاكاة القدماء على نحو صادق، لكن ما قامت به هذه المجادلات من منظور تيمبل هو أنها أثقلت النصوص الكلاسيكية بالكثير من المسارد والحواشي والفهارس، وباختزال الحديثين للأعمال العظيمة للزمن القديم إلى الكثير من المسائل النَّصية تحت ميكروسكوب فقه اللغة، شعر تيمبل، بأنهم جرّدوا النصوص القديمة من فرادتها السامية التي هي ما يحصنها من النقد.

بشّرت هذه المقاربة الجديدة بالنسبة لووتون، كما هو الأمر بالنسبة لراعيه ريتشارد بينتلي، بوصول حساسية جديدة تمتلك في نطاقها أدوات البحث - المقارنة بين النصوص، الأطروحات، المكتبات المتنامية - نوعًا من السمو أيضًا.

وجّه ووتون وبينتلي في منشوراتهما ضربة إلى أحد أرستقراطيي إنكلترا المشهورين. وحين دخلا ميدان الجدل العام، لم يكونا مستعدين سياسيًّا بقدر ما كانا مستعدين فكريًّا، وترعرع ووتون، مثل كاتب المقالات العظيم مونتاني، وهو يتحدث اللاتينية لغة أولى له، وكان والده قد قدّم ويليم حين كان في سن العاشرة ليكون بمثابة موزارت فكري في صالونات إنكلترا، وحثّه على أن يخطب

باللاتينية، ويرتجل باليونانية والعبرية لجمهور مندهش. لم يكن المرشد اللاحق لووتون من النبلاء، لكن مثل شيشرون، صعد بينتلي من أصول ثرية عادية إلى قمة العالم الفكري البريطاني. وكان بينتلي، الذي صادق: إسحق نيوتن، وصمويل بيبس، وجون إيفيلين، عالم الكلاسيكيات الأكثر احترامًا في إنكلترا. كان رجل دين ولاهوتيًا ومثقفًا عامًّا ونادرًا ما قصر اهتمامه على مسائل فقه اللغة الكلاسيكية، وكتب أيضًا وحاضر حول الإلحاد والمعاني الضمنية اللاهوتية لأفكار نيوتن حول الجاذبية.

وفي ١٦٩٤، صار زميلًا في الجمعية الملكية الجديدة وقيّمًا للمكتبة الملكية.

وُضعت المكتبة الملكية في ذلك الوقت مثل مكتبة جامعة هارفارد التي كانت من دون ريب الأحدث، في غرفة واحدة، تقع فوق المطبخ في قصر سينت جيمس في لندن. واستُهجنت حالة المكتبة، بكتبها المبعثرة بين الرفوف، وعلى الطاولات دون ترتيب محدد، على نطاق واسع. وكانت المجموعة، مثل الغرفة، خليطًا، وبناها ملوك عدة ونساخهم. وعكست دوافع مختلفة، وبينما جمع هنري السابع أقل من مئتي كتاب يتناول مواضيع دينية، كان هنري الثامن أكثر حبًّا للكتب، فلم يكن جامعًا مجتهدًا فحسب، بل كان قارئًا أيضًا لكتبه، وملأ كثيرًا من المجلدات التي أضافها إلى المكتبة بهوامشه. إنَّ اليدين المقيدتين اللتين تشيران والمرسومتين على الكتب بإتقان ساحرتان. وفي المقدمة التوضيحية لكتاب كنسي يشير إصبع طويل ورشيق إلى كلمات (عن الخطيئة ضد الروح القدس). وبدا كأن

هنري الثامن سعى إلى التوجيه وتبرير أفعاله السياسية والشخصية من كتب مكتبة كانت تنمو بسرعة، ونمت مكتبته على نحو خاص بقوة في مسالك أدب الإصلاح البروتستانتي، واجتهد كي يلعب دورًا أساسيًّا في الأحداث.

واصلت المكتبة الملكية نموها في ظل الملوك اللاحقين، إلا أن إضافات إليزابيث كانت نادرة وغامضة، وتألفت بصورةٍ رئيسة من نسخ الكتب التي تم تلقيها كهدايا، فلم يتماشَ هذا مع سمعتها ككاتبة ولغوية موهوبة. بالمقابل، كان لدى هنري أمير ويلز شهية قوية لاقتناء الكتب العلمية. وعمل جيمس الأول على جمع كل ما كُتب ضد عهده. وبنى جورج الثالث في القرن الثامن عشر، بمساعدة صامويل جونسون وآخرين، المكتبة الملكية وحوّلاها إلى إحدى مجموعات الكتب الأفضل والأجمل في العالم. تتوضع المكتبة البريطانية الجديدة الآن في برج زجاجي عظيم في الساحة العامة وفي داخلها تلمع أغلفتها الرائعة كالجواهر. وصارت المكتبة في نهاية القرن السابع عشر خليطًا من الكتب الكلاسيكية التي تمَّ اقتناؤها لـ: تنوير الملوك، وأدبيات الكنيسة، والنشرات السياسية واللاهوتية.

حين تولى بينتلي منصب قيّم المجموعة الملكية روّعته حالتها، فانطلق على الفور؛ كي يؤمّن تمويلًا للمكتبة ويحولها من خزانة ميتة لا تثير الفضول إلى مركز دولي للمعرفة السامية، بفعله لهذا طوّر رؤية عن المكتبة الشاملة سبقت زمنها على نحو مدهش، وطرح في مقترح نُشر في شكل عريضة المشكلة لجمهور القراء: «تتجه المكتبة بالتدريج نحو تآكل شديد، وهذا يلحق العار بالتاج والأمة كلها، حيث تعيش

الغرفة وضعًا مزريًا ولا يمكن إصلاحها، وهي صغيرة جدًّا لا تتسع للكتب التي فيها. تلف الكثير من المخطوطات القيّمة؛ لأنها بحاجة إلى أغلفة». واصل بينتلي شاكيًا من أن «أكثر من ألف كتاب ينتظرون للانضمام إلى المجموعة»، لكنها ما تزال «غير مجلدة وبلا فائدة»، وهذ يخالف قانون الطباعة الذي بمقتضاه يجب على الطابعين أن يودعوا نسخًا من أعمالهم في المكتبة الملكية؛ كي يضمنوا الحقوق. أُهمل هذا القانون الذي يعود إلى عصر إليزابيث لوقت طويل ونتيجة هذا، شقّ عدد محدود فقط من آلاف العناوين التي طُبعت في إنكلترا في القرن السابع عشر طريقه إلى المكتبة الملكية. ضغط بينتلي بشدة من أجل فرض قانون الطباعة. واقترح دفع تكاليف المكتبة عن طريق صندوق ائتماني ممول بضريبة على الورق، لضمان نمو المكتبة وروعتها. وقال: إن المكتبة التي ستنتج من هذه الإجراءات، يجب أن تكون «مبتكرة من أجل السعة والراحة، وإن كل من يدخلها يمكن أن يجد مئتي مجلد جاهزين لاستخدامه وخدمته».

تصور بينتلي هنا مكتبة تخالف صورة أي مكتبة في العالم آنذاك، فلم تكن حتى مكتبة الفاتيكان منظمة بهذه الطَّريقة، وبالرغم من أنها كانت في الحقيقة واسعة، فإن مجموعتها لم تكن في ذلك الوقت متاحة للقيام بالأبحاث الحقيقية. زار ابن بينتلي لاحقًا مكتبة الفاتيكان، وكتب لوالده عن شكاوى من الصعوبة التي واجهها في استخدام المكتبة التي كانت تغلق أبوابها بشكلٍ مُتكرر من أجل الولائم والعطل. لكن رؤية بينتلي للمكتبة الملكية تنفصل بشكل مذهل عن نموذج كهذا. وهي تستند إلى نموذج المكتبة الشاملة للزمن القديم

التي كانت مكتبات الإسكندرية نماذجها الأشهر، لكن بينتلي كان يتطلع إلى الأمام أيضًا بسبب طموحه، وكانت خططه الكبيرة تتضمن مكتبة الأبحاث في القرنين التاسع عشر والعشرين. وتخيل المكتبة مركزًا للنشاط الفكري، حيث يمكن لجمعيات الأبحاث أن تعقد «المؤتمرات حول مسائل المعرفة».

إنَّ الجمعية الملكية نموذج رفيع في فرعٍ واحد من المعرفة، فالفائدة والمجد اللذين يمكن أن تمنحهما للأمة مثل هذه الجمعيات لا يقتصران على موضوع واحد، بل يشملان أجزاء المعرفة الجيدة كلها.

إن حائط المكتبة يمكن أن يُلبَّس من الداخل بـ: الرخام ونقوش قديمة، وحفر غائر... إلخ، إما موجود في مملكتنا، وإما يمكن إحضاره بسعر رخيص وسهولة من الساحل الإفريقي وآسيا.

ويمكن للرعاة أن يحصلوا على المال بالفائدة عن طريق هذا الصندوق البرلماني، إذا سمحت المناسبة، ويستخدموا عوائد عامين أو ثلاثة؛ كي يشتروا مكتبات كاملة على الفور.

هناك نسخة من اقتراح بينتلي في المكتبة البريطانية التي وُضعت في مقرِّها الجديد في أيوستون رود في شمال لندن. وبدأت تزدهر في بناءٍ رائع صممه المهندس المعماري السير كولين سينت جون ولسون، وكان هذا تجسيدًا سعيدًا لطموح بينتلي المهيب والرؤيوي.

تصل الكتب من أحشاء الرفوف راكبة على نظامها الخاص من النواقل والسلالم المتحركة، وتبزغ في غرف قراءة واسعة يغمرها الضوء، ويشاهد الجمهور خارج غرف القراءة معارض تعرض بعض الكتب الأكثر عظمة في العالم. في أثناء ذلك تلتقي «الجمعيات

الثقافية بين النقوش الغائرة»، وتتناول نقاشاتها حركة النصوص والمعرفة التي تدور حولها. تبدو مدهشة كمؤسسة كان بينتلي يأمل أنها ستحل مكان الغرفة الصغيرة العتيقة فوق مطبخ القصر.

تجلت الصورة الأكثر ديمومة للصراع بين القدماء والمحدثين كما صورها جوناثان سويفت في تلك المكتبة المتسخة والقديمة.

كان الشاب سويفت قد ثُبت في عمله كموظف لدى تيمبل في أثناء الصراع. وشاطر تيمبل عدم ثقته في ما يُدعى بالتقدم. وحين نضج عمله صار مقته للمفكرين الحديثين، وخاصَّة الذين ينتمون للجمعية الملكية، غذاء غنيًّا غذى عليه سخريته. وألّف في ١٧٠٤ قصة تُدعى: «قصة كاملة وحقيقية للمعركة التي خيضت الجمعة الماضية بين الكتب القديمة والحديثة في مكتبة القديس جيمس» المعروفة على نحو أفضل اليوم باسم: «معركة الكتب». وتخيّل فيها الغرفة الضيقة والمغبرة للكتب التي تحت رعاية بينتلي كساحة معركة واسعة، أو ربما تخيّل الساحة الكاملة للجدل الفكري في أوروبا كمكتبة، بالرغم من أنها تختلف عن المجموعة غير الملائمة المحفوظة في سينت جيمس. وكانت الكتب نفسها في هذه المكتبة في حرب، وليس نقادها أو حماتها، وتختلط الكتب فيها معًا، تبدل مواضعها ونماذجها، وتتنافس من أجل كبرياء المكان على الرفوف. واستطاع سويفت على غرار بينتلي أن يتخيل الاحتمالات التي بزغت حين جُمعت كميات كبيرة من الكتب. وبالنسبة له، كما بالنسبة لمرشده تيمبل، تبزغ رؤية فاسدة في تغاير واضح مع الأخيلة الآملة لبينتلي ووتون.

تتجاوز معركة سويفت زوايا غرفة المكتبة، فقد بدأت في الحقيقة في أجنحة مكتبة بارناسوس الأسطورية. ذلك أن المحدثين، بعد أن غاروا من منزل أسلافهم على القمة، طالبوا بتغيير:

إما أن يقبل القدماء إزالة أنفسهم وتأثيراتهم وينحدروا إلى القمة الأدنى التي سيسلمها لهم المحدثون بلطف ويعودوا إلى مكانهم، وإما أن يمنح القدماء المذكورون الإذن للمحدثين؛ كي يأتوا بالمعاول والمجارف، ويمهدوا هذه التلة المذكورة ويخفضوها إلى الحد الذي يرونه ملائمًا.

سارت المعركة المادية بين الكتب الفعلية التي نشبت في المكتبة الملكية في سينت جيمس على خطا هذه المجابهة الأولى، وكان سويفت مهتمًّا بدور المنشورات والنصوص المؤلفة بسرعة وغير المدققة جيدًا التي كانت الأداة الرئيسة للصراع بين القدماء والمحدثين، ذلك أن وصول هذه «الكتب» إلى المكتبة أثار الجدل بين المجلدات المقيمة، وشبّه هذا الشيء العابر بالغنائم التي كان الأبطال اليونانيون يعرضونها بعد الحرب. وكتب سويفت قائلًا:

نُقشت على هذه الغنائم إلى حدٍّ كبير مزايا القضية، قصة كاملة غير متحيزة عن معركة كهذه، وكيف أن النصر كان حليف الطرف الذي أوقع بها، فكانت معروفة للعالم بأسماء عدة كـ: مجادلات، ونقاشات، وردود فعل، وآراء مقتضبة، وأجوبة، وملاحظات، وانعكاسات، واعتراضات، وتفنيدات.

قال لنا سويفت أيضًا: إن «الأكثر أهمية والأكبر» بين هذه الغنائم نُقل إلى مخازن محددة تُدعى: «مكتبات»؛ كي تبقى هناك في منطقة مخصصة لها لهدف محدد، ومنذ ذلك الحين فصاعدًا صارت تُدعى:

«كتب الجدل». وحُجزت هذه الكتب دائمًا «في غرفة منفصلة»، بما أن «الروح الأكثر فوضوية تسكنها»، حيث قُيدت «بأغلال حديدية قوية». ولم تعد هذه الطَّريقة التي حافظت على السلام طويلًا في المكتبات كافية؛ لأن نوعًا جديدًا من الكتب «الغزيرة وذات الروح الخبيثة»، بزغت في الحرب «بين العارفين حول القمة العالية لجبل بارناسوس».

(صورة في الصفحة الأولى من طبعة ١٧١٠ لكتاب سويفت «معركة الكتب»، تظهر المشاجرة في المكتبة في سينت جيمس. النحلة والعنكبوت يظهران في أعلى اليسار. مكتبة هوتون إي سي ٧، إس دبليو ٥٥١ تي. ١٧١٠. حصلنا على الإذن من مكتبة هوتون، جامعة هارفارد. صورة لستيفن سلفستر وبوب زبنك، خدمة إتش سي إل للتصوير).

كان لكلمة «الغنائم» في سخرية سويفت معنى مزدوج: كانت

المنشورات التي استمر الجدل فيها، ومثلت في الوقت نفسه: كتب العلم، وفقه اللغة، واللاهوت الشعبي التي ملأت مكتبة بارناسوس القديمة. وأقر سويفت بأن كتبًا كهذه ليست شيئًا جديدًا باستثناء أنه في الأزمنة السابقة فقط عثر «الأهم والأضخم» بينها على مكان في المكتبة.

أما الآن، فتصل هذه الكتب متدفقة كجدول وبسرعة كبيرة إلى خزانات المكتبة الملكية، بحيث لا يمكن أن تُجلد، ويطالب كل واحد منها بموضعه الفريد في المكتبة.

حصلت المجادلات الفكرية الأكثر أهمية في نوعٍ جديد من النشرات والمجلات، وبما أن تعليم السيّد كان مبينًا بصورةٍ رئيسة على الأدب الكلاسيكي، تم التخلي عن الخطابات العلمية والسياسية والاقتصادية البازغة. وازدهرت هذه الموضوعات في منشورات، مثل: مجلة «أثينيان ميركوري» التي تأسست في ١٦٩١، وكانت المنبر الرئيس لمجموعة من موهوبي المقاهي الذين لقبوا أنفسهم بالمجتمع الأثيني. كان عنوانها الكامل «الغازيت الأثينية»، أو «كازويستيكال ميركوري التي تحل المسائل الأكثر ظرافة وإثارة للفضول التي يطرحها العباقرة». ويصف هذا العنوان الطويل الجهد جيدًا، فقد كان المحررون يتلقون أسئلة مرتين في الأسبوع، وكانت كلها تُطبع على ورقة واحدة لا يتجاوز حجمها ورقة الرسالة. وقال جيلبرت مكيوان في كتابه «وحي المقهى» الذي درس مجلة «ميركوري»: إنها كانت مصدرًا تعليميًّا للأشخاص «العاديين»،

كالبقالين والتجار الذين لم يحصلوا إلا على تعليم رسمي محدود، وكانت المجلة تقدمية على نحو مدهش، ونادت بتعليم الطبقات العاملة والنساء، وكان نطاق الأسئلة التي يجيب عليها المحررون واسعًا، ولم يكن هناك شيء خارج نطاق خبرتهم، وكان عدد واحد يمكن أن يثير أسئلة مثل: «ما نوع الحكومة الأفضل؟» و«لماذا تستطيع البومة أن ترى في الليل بشكل أفضل مما تستطيع في النهار؟» و«هل من القانوني أن يتزوج الرجل بعد أن يدفن زوجته من شقيقتها؟ وهل ستترك الزوجة الأولى المسألة خلفها؟»

عثر سويفت على سبب للأمل في الأعداد الأولى من مجلة «ميركوري» بالرغم من ازدرائه للأشياء السوقية المثيرة للفضول التي بدا أنها كانت تمرّ كفكر حديث، وكان مرشده تيمبل بين الذين طرحوا أسئلة على الأعضاء المطلعين في المجتمع الأثيني؛ كي يفكروا بها. ومن المحتمل أنه شجّع سويفت كي ينظر إلى استخدام المجلة للقب الأثيني على محمل الجد، وأن يتوقع أن «الجمعية تقدم توجيهًا رزينًا ومعرفيًّا لجمهور القراء المزدهر في إنكلترا». كانت قصيدة سويفت الأولى المنشورة هي «أنشودة إلى المجتمع الأثيني»، ومجّد فيها «الرجال العظام المجهولين والأكثر سموًّا» الذين كانت تملأ حكمتهم مجلة «ميركوري» مرتين في الأسبوع. فيما بعد عَلِم سويفت أن هذه «الجمعية» تتكون في الحقيقة فقط من ثلاثة صحفيين من الدرجة الثالثة من شارع جروب، وكان ناشر المجلة وروحها الموجهة بائع كتب اسمه جون دونتون، تخرّج من الأكاديميات المنشقة التي ازدهرت تجارة كتبها في عالم مقاهي لندن الهامشي. سافر

حتى إلى نيو إنجلاند، حيث التقى مع كوتون ماثر، وحضر محاضرة ألقيت لتحويل السكان الأصليين في أمريكا إلى المسيحية في ناتيك، وباع الكتب في هارفارد (ربما وصل بعضها إلى المكتبة). وناصر دونتون نوع الكتاب الجديد الذي، في تقدير سويفت، كان يملأ المكتبة الملكية. وفي الحقيقة، بدا كأنه لم يمر في تجربة في الحياة إلا ورآها مناسبة للنشر في شكل كتاب.

أحيا ذكرى رحلته إلى نيو إنجلاند في سيرة ذاتية أسماها «حياة جون دونتون وأخطاؤهُ»، وأخرجها بإصرار في ثلاثين طبعة، وحين فشل في دفع مهر زوجته الثانية أطلق حملة منشورات ضد حماته.

شعر سويفت بالحزن حين اكتشف الطبيعة المتقلبة للجمعية التي «أحبها». لاحقًا، انتقد بشدة دونتون والجمعية الملكية التي كانت أكثر احترامًا وأصالة في «قصة حوض». ولكن بالرغم من أنَّ مجلة دونتون «ميركوري» كانت قائمة على التزوير الأدبي، إلا أن كتّابه بذلوا ما في وسعهم؛ كي يجيبوا عن الأسئلة بصدق ودقة.

فضّلوا في الأمور كلها دليل التجربة على سلطة المصادر القديمة، بالرغم من أنه حين لا تتوافر واحدة، فإن الأخرى ستتوافر، واعتمدوا في الإجابة عن بعض الأسئلة على آخر اكتشافات العلم التجريبي. وفي جواب على سؤال: «ما المادة التي صُنعت منها الشمس؟» ذكروا ملاحظات علماء الفلك المعاصرين. وفي ردهم على سؤال حول وجود السنتورات والفاونات (آلهة الغابات) أشاروا إلى الدليل لدى: أفلاطون، وطاليس، وبلوتارك.

وصفّوا في المعركة بين القدماء والمحدثين مع الطرف القابل

للتمييز، بالرغم من أنهم كانوا حديثين على نحو جذري في طاقتهم والتزامهم بتقدم المعرفة.

على العموم، أوحت علاقات تيمبل وسويفت مع مجلة «ميركوري» بأنها لم تكن مؤيدة لموقفٍ واحد في المعركة بقدر ما كانت ساحة معركة في حد ذاتها.

قدم محررو وقراء مجلات مثل: «ميركوري» الحداثة التي تجنبها التَّعليم المحترم بدأب، واتبعوا نصيحة وليم ووتون في محاكاة طاقة ومبادرة القدماء عوضًا عن الأصداف الفارغة لأشكالهم الشعرية. علاوة على ذلك، كانوا جائعين للقراءة، وهو جوع خففوه بوجبات ثابتة من الكتب والمنشورات التي قدمها أشخاص، مثل: جون دونتون.

عدّ سويفت وتيمبل هذه الطاقات الحديثة متضاربة مع كل ما هو صحيح وجميل في الفن، وتبنى سويفت في الوقت المناسب وسائل النشر الحديثة حين أعلن هويته الإيرلندية. وكتب ونشر مطبوعات ومجلات داعمًا سمعته ككاتب ساخر ووطني، وتبنى أدوات الخداع والسخرية التي برع فيها صحفيو الدرجة الثالثة من شارع جروب الذين ازدراهم ووظفها في أعلى الاستخدامات الأدبية، لكن حين نشبت المعركة بين القدماء والمحدثين شاهد سويفت، مثل: تيمبل تدفق الكتب التي من الدرجة الثانية من مكتبات أشخاص أذكياء مثل دونتون كسيل جارف هدد بغمر كل ما آمن به. كما كتب المؤرخ جوزيف ليفن:

كشفت معركة الكتب أنَّ إنسانوية عصر النَّهضة انقسمت ضد

نفسها. وبحلول ١٧٠٠ صار من الضروري الاختيار بين هذا الطرف أو ذاك: إما المحاكاة وإما البحث، وإما معايير بلاغة القدماء أو التقنيات الجديدة للنقد الأدبي، إما السرد المصقول وإما جمع القديم وتصنيفه.

كان ريتشارد بينتلي بالنسبة لسويفت الداعية الرئيس لنقد تصنيف كهذا، ولهذا صار الهدف الرئيس للسخرية. وكشخصية في «معركة الكتب»، أذل بينتلي نفسه في المعركة الأولى على قمة جبل بارناسوس. وحاول أمين المكتبة الآن أن ينتقم واضعًا الأعداء القدامى في جميع «الشقق الأجمل» للمكتبة، بينما قام بدفن القدماء و«مناصريهم» في الزوايا المظلمة، مهددًا أنه «لدى أدنى قدر من الاستياء»، فإنها «ستُرمى من الباب». لكن أمين الكتب لم يستطع أن يحفظ كتبه مباشرة، ذلك أنه حدثت «فوضى غريبة في المكان بين الكتب كلها في المكتبة». واختلفت الآراء حول سبب الفوضى، فقال البعض: إن «كمية كبيرة من الغبار المعرفي نفختها ريح ضارة عن رف الحديثين إلى عيني الأمين»، وكانت مسؤولة عن ذلك. فيما قال آخرون: إن بينتلي حاول «أن يخرج الديدان من رجال المدرسة»- أن ينتقد ويقارن بين أعمال الأرسطيين القروسطيين - لكن ديدان الكتب نقلت إليه العدوى، «بالتالي، سقط بعضها على طحاله، وبعضها تسلق إلى رأسه، ما سبب اضطرابًا كبيرًا في الاثنين».

ما يزال آخرون يرون أن المسكين أمضى وقتًا طويلًا في الظلام مع كتبه، و«لم يعد يعرف أين تتوضع، بالتالي، أخطأ في عملية استبدال الكتب ووضع ديكارت إلى جانب أرسطو، وتوضع المسكين

أفلاطون بين هوبز والمعلمين السبعة الحكماء، وحشر فيرجيل بين درايدن وويذرس في الجانب الآخر».

ربما قدّم سويفت بتصويره الكاريكاتيري الساخر لبينتلي المثال الأولي عن تلك العبارة الأدبية المألوفة: أمين المكتبة الخرف.

والواقع، إن الصورة الأيقونية الحديثة الكاملة للمكتبة حاضرة هنا، وجميع التصورات النمطية مستمرَّة في الحركة: المثقف المتحذلق، والعاجز والمتسخ بالغبار، تستهلكه ديدان الكتب ويستهلكها هو بدوره، فيما يبدو ضائعًا في المكتبة الواسعة. وتبدو المكتبة نفسها مكانًا مظلمًا، «زوايا معتمة» مليئة بظلال يمكن أن تضيع بينها الكتب والقراء على حدٍّ سواء. إنها نوع من المطهر الأدبي الذي يحتوي نصوصًا من الأنواع كلها تجازف بتشويش هويتها. وهي مكان ركود وفوضى كريهة، ومكان للسخرية والشغب، والمعارك الفكرية والمسامرات الأدبية. بتقديمها مشاهد صغيرة متنوعة شاملة، تصبح مكتبة سويفت شواطئ وسهول إيليوم هوميروس بعد أن يتم تحويلها إلى مفتاح سخرية تام. وتتغير فيها وسائل النقل من رعب أخلاقي إلى ابتهاج بميزان ثانوي يتدرج من الضجر والاستياء إلى غرور متحذلق. يستطرد سويفت بشكلٍ متلون في أنحاء عمله، مركزًا في مناوشة بعد أخرى، ودائمًا يغير نقطته المحورية.

تشكل المكتبة التي يسخر منها سويفت النموذج البدئي للمكتبة الشاملة، ليس بالمعنى الرقمي فحسب. ذلك أن سويفت تخيل مكتبة تعج بكتب أعدادها أعلى بكثير مما يوجد عادة في مكتبات ذلك الوقت وأغنى في الروح أيضًا، ذلك أنَّ الصراع بين الكتب هو ما

يحدث في المكتبة الشاملة.

لا تُقدم المكتبة الخيارات للقارئ، بل عليه أن يقوم بالاختيار، ويجب أن تتنافس الكتب؛ كي تلفت انتباهه. اقترب سويفت في هذا إلى آمال خصمه بينتلي الحقيقية أكثر مما كان يدرك في ذلك الوقت.

بنى جوناثان سويفت في أثناء حياته الطويلة مكتبة خاصَّة به مثيرة للإعجاب، وكان يشبه كثيرًا سادة آخرين متعلمين من القرنين السابع عشر والثامن عشر في هذا المجال.

بنى إدوارد جيبون، مثلًا، مكتبة ضخمة لنفسه في لوزان، وكانت مكتبة جيبون عاملة بالطبع، واعتمد عليها في أثناء تأليف كتابه: «اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» الذي استغرق وقتًا طويلًا. وتابع بشكل وثيق مسار محتوياتها، وفي الحقيقة وضع أحد أول الفهارس المصنوع من ظهر أوراق اللعب؛ كي يضمن الوصول السريع إلى الكتب كلها، وكانت مكتبة سويفت أيضًا مكتبة كاتب وباحث مجتهد ومقدسة. وقدم كتاب هارولد ويليامز «مكتبة العميد سويفت، مع صورة طبق الأصل لفهرس المبيعات الأصلي وقصة مخطوطتين بقوائم كتبه» صورة كاملة عن حالة كتب سويفت وتنظيمها بعد وفاته، وتكمن أهمية كتاب ويليامز في استكشافه للحد الذي من المحتمل أن سويفت ذهب إليه في استخدام بعض الكتب التي كان يملكها؛ كي يبدع مؤلفاته. كان أقل اهتمامًا بفكرة سويفت كصانع مكتبة. لكن إذا تبنينا هذا المنظار نستطيع، كما أعتقد، أن نكتشف شيئًا ما حيال الطرق التي تكونت بها المكتبات واستُخدمت.

يحتوي فهرس المبيعات مداخل إلى ٦٥٧ مجلدًا، بعضها مخطوطات. وكان بينها ٧٣ عليها نجوم، ما يعني أن تلك المجلدات تحتوي تعليقات توضيحية من سويفت. تحدث ويليامز عن مكتبة سويفت:

لا يتجاوز عدد الكتب اللاهوتية، سواء أكان هذا في اللاتينية أم اللغات الحديثة، ما يمكن توقعه لدى عالم باللاهوت الذي، في أقل تقدير، نادرًا ما كان يمتلك الذوق أو الميل الملائمين لمهنته. ما يزيد قليلًا عن مائة، أي: أقل من السدس كله، يمكن أن يحسب مع كتب تخدم دراسات رجل كنيسة التي إذا أخذنا بالحسبان موضة الزمن لا تشكل نسبة ضخمة.

هكذا نجد في مكتبة سويفت الخاصَّة مفارقة سخريته معكوسة، إذ على عكس مكتبة الكنيسة العادية - وعلى عكس مكتبة جون هارفارد البيوريتانية - احتوت مكتبة سويفت على عددٍ كبير من الكتب التي كانت نتاج المعرفة الحديثة، والواقع، إن سويفت، بالرغم من احتجاجه ضد انتحال المحدثين، جَمَع مكتبة كانت ثمرة التغيرات الثقافية التي جعلت الحديث ممكنًا. واصل ويليامز:

مثّل إبيفانيوس وتيرتوليان فقط الآباء الأوائل للكنيسة. وهذه إشارة إلى أن العميد كان راضيًا بالحصول على الكتب المستعارة في هذا الجزء من دراسته للاهوت. وظهر الأكويني وحده بين الكتاب المسيحيين القروسطيين. ومثّل علماء اللاهوت القارين كـ: الفن وميلانكثون، ومثّل الكتاب الفرنسيين باسكال وبوسيه، وكتاب ريتشارد سيمون «تاريخ نقدي للعهد القديم»، وهو الكتاب الذي

مُنعت طبعته الأولى في ١٦٧٨.

كان عدد قليل من المؤلفين اللاهوتيين الإنكليز المعاصرين. لكن ربما اشترى سويفت كتبهم من أجل الشَّكل؛ لأنه مهتم بها، إذ كما قال ويليامز: «لم يشر إلى أي منها (في فهرس المبيعات) على أن سويفت شرحه»، وتشكل هذه مع بعض الكتب الأخرى عن تاريخ الكنيسة مقتنيات سويفت في علم اللاهوت كلها. وكانت قائمة جرد مقتنيات سويفت، في المقابل، أكبر بكثير، وهذا ما يجب أن نتوقعه من رجل اهتم بالشؤون العامة مثله. وعكس رجحان هذه الأعمال مضمون العصر الأوغسطي.

أصاب ويليامز حين ذكر أنه «يتكرر وجود عنصر مصادفة في الطَّريقة التي انتُقيت بها الكتب»، وكان عدد كبير من الكتب في مكتبة سويفت هدايا، وبالرغم من ذلك أبدى حرصًا كبيرًا في صياغة مكتبته وبنائها ونظّمها قدر الإمكان؛ كي يولّد انطباعًا في الزائر يساعده في العثور على الكتب وقراءتها، وبحسب رسالة كتبها إلى أليكسندر بوب في نيسان/ أبريل ١٧٢٩، كانت الكتب المعروضة بشكل أكثر بروزًا، التي يقوم الزائر«برؤيتها على الفور»، حين «يدخل إلى حجرتي»، هي مجلدات الأوراق المطوية لجرينوفيوس وجرفيوس حول الأزمنة القديمة اليونانية والرومانية التي بلغ عددها واحدًا وثلاثين مجلدًا. كانت هذه الكتب الأغلى والأكثر تأثيرًا في الصعيد البصري في حجرة سويفت، ولهذا احتلت مكانًا مرموقًا، لكنها كانت مهمة أيضًا كونها كتبًا تتعلق بالحفريات الأثرية، بالتالي، ثمار المحدثين. وهكذا توقع سويفت بالفعل أن «تُقرأ» مكتبته

بطريقةٍ خاصَّة، مهما حدث اختلاف في طريقة قراءتها، كأي نص.

وضع منفذو وصية سويفت قائمة من كتبه في أثناء مرضه الأخير الطويل قدّمتْ صورة جميلة عن ترتيب المجلدات في مكتبته، ويتبع الفهرس الأرفف من اليسار إلى اليمين حول الغرفة، مرورًا بالصحائف (أكبر الكتب، كل صفحة تتألف من ورقة كاملة، بحجم الأطلس الحديث) وكتب قطع الربع (بحجم الموسوعة العادية) إلى رفين من كتب القطع الاثني عشر (أحد أصغر قطوع الكتب التي يتم فيها طي الأوراق اثنتي عشرة مرة على شكل الصفحة)، وكلها مرتب بحسب الحجم، ويسجّلُ فهرسُ مبيعات كتب سويفت الذي أُخرج بعد أن نُقلت الكتب من مكتب العمادة بعد وفاته، الكتبَ من حيث الحجم على نحو مشابه.

يذكّر هذا بفهرس مكتبة هارفارد وفهارس أخرى أيضًا. كانت حتى المكتبات الأضخم ما تزال متواضعة بما يكفي كي تسمح لأمناء المكتبات بمواصلة رصد جميع الكتب دون العودة إلى تقنيات الفهرسة المعقدة. كان المعيار ما يزال سليمًا، وتشكل الكتب الموجودة حتى في أكثر المكتبات غزارة، الشخصية أو العامة التابعة للمؤسسات، جزءًا من المجموعة المعترف بها من الأعمال الأفلاطونية المثالية. وحتى وإن كانت مكتبة سويفت تعكس النموذج القانوني، فقد عملت رفوفها من حيث الحجم على قَطْعها أيضًا، حيث تتعامل مع الأوراق الضخمة من الرسومات والدراسات الأثرية بِعَدِّها المحور البصري للمجموعة.

مهما كان ترتيبها، فإن هذا صحيح إلى حدٍّ كبير. وكانت مكتبة

سويفت في نهاية حياته مجموعة أكثر إغراء ومعتنى بها على نحو أفضل من أي مكتبة ملكية سبق أن وُجدت في وقت تأليفه لمقالة «معركة الكتب». وكما فعل في شرحه المبكر لفوضى بينتلي («كومة كبيرة من الغبار المعرفي»)، استخدم سويفت تعفن المجموعة الملكية وتآكلها في سخريته، مستغلًا صورة عنكبوت يسكن زاوية متسخة فيها بيت عنكبوت، المشهد الذي تحول على يد سويفت إلى حكاية خرافية من حكايات إيسوب، أعادت تمثيل الصراع بين القدماء والمحدثين على ميزان مجهري دقيق.

حين تقوم نحلة دائخة وثملة من الشمس بالتخبط داخلة من نافذة مفتوحة وتسقط في بيت عنكبوت وتخرب هندسته الفنية يحتج العنكبوت.

يرى العنكبوت نفسه كعصامي ومكتف ذاتيًّا في عكسه للحساسية الحديثة.

يغضب من النحلة: «بنيتُ هذه القلعة الضخمة (كي أبين تحسني في الرياضيات) كلها بيدي، والمواد مستخرجة من شخصي»، واتهم النحلة بأنها: «مشردة لا منزل أو موطن لها. وُلدت ولا ملك لها سوى جناحين وأنبوب للطنين». حتى أنَّ سويفت سمح للنحلة بأن تعكس عدم انتباه بينتلي إلى تفاصيل الجدل، كما أعتقد، فكما سقطت النحلة في بيت العنكبوت الخارجي، دخل تيمبل في نزاع حول أصالة إيسوب وفالاريس. درستْ النحلة بلاغته، على أي حال، وهي مستعدة لرد حاسم وذكي:

وصلت المسألة إلى الآتي: مَن الكائن الأنبل بين الاثنين؟ أهو

الذي يتغذى عن طريق تأمله البطيء في محيط تبلغ مساحته أربع بوصات وكبريائه المفرطة، وينجب نفسه، ويحول كل شيء إلى براز وسمّ، ولا ينتج أي شيء في النهاية، سوى بيت العنكبوت، أم ذلك الذي يتحرك في مدى كوني، ويقوم ببحث طويل، والكثير من الدراسة، وبالحكم الصحيح، ويميز بين الأمور، ويحضر للبيت العسل والشمع؟

عثر سويفت في عنكبوته على نموذج أصلي من الحماقة المعرفية مألوف لقرائه.

اقترح فرانسيس بيكون العنكبوت باعتبارهِ طوطمًا للفلسفة الافتراضية (على عكس التجريبيَّة) طالبًا ضرب بيوت عنكبوت التفكير المروع، واستخدم المفكرون التأمليون للقرن السابع عشر، بما فيهم نيوتن، رياضيات معقدة لحساب زمن المجيء الثاني، ما أرعب كثيرًا سويفت ورجال لاهوت آخرين من ذوي المعتقدات الأرثوذكسية. أخطأ العنكبوت في هذا الإطار من التفكير في «معركة الكتب» وفهم ارتعاشات وتآكلات الهندسة الضعيفة لبيت العنكبوت على أنها علامات نهاية الزمن. كانت «الأعداد اللانهائية للذباب» الذي علق في بيت العنكبوت، في حوالي ذلك، قراءً ساذجين لصحف ومجلات مقهى، مثل: «أثينيان ميركوري» التي عثرت تكهناتها الألفية على جمهور جاهز.

حين انتهى الصراع بين العنكبوت والنحلة، كان إيسوب - لا المؤلف القديم، بل الكتاب الذي نجا من أغلال المكتبة التي تغلفه؛

كي ينضم إلى زملائه القدامى في قتالهم – هو الذي علق بشكل ملائم على الجدل:

ابنِ مخططاتك بأي مهارة أو أسلوب تشاء، لكن إذا لم تكن المواد سوى التراب الذي يخرج من أحشائك (أحشاء الأدمغة الحديثة)، فإن الصرح سينتهي في النهاية إلى بيت عنكبوت، سيكون مصيره مثل مصير بيوت عناكب أخرى وهو أن: يُنسى، أو يهمل، أو يختفي في زاوية. بالنسبة لنا، نحن القدماء، نرضى بالنحلة؛ كي لا ندعي وجود أي شيء غير الجناحين وصوتنا، أي: طيراننا ولغتنا. وعوضًا عن التراب والسم، اخترنا بالأحرى أن نملأ خلايانا بالعسل والشمع، وهكذا نزود البشرية بالشيئين الأنبل اللذين هما الحلاوة والضوء.

سبّب بيت العنكبوت الذي نسجه الحديثون من قذاراتهم وأحشائهم لدى سويفت قرفًا من الأبعاد الكنسية، وبدأت هذه المعركة في بارناسوس، وقرر الأولمبيون الانخراط الآن بعد أن شاهدوا المعركة المدمرة للكتب من وكرهم المرتفع، وبدأ جوبيتر بقراءة كتاب المصير، وهو «ثلاثة مجلدات ضخمة بأوراق مطوية مشابكها من الفضة ومطلية بالذهب، أغلفتها جلد ديك سماوي، والورق كما هنا على الأرض يمكن أن يمر أيضًا على أنه رق».

يقرأ جوبيتر المحصلة الضرورية لصالح القدامى، ويرسل خدمه؛ كي يجعل هذا يحدث. أما موموس المنكوب، الإله الراعي للحديثين، فيطلب المساعدة من الإلهة نقد، وهي إلهة لها مظهر رهيب: «عيناها مدارتان نحو الداخل كما لو أنها تنظر إلى نفسها فحسب»، وتُرْضع

حشدًا كبيرًا من الوحوش من حلمتين تنتآن من طحالها الذي يزيد حجمه «بدلًا من أن تخففه الرضاعة». وحين يقول موموس: إنه لا شيء يجري على ما يرام بالنسبة للمحدثين، تستشيط آلهة النقد غضبًا وتزأر قائلة:

أنا من منح الحكمة للرضّع والبلهاء، وبمساعدتي يصبح الأطفال أكثر حكمة من آبائهم والشبان الأغنياء سياسيين، وفتيان المدرسة حكامًا للفلسفة. بمساعدتي يتجادل السفسطائيون ويستنتجون من أعماق الفلسفة. ويستطيع أذكياء المقهى بتحريض مني أن يصححوا أسلوب مؤلف ويكشفوا أخطاءه دون فهم مقطع واحد من مادته أو لغته. وبمساعدتي ينفق الشبان حكمتهم كما ينفقون ممتلكاتهم قبل أن تصل إلى أيديهم. أنا التي أزلت الذكاء والمعرفة من سيادتهم على الشعر، وقدمت نفسي بدلًا منهم، فكيف يتجاسر بضعة مدعين على معارضتي؟

كانت المعركة في الميدان حامية الوطيس.

ضرب بارايبلسوس أولًا من أجل المحدثين مسددًا إلى غالين.

ورد أرسطو بسهم موجه إلى الشيطان فرانسيس بيكون، لكنه أخطأ هدفه، وأصاب ديكارت، فترنح ساقطًا «إلى أن قام الموت كنجم له تأثير متفوق وشده إلى دوامته». وكانت هذه إشارة إلى نظريات ديكارت الكونية المشوشة. وفجأة ظهر هوميروس على حصان عظيم، وركب بين المحدثين، وصرع عددًا لا يُحصى من الشعراء الثانويين. وانطلق بعده فيرجيل إلى الأمام لابسًا درعًا و«ممتطيًا فرسًا رمادية مرقطة كان بطء خطوها ناجمًا عن همة ونشاط

عاليين». وكانت جميع حركات القدماء بلاغية وجمالية على نحو مهيب. وكان كلّ ارتعاش للحديثين غرائبيًّا وبغيضًا، ثم ما لبث أن ركض خصم ضخم متقدمًا إلى الأمام خارجًا من بين صفوف المحدثين مصدرًا صوت قعقعة عالية من درعه، وحين رفع قناعه للتفاوض تبين أنه كان درايدن. كان صغيرًا جدًا بالنسبة لدرعه، لا يكاد يبين فيه. طلب السلام مع فيرجيل وتبادلا الدرع، وهذا ما وافق عليه القدماء. «على أي حال، صار هذا الدرع المتلألِئ «الحديث»، لكنه كان أسوأ من درعه»، ذلك أنه وجد نفسه صغيرًا جدًّا فيه، «ثم وافقوا على تبادل الأحصنة، ولكن حين حان وقت المنافسة، كان درايدن خائفًا وعاجزًا عن امتطاء الفرس».

أحضر سويفت بينتلي المكروه إلى الميدان في النهاية، و«كان الشخص الأكثر تشوهًا بين جميع الحداثيين، وكان درعه مرقعًا بألف قطعة غير متَّسقة»، كما كانت معرفة بينتلي الحقيقيَّة، حسب نقاده. مسلحًا بمِدْرَسٍ في يد وإناء براز في الأخرى، وجد نفسه عُرضة لاستخفاف القادة الشديد. تقدم غير هيّاب إلى الأمام مع بطله المحبوب الشاب ووتون، ومعًا زحفًا خلف خطوط الأعداء، آملين أسر أحد القدماء الجرحى الفاقدين للوعي. عثر بينتلي على فالاريس وإيسوب وتسلل؛ كي يقضي عليهما، فاستدار البطلان وهما نائمان وأخافاه. أرضى نفسه في النهاية بسرقة درعيهما.

ثم حاول بينتلي تاليًا أن يشرب من نبع هيليكون - نبع ربات الإلهام- لكن أبولو تدخل ولم يسمح إلا للطين بأن يصل إلى شفتيه. تجسس ووتون عند النبع على البطلين، ولم يتعرف على أحدهما.

لا بد أن هذا البطل المجهول كان سويفت نفسه، وكان الثاني تيمبل الذي شرب من النبع في رشفات كبيرة.

حاول ووتون أن يوجه إليه ضربة من الخلف، لكنه أخطأ في التسديد؛ بسبب التدخل الفاشل لأمه النقد، والراعية موموس ولاحقه بطل تيمبل الخاص، الشاب الأصغر بويل. وبمساعدة من أثينا، سمّر كل من بينتلي وووتون برأس رمحه.

لم يُحسم الصراع بين القدماء والمحدثين كما في «معركة الكتب»، لكن حكاية سويفت قدمت «قصة حقيقية» عن شخصيات جسدت الحماس والمخاوف حيال المكتبة لأجيال قادمة.

إنَّ صورة القدماء بوصفها عصابة من الإخوة الداعمين لبعضهم في معركة أجينكور الخاصَّة بالفهارس، ووصول الطباعة كطوفان أو تيار، والحذلقة المراوغة لدودة الكتب، وغطرسة النقاد، هذه العبارات المجازية كلها وُضعت قيد الاستخدام في أزمنة لاحقة، وعُثر على مثال يشير إلى ذلك في «قابلية الأدب للتغير»، وهي سردية قصيرة ضمنها واشنطن إيرفينج في كتاب: «كراسة الرسم»، الذي ألفه بعد قرن تقريبًا. ما تزال مخاوف سويفت حية وجيدة كما يروي راوي إيرفينج ذلك أنه في أثناء زيارة إلى المكتبة البريطانية اكتشف كتابًا قديمًا وغاضبًا جدًّا، ربما كان متطوعًا من حملة سويفت يعيش تقاعدًا بائسًا.

تبدأ القصة بإيرفينج مرتديًا قناع مسافر منهك ويجد نفسه في أثناء زيارة إلى دير ويستمنستر المزدحم بحاجة إلى الطمأنينة والهدوء.

وكي يهرب من فتيان المدرسة الذين يشغلون المكان، طلب من الناظر أن يدخله إلى المكتبة.

كانت رحلتهما عبر الظلال حكاية مختصرة عن النزول إلى العالم السفلي، أو العودة إلى الرحم. قال إيرفينج: «أدخلني عبر منفذ غني بالمنحوتات المفتتة لعصور سابقة، إلى دهليز معتم»، فيه باب بقفل مزدوج، على «درج ضيق معتم» يقود في النهاية إلى المكتبة. من المثير للفضول كيف أن إيرفينج جمع بين الأسفل والأعلى، الجحيم والفردوس، ذلك أنه بالرغم من الدرج المؤدي إلى الأعلى الذي يجب أن يصعدا عليه، فإنَّ المكتبة نفسها بدت مُخبأة في الأعماق وفي الزوايا الخفية. «كانت مدفونة عميقًا داخل جدران الدير، ومفصولة عن صخب العالم». ووجد إيرفينج نفسه في عالم له حدود فيه كتب قديمة لم يلمسها أحد. اختار كتابًا له غلاف جلدي عن الأرفف، وأصيب بدوار وهو يفكر بالكتب المدفونة في سرداب للموتى، «متروكة كي تتعفن وتسودّ وتُنسى تحت غبار النسيان».

حين جلستُ وأنا أتمتم قليلًا وتدور في ذهني هذه الأفكار غير النافعة ورأسي يستند على يدي، نقرت باليد الأخرى على كتاب من قطع الربع، إلى أن فككت المشابك دون قصد، وحينها ولدهشتي أصدر الكتاب الصغير تثاؤبين أو ثلاثة، كشخص استيقظ من نوم عميق، ثم أصدر تنحنحًا غامضًا، وأخيرًا، بدأ بالتحدث.

كان المجلد الصغير شخصية ممتعة وظّفها إيرفينج قدر استطاعته، فقال: «كان صوته في البداية مبحوحًا ومتقطعًا، بما أنه ضايقه بيت عنكبوت نسجه عنكبوت واظب عليه»، وربما كان هذا مظهرًا بارزًا

لعنكبوت سويفت المواظب، وتنحنح الكتاب على الفور، وصفّى حنجرته وبرهن «بأنه مجلد صغير فصيح ومحادث كبير».

ناقش إيرفينج هو والكتاب حياة الأدب والتغيرات التي تمر بها اللغة والطبيعة المتقلقلة للشهرة الأدبية.

أُغلق المجلد الصغير بشكلٍ كامل لوقت طويل، وأدان بشكل مثير للريبة: «ما الذي تعنيه بالحفاظ على آلاف عدة مجلد منا مغلقة هنا، تراقبها مجموعة من الشماسين، مثل كثير من الجميلات في الحريم؛ كي ينظر إليها العميد بين فينة وأخرى فحسب؟»

حاول إيرفينج تهدئته:

أنت لا تعي كم أنت أحسن بكثير من معظم كتب جيلك. إن قلة قليلة من معاصريك قد تكون موجودة حاليًّا، وهؤلاء القلة يدينون بطول عمرهم لكونهم محشورين مثلك في مكتبات قديمة، التي، اسمحْ لي بالإضافة، عوضًا عن تشبيهها بالحريم، يمكن أن تقارنها بشكل أنسب وأكثر امتنانًا بتلك المستوصفات المرتبطة بالمؤسسات الدينية التي تفيد العجائز والعاجزين.

شكا إيرفينج أنه حتى المكتبة لا تستطيع أن تنقذ كتابها من غموض مرور الزمن:

حين أتأمل مكتبة مليئة بكتب جديدة، مطلية بماء الذهب ومجلدة على نحو فاخر أشعر بالميل للجلوس والبكاء، مثل: خشايار شاه الأول الجيد الذي حين أحصى جيشه المزين والمصطف في حشد عسكري بالغ الروعة، فكّر أنه بعد مائة سنة لن يبقى أحد من هذا الجيش حيًّا.

هكذا كانت كتب سويفت القديمة «مزينة» في روعة مأساوية. «ليأت بعدي الطوفان»، وفي هذا الندب نتعرف على قابلية الكتب للتلف بوصفها أشياء تُهدد دائمًا بالانتصار على خلود الكتاب بوصفهِ نموذجًا. لهذا انطلق إيرفينج إلى توسيع مشكلات المكتبة الحديثة بالمعنى التي وجدها به سويفت ملائمة.

لاحظ أن الكتب في الماضي كانت نادرة بما يكفي كي تبقى ثمينة حقًّا، وأضفى عليها النَّاس قيمة عالية، وحموها بالرغم من الصعوبات التي مروا فيها في أثناء صناعتها والحصول عليها. عقّب إيرفينج: «لكن اختراع الورق والمطبعة أنهى هذه القيود كلها، وكانت النتائج مروعة».

توسّع جدول الأدب إلى تيار توسّع بدوره إلى نهر توسّع بدوره إلى بحر، ومنذ بضعة قرون، كانت خمس أو ست مخطوطات تشكل مكتبة كبيرة، لكن ما الذي ستقوله عن مكتبات كالتي توجد حاليًّا، وتحتوي ثلاثمائة أو أربعمائة ألف مجلد، وفيها جحافل من المؤلفين المشغولين في الوقت ذاته، فيما المطبعة شغالة ونشاطها يتزايد على نحو مخيف لمضاعفة العدد أو رفعه أربعة أضعاف؟ سيفيض مخزون العالم من الكتب الجديدة، وفي الحال ستصبح معرفة عناوينها فقط وظيفة تستمر طوال الحياة.

إنَّ كثيرًا من الرجال الذين لديهم معلومات مقبولة في يومنا هذا لا يقرأون أي شيء سوى مراجعات الكتب. وفي المستقبل القريب لن يكون الرجل ذو الاطلاع الواسع أفضل قليلًا من مجرد فهرس متنقل.

لكن الكتاب الصغير وجد التمثيل المسرحي لإيرفينج غير قابل للتحمل. «قال الكتاب الصغير الذي من قطع الربع متثائبًا على نحو كئيب في وجهي: اعذرني على المقاطعة، لكنني أدرك أنك ميّال إلى النثر».

كان سويفت أيضًا «ميّالًا إلى النثر»، فقد ظهر شكل المكتبة الشاملة في خياله قبل الأوان، وكان عليه أن يبتكره قبل أن يستطيع سويفت السخرية منه. تضخمت المكتبات بسرعة. وعثرت عشرات الآلاف من الكتب الحديثة في الحال على أمكنتها إلى جانب الكتب القديمة على الأرفف، وانضم إليها بإلحاح مدّ متقدم من مطابع تعمل على مدار الساعة، وغرق حطام ودمار المكتبة كساحة وغى في المد المرتفع للمكتبة الشاملة، وتوقع سويفت بحس الفكاهة الغني لديه القلق الذي عبّر عنه ماثيو آرنولد في قصيدته التي نظمها في ١٨٨٥ بعنوان: «شاطئ دوفر» التي فيها «تقطعت بنا السبل كما لو في سهل مظلم، واجتاحتنا إنذارات مشوشة من الصراع والطيران، حيث كانت الجيوش الجاهلة تتصادم في الليل»، واختفى «بحر الإيمان» اللامع في النهاية من ذلك السهل، كما قال آرنولد في بداية القصيدة، ب «بزئير منسحب كئيب وطويل». عاودت بارناسوس، على أي حال، الظهور دائمًا كجزيرة ولدت من جديد، أفالون أو أطلنتس، قابلة للتمييز إلى الأبد في الضباب.

واصل ريتشارد بينتلي بدوره الدخول في مشاكل مع المكتبات، وبعد وقتٍ طويل من فشل القدماء والمحدثين، عيّن ابن عمه الشاب توماس بينتلي أمين مكتبة كلية ترينيتي في كامبريدج، واتبع أمين

المكتبة الشاب بإلحاح من ريتشارد طريق شخص مهني، وحصل على شهادة دكتوراه، وقام برحلات طويلة إلى القارة بحثًا عن كتب جديدة للمكتبة.

لم يوافق مسؤولو الكلية على أنشطته، فقد وهبَ المكتبة السيد إدوارد ستانهوب الذي كانت أفكاره الخاصَّة عن أمانة المكتبة أكثر تواضعًا من أفكار آل بينتلي، وفي ١٧٢٨ جرت محاولة لإقالة بينتلي الشاب على أساس أن غيابه الطويل ـ دارسًا ومقتنيًا للكتب في روما وأمكنة أخرى، بين أمور أخرى ـ يجرّده من أهليته للمنصب.

ركب ريتشارد بينتلي منطلقًا للدفاع عن ابن أخيه، بطريقته الآملة الواثقة من النجاح، وأقرَّ في رسالة أن «أمين المكتبة لم يتقيد بالشروط كلها المُعبَّر عنها في وصية السيد إدوارد ويل» التي فرضت تعريفًا دقيقًا لدور أمين المكتبة. وسرد بينتلي شروط السير إدوارد مسلطًا الضوء على الحالة المؤسفة لأمانة المكتبة في القرن الثامن عشر: يجب ألا يمارس أمين المكتبة التَّعليم أو يتولى منصبًا في الجامعة، ويجب ألا يغيب عن مكان تعيينه في المكتبة أكثر من أربعين يومًا في السنة، ولا يستطيع الحصول على شهادة فوق شهادة الماجستير في الآداب، وعليه أن يراقب جميع قرَّاء المكتبة، وألا يترك أحدًا منهم يغيب عن بصره. (قال بينتلي: «إنها عبودية لا يتحملها شخص لديه شهادة ماجستير في الآداب الآن»). لا يسمح له في النهاية بإقامة خاصَّة، لكن يجب أن يُسمح لباحث أو طالب بأن يسكن معه. اختتم بينتلي بعرض: «سيدرك سموّكم عن طريق هذه الأوامر أنَّ السير إدوارد كانت لديه فكرة متدنية عن أمين مكتبته».

بتشجيعه لابن عمه الشَّاب؛ كي لا يعمل موظّفًا، بل باحثًا ومهنيًّا، فقد صقل بينتلي مرة أخرى رؤية للمكتبة لا تتماشى مع عصره بشكلٍ كامل. آمن بقوة أن عمل العثور على مجموعة من الكتب الخاصَّة بالأبحاث والحفاظ عليها وتنظيمها جوهري للمعرفة الحديثة، وأن حفظ المكتبات يجب أن يُعهد به إلى أشخاص يتمتعون بتطور فكري قوي وغير معرقل. غير أنَّ الرأي السائد كان مختلفًا. فالسيد إدوارد ستاندهوب الذي وهب بكرم منه لكلية ترينيتي مكتبة رائعة شعر على ما يبدو أنَّ كل ما كانت تحتاج إليه كتبه هو أمين مكتبة لحفظها. انتصرت قواعده، وقامت اللجنة بمعاقبة بينتلي، وأجبرت ابن عمه الشاب توماس على الاستقالة من منصبه، إلَّا أنَّ رؤية آل بينتلي للمكتبة ستتأكد صحتها، ولو بشكل متقطع ومتقلقل، في الأعوام القادمة.

الفصل الخامس
كتب للجميع

كان من المقرر أن يكون عام ١٨٩١ عام انتصاره، لكن هذا العام بالنسبة إلى إينوك سواميس، أشد رعبًا من أي وقت مضى.

بكتاب جديد لَمَّا يُنشر بعد، وبعد أن نفد كتابه الأول، نظر إينوك مترنِّحًا من شراب الأفسنتين إلى لندن تترنح من الخونة الطاعنين في الظهر والآذان المسدودة والأغبياء. وبعد أن شعر بنبذ أصدقائه لعمله وشخصه، توصّل إلى نتيجة لا مفر منها بأن العالم الحالي لم يعد يفتنه، فعقد آماله على المستقبل، حيث سيلمع اسمه كأحد الشعراء الرؤيويين للقرن التاسع عشر كما كان متأكدًا، وسيبز بوهجه الأضواء الهزيلة للمتكلفين المعاصرين.

كان جائعًا إلى المستقبل، لهذا أبرم اتفاقية يائسة في النهاية، صفقة مع الشيطان: أبدية في الجحيم مقابل فرصة لزيارة غرفة القراءة الدائرية في المكتبة البريطانية بعد مائة سنة؛ كي يعثر على كتبه في المجموعة، ويرى اسمه مكللًا بالغار، وكي يوقّع على عقد الاتفاقية، دعا الشيطان إلى الغداء في مقهى في لندن، وأحضر شاهدًا، كان صديقه الأخير كاتب مقالات صحافية يُدعى: «ماكس».

هرعَ الصحافي للدفاع عن صديقه، ولكن قبل أن يتمكن من

مناقشة الأمر مع الشيطان نفسه (وهو عفريت خامل مزيّت ومرهق أكثر من كونه عفريتًا بقرنين)، اختفى صديقه سواميس حتى دون نفخة من الكبريت.

انتظر الصحافي عودة صديقه شاعرًا بالمقت من نتائج رحلته إلى المستقبل، وحين عاود سواميس الظهور في النهاية، فزعًا ومحبطًا، عرف الصحافي الحقيقة قبل أن يُعبر عنها: لم يعثر سواميس على اسمه بين المؤلفين المسجلين في طبعة ١٩٩١ من فهرس المكتبة البريطانية.

ما كان أسوأ من ذلك هو أن طلب سواميس من معاون أمين المكتبة يائسًا نسخة من كتاب جيد حول الأدب الإنكليزي في القرن التاسع عشر، ونجح في العثور على اسمه في الفهرس، وشعر بمتعة آنية، إلا أنه اكتشف بعد أن قلب إلى الصفحة أنه سُجل كشخصية ثانوية في قصة قصيرة ألّفها صديقه الصحافي. حزينًا، أراح الكاتب صديقه، لكن فقط لمدة قصيرة، بينما انطلق الشيطان في طرفة عين نحو الطاولة لزهق روح سواميس.

هكذا جرت حكاية إينوك سواميس المؤسفة كما رواها ماكس بيربوهم في مجموعته القصصية «سبعة رجال».

كتبَ بيربوهم القصة في أوائل القرن العشرين، وكانت مكتبته البريطانية المستقبلية المتخيلة تختلف قليلًا عن تلك التي عرفها بنفسه. بدا النَّاس كلهم متشابهين، بالطبع، فهذا هو المستقبل في النهاية: رجال صلعٌ يرتدون بدلات رمادية من النسيج الصوفي تعكس ذوقًا، ويكتبون نسخة بغيضة مبسطة صوتيًّا من الإنكليزية، لكن المكتبة نفسها ما تزال غرفة القراءة المستديرة في القرن التاسع

عشر، حيث تتوضع مجلدات الفهرس حارسة في صفوفها المرتبة على المكتب الكبير في وسط الغرفة. ما يزال القراء في مكتبة بيربوهم المستقبلية يتصفحون تلك المجلدات الثقيلة على رفوفها بخبطة مدوية، يبحثون عن النصوص التي يريدونها بين صفحات الفهرس التي لا نهاية لها، يملؤون أوراق إعارة صغيرة، ويجلسون على مقاعد مُدفَّأة؛ كي ينتظروا وصول كتبهم. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت قصة بيربوهم بالرغم من ذكائها وجدتها محافظة من حيث المضمون حين تعلق الأمر بالحاجة إلى - وحتى بإمكانية - التغيير في المكتبة.

ما هو مذهل الآن هو أن بيربوهم كان مصيبًا إلى حدٍّ ما.

كان القراء في ١٩٩١ ما يزالون يقرأون المجلدات الكثيرة للفهرس المطبوع، ويملؤون أوراق الإعارة بكتابة عادية.

تغيرت المكتبة إلى حدٍّ ما ظاهريًّا بين منعطف القرن واليوم الذي قام به شاعر بيربوهم الخيالي بزيارته في ١٩٩١. وبدا أن التغيرات - المستقبل كله - حصلت في العقد الذي تلا ١٩٩١. أكيد أن الكثير قد تغير في المكتبة البريطانية: انتقلت من المتحف البريطاني إلى مجمع جديد واسع في أيوستون رود، وغيّر فهرسها الذي على الإنترنت جوهريًّا الطَّريقة التي يحصل فيها القراء على الكتب، ويستخدمونها كما حصل في المكتبات الكبيرة والصغيرة في أنحاء العالم كافة، ولكن بالرغم من التغييرات في المكتبة ودمقرطتها، بقيت مكانًا رقميًّا. ذلك أنَّ التضمين في المكتبة ما يزال يمثل علامة الحياة الأدبية بالنسبة لنا بقدر ما كان الأمر بالنسبة لسواميس.

تغيرت المكتبات كثيرًا على الصعيد الداخلي في ١٨٩١، وتواصل هذا طوال القرن التاسع عشر، بطرق جعلت آمال سواميس دون كيشوتية. ذلك أن المكتبة امتلأت. وفي نهاية القرن التاسع عشر غصّتْ بالكتب، وصار من السهل التفكير بأن الجميع يمكن أن يعثروا على كتاب خاص بهم على رفوفها.

كان بوسع جوناثان سويفت أن يتخيل المكتبة في القرن السابق كخشبة مسرح يقف عليها عدد قليل من الشخصيات المسرحية الذين كانت أسماؤهم تحظى بأهمية كبيرة، وكانت المكتبة آنذاك نوعًا من الأبرشية التي تحتوي بضعة نصوص نخبوية تسير على مدار الساعة، وتهز مباخرها وتنشد في تراتيل محادثة العصور، لكن مجرد انتشار الكتب في القرن التاسع عشر حوّل المكتبةَ نوعًا وعددًا من معبدٍ إلى سوق، ومن معيار إلى وفرة. وجعل هذا من بحث سواميس أكثر مأساوية، ذلك أن المكتبة التي لم يعثر فيها على أثر لنفسه كانت نموذجًا للمجتمع الذي خدمته، ولم يكن غيابه من المكتبة ناجمًا عن فشله الأدبي بالمعنى التقليدي بقدر ما كان ناجمًا عن فقدان الهوية الفردية في عالم مديني يزداد تعقيده.

تطلّع أمناء المكتبة في القرن التاسع عشر إلى المستقبل كما فعل إينوك سواميس؛ كي يعالجوا هويتهم، وكانت تحفّز أمين المكتبة في السابق علاقته مع الكتب، وخاصَّة مع عدد قليل نسبيًّا من الكتب المنظمة وفق المعايير التي يستهلكها بصورة رئيسة قراء تجمعهم معها علاقة حميمة. وكان دور أمين المكتبة آنذاك وصائيًّا إلى حدٍّ كبير، فقد كان يحصي الكتب ويحضرها ويعيدها لاحقًا إلى الرفوف. لكن بعد

ازدهار المادة المطبوعة واستهلاكها المتزايد من جمهور القراء، بدأت علاقة أمين المكتبة مع القراء تخلف صلته بالكتب التي يتولى مسؤوليتها، وانتقلت الصورة الرئيسة لأمين المكتبة من وصي إلى راعٍ، وفي القرن التاسع عشر قدمت كلٌّ من الأدبيات المهنية والمطبعة الشعبية صورًا لأمناء مكتبة يكدحون؛ كي يشكّلوا أذواق رعاتهم، ويخرجوهم من مأزق القراءة الرخيصة والمبهرجة و«المحنكة للغاية» الموجودة في الروايات والصحف، ويدفعوهم كي يشكلوا رؤية معالجة للثقافة الأدبية الرفيعة.

تذكّرنا صور أمين المكتبة هذه ببروميثيوس العملاق الذي أهدى النَّار للبشرية. هناك أمران جديران بالتذكر عن بروميثيوس:

أولًا: حرّكتْه عاطفة واحدة هي الشفقة، وألهمت موهبته في النهاية عاطفة أخرى، ألا وهي الغطرسة في قلوب الكائنات البشرية، وكان العيبان المأساويان لدافع بروميثيوس القطبين العاطفيين لأمين المكتبة في القرن التاسع عشر أيضًا: الشفقة على المحطة الدنيا للقارئ، والغطرسة؛ نظرًا للإمكانيات التي تقدمها المكتبة لإصلاح الثقافة والمجتمع.

إنَّ الأمر الثاني الذي يجب تذكره حول الأسطورة هو عقاب بروميثيوس على انتهاكه لسلطة الآلهة، ذلك أن زيوس العملاق قيّده على صخرة تضربها الأمواج في البحر وأرسل العقبان؛ كي تأكل كبده الفاني إلى الأبد.

حين ظهر زيوس وزملاؤه الآلهة، وجد أمناء المكتبة أنفسهم على غرار العمالقة في كون متصدع، ولدت فيه قوى جديدة تقوم باللعب،

وكان الإهاب الفكري الذي جمعها في كل ثقافي واحد يُدعى: «الأدب» قد تمدد إلى نقطة التحطم مع ازدياد عدد الكتب، وكان أحد شعارات حركة المكتبات العامة التي اجتاحت أوروبا الغربية وأمريكا في القرن التاسع عشر: «كتاب لكل شخص»، لكن البحث عن تلك القصة الشخصية كان بمثابة المأزق الوجودي قبل وقت طويل من أن يصبح مسألة في علم المكتبات. عرفَ بيربوهم هذا، وعرف أيضًا ما الذي كان يفعله أولئك القراء الذين يرتدون البدلات الرسمية في المكتبة حين أزعجهم في ذلك اليوم الصيفي في ١٩٩١ ظهور شاعر له شعر فوضوي في نهاية القرن في وسطهم. كانوا، مثل المسكين إينوك، يبحثون عن أنفسهم.

حين افتُتحت مكتبة المتحف البريطاني في ١٧٥٣ فكر بعض البريطانيين بالذهاب إليها للبحث عن كتابهم الخاص. لو أنهم حاولوا فعل ذلك لشعر معظمهم بخيبة أمل.

كان الهدف منها هو أن تكون مكتبة بريطانيا الوطنية، إلا أنها كانت متواضعة بحسب معايير مكتبات أخرى مشابهة في أنحاء أوروبا، وكانت تحتوي واحدًا وخمسين ألف كتاب، إلا أن العدد انحدر في نهاية القرن الثامن عشر في الحقيقة إلى ثمانية وأربعين ألفًا تقريبًا، وحدث هذا لأن مكتبة المتحف احتوت كثيرًا من المادة المنسوخة التي باعها أمناء المكتبة باذلين جهدًا كبيرًا، أو منحوها بقدر ما استطاعوا عمليًّا، ثم صار جمع الكتب موضة، وكان النَّاس الذين يحبون الموضة يميلون إلى شراء الكتب التي صارت موضة، واعتمدت المكتبة الجديدة على مجموعات متميزة من هذا القبيل، إما

موهوبة، أو مشتراة بتمويل هزيل من المتحف، لبناء مجموعتها من الكتب. وجاءت المجموعة الأولى التي اشتراها المتحف من رئيس الجمعية الملكية السيد هانز سلون الذي اشتراها بمبلغ كبير بلغ عشرين ألف جنيه (مليونان بحسابات اليوم تقريبًا). وحاولت المكتبة أن تطور نفسها وتتحرر من الاقتناء الفقير والمحدود عن طريق رعاية يانصيب، إلا أن الفساد أدى إلى النهاية الحتمية لليانصيب، وأُجبرت المكتبة على الاعتماد على نزوات مجلس النواب؛ كي تبقي نفسها شغالة.

نمت المكتبة البريطانية أيضًا نتيجة دورها كسجل للحقوق، وكان هذا يعني أن أي كتاب يُنشر في بريطانيا يجب أن توضع منه نسخة على رفوفها، ولعبت المكتبة الملكية هذا الدور قبل ذلك بوقتٍ طويل، بالرغم من أن الناشرين كانوا يودعون كتبهم الصادرة على نحو متقطع فحسب، كما شكا ريتشارد بينتلي في أواخر القرن السابع عشر. بعد مائة عام، صارت بريطانيا تتجه نحو الداخل في إحساسها بالاختلاف عن أمم أخرى في أوروبا وتوسّع آمالها وقوتها كإمبراطورية، وكانت الحاجة لتعريف الأدب القومي قد شُعر بها بقوة، وكانت لدى فرنسا أيضًا مكتبة حقوق تأليف ونشر خاصَّة بها، وهي المكتبة الوطنية التي تضخمت مجموعاتها في نهاية القرن الثامن عشر إلى أكثر من ثلاثمائة ألف كتاب، بفضل الاستيلاء على مكتبات الأرستقراطيين ورجال الدين في أعقاب ثورة ١٧٩٣. وفي أثناء القرن التاسع عشر، لحقت المكتبة البريطانية بالركب، لكنها لم تتجاوز قط نظيرتها الفرنسية، ذلك أن الجمال القاري لخزائن المكتبة

الوطنية المرتفعة والحديدية شكّل نقيضًا للتقشف الكلاسيكي لغرفة القراءة المستديرة.

بدأت مكتبة بريطانيا الوطنية بالنمو، وفي الحقيقة بدأت تتضخم في العقود القليلة الأولى للقرن التاسع عشر. وفي ١٨٣٣، كان فيها ربع مليون كتاب تقريبًا، وعنى هذا أنَّ الكتب ازدادت خمسة أضعاف. وفي ١٨١١، طُبعت صحيفة «التايمز» اللندنية في مطابع تعمل على البخار، وفي عشرينيات القرن التاسع عشر كان استخدام البخار لتشغيل المطابع شائعًا، واجتمع عدد من التقنيات التي سرّعتْ إنتاج الكتب ومطبوعات أخرى، وتوقفت الطباعة التي تغيرت قليلًا بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر عن كونها حرفة ماهرة على الفور، وصار الكتاب يُنتج بكميات ضخمة، وكانت هذه سمة مميزة للثورة الصناعية.

ظهرت إحدى الصور الأكثر جمالًا لإنتاج الكتب بكميات كبيرة في القرن التاسع عشر في سلسلة الكتب القصصية للإخوة هاربر التي أوصلت أساليب المعلومات المفيدة لقرائها الذين كان معظمهم من الشباب. وتناولت السلسلة آلية إنتاجها في كتاب جاكوب أبوت «مؤسسة هاربر، أو كيف صُنعت كتب القصص» (١٨٥٥). قدم أبوت للقارئ رحلة في مطبعة الإخوة هاربر الكبيرة في شارع كليف وحي فرانكلين في نيويورك، المطبعة التي كانت في ذلك الوقت تنتج كتبًا «بمئات الآلاف».

كان هناك نقش محوري في كتاب آبوت يصور الفعالية التي صارت مثالية والتنسيق وآلية عملية الطباعة في منتصف القرن،

وبالرغم من أن أبوت ركز على سحر الآلة - أنابيب البخار، ونقل القوة من طريق ألواح وأحزمة، والرقص الصاخب للمطابع - أظهرت خطته المهيبة في بناء شارع كليف في منتصف القرن أن قوة العمل، النَّاس قبل كل شيء آخر - النَّاس الذين يفصلهم الجندر والمهمة وينظمهم ذلك التجلي العملاق للحداثة، الساعة المعلقة على الجدار - هم الذين حولوا الكتاب من كونه شيئًا فنيًّا إلى سلعة قابل للتبادل.

تؤطر سلسلة أبوت من النقوش عوارض حديدية متشابكة تصنع الأرضيات، ذلك أن الحديد المشغول - نظريًّا، على الأقل - حرر العمال من الخوف من النَّار، وسمح لهم أن يستعملوا إضاءة الغاز؛ كي يشغلوا الأجهزة ذات الحرارة العالية بأمان.

حرّر هذا الإنتاج من قيود الإضاءة الطبيعية التي حصرت الطباعة سابقًا في إنتاج على الوزن الصغير يتم في ساعات ضوء النهار.

بدأ القرن التاسع عشر باستخدام الحديد المصبوب؛ كي يؤطر أمكنة الترف، مثل: قصر الكريستال في لندن كما قال فالتر بنيامين في كتابه «مشروع الممرات».

وأظهرت المكتبة الوطنية في فرنسا أيضًا هيكلها العظمي الحديدي الذي حمل الخزائن الكبيرة لغرفة القراءة نحو السماء، وقامت ممارسات التأطير الحديدية نفسها فيما بعد بتحويل رفوف المكتبات الكبيرة أيضًا ومكّنتها من أن تحمل المزيد من الكتب، ونظّمتْها على نحو أفضل، وجعلتْها أكثر أمانًا من النَّار، ولم يكن هذا قابلًا للتصور في العقود السابقة، وكانت أهمية الحديد لهندسة عمارة القرن التاسع

عشر عظيمة، بحيث إن أبوت استطرد فصلًا كاملًا؛ كي يشرح صناعة العوارض الحديدية واستخدامها في البناء.

(غرفة القراءة القديمة في المكتبة الوطنية، تصميم هنري لابروست بنيت في ١٨٦٢. تعبّر قبابها الشبكية وأعمدتها المحلقة عن قوة البناء الحديدي ورفعته في القرن التاسع عشر. تظهر الصورة في كتاب دايان آسيو غريليتشيز من صورها الخاصَّة بالمكتبة، مكتبة: الدراما التي في الداخل (واشنطن العاصمة، مكتبة الكونغرس ١٩٩٦).

كانت مراحل عملية الطباعة في صورة مصنع الإخوة هاربر مؤطرة بشبكةٍ من العوارض الحديدية التي كانت أكثر بلادة من الخزائن الحديدية المحلقة للمكتبة الوطنية، لكنها لا تقل عنها إعجازًا، وتحتوي الغرفة ذات العجلة الكبيرة في الزاوية السفلى اليسارية من الصورة «المحرك والآلية التي تُزوِّد القوة المتحركة لعملية المؤسسة كلها»، والتي «يتم إيصالها إلى الطوابق المختلفة عن طريق نظام من: المحاور، والبكرات، والأحزمة».

وفي مكانٍ آخر في هذا المستوى الأول، تقوم المطابع الهيدروليكية

ببسط الأوراق وتنعيمها، ويرطّب العمال الصفحات؛ كي تتلقى الحبر.

يوجد باب في أقصى اليمين يؤدي إلى أقبية تُخزن فيها ألواح الطباعة، وهذه الألواح عبارة عن ألواح كهربائية تم إنشاؤها بوساطة كتل مكهربة من النوع اليدوي لتشكيل طبقة من النحاس على أسطحها. وتحت المدخل المقوس الذي يصل إليه سائق، من المحتمل أنه يوصل حملًا جديدًا من الورق، هناك رجلان يضيئان غرفة من الخزائن بمصباحيهما، وكانت الخزانة نوعًا من المكتبة حيث الألواح، التي هي الكتب الحديثة النشأة، تستريح كآنية أجنة في مختبر عالم مجنون.

يقول لنا أبوت: إنَّ تراكم الألواح الكهربائية كبير جدًّا إلى درجة أن مخازن المجلة وحدها تقترب بسرعة من العشرة آلاف، وأن هناك لوحًا واحدًا لكل صفحة من مئات المجلدات العديدة التي تنشرها الدار، ما يشكل من خمسين إلى سبعين طنًّا إجمالًا. ويضيف: إن هذا الجرد يزداد في مكانٍ آخر مائتي لوح يوميًّا. لكن أبوت لديه تأملات ميتافيزيقية حول هذه الكميات من الألواح وهو راضٍ بالقول: «حين يقتضي الأمر طبعة جديدة من أي كتاب يتم إخراج الألواح من الخزائن وتُوضع على المطابع، وبعد أن يتم العمل تُعاد إلى الخزائن».

يضم المستوى التالي من البناء «غرفة المطبعة الكبيرة». لاحظ أبوت أن كل مطبعة تزن طنين، ما جعل ترتيبها من جهة دعم الأعمدة والأرضية جوهريًّا. وتجري فوق المطابع سلسلة من

الأحزمة موصولة بفتحة، تنقل الطاقة الكهربائية لكل مطبعة من الآلة البخارية في أحشاء البناء، ثم يصف أبوت هبة النشاط التي تجري في غرفة المطبعة:

هناك فتاة تشرف على كل مطبعة واجبها تغذيتها بالورق، وتضع ورقة في كل مرة. يُخرج الورقة بعد أن تُطبع ما يدعى بـ: «الذبابة» التي هي إطار خشبي خفيف، كيد بعدد من الأصابع النحيلة، ترفع الورقة بعد أن يُطبع عليها، وترميها فوق الكومة المتشكلة من قبل تلك التي طُبعت من قبل. تمكن رؤية هذه الذبابة بشكلٍ واضح جدًّا وهي تنطلق وراء ورقة أخرى في الطرف الأيمن من الغرفة، وفي مطابع أخرى على طول الخط نشاهدها في وضعيات مختلفة وهي تخرج الورقة المطبوعة.

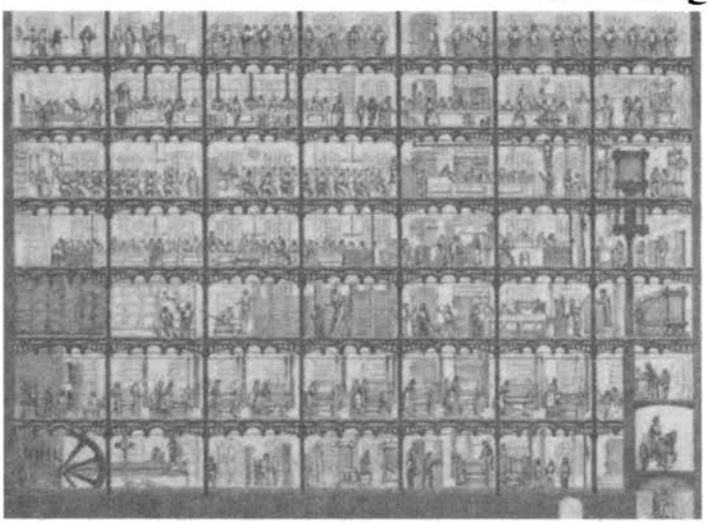

(رسم بياني لمطبعة الإخوة هاربر من كتاب جاكوب أبوت «مؤسسة هاربر» (١٨٥٥). مكتبة هوتون بي ٥٩٤٠. ١٠. حصلنا على الإذن من مكتبة هوتون، جامعة هارفارد).

تستطيع هذه الآلات بالرغم من حجمها الضخم أن تُخرج الأوراق بأصابعها الآلية الحساسة بسرعة.

عقّب أبوت: «تسرّ الزوار دائمًا على نحو خاص الأفعال التي تشبه الحياة للأصابع الحديدية للمطابع». وأضاف: إن «هناك شيئًا جليلًا وساميًا تقريبًا في الكرامة الهادئة والثابتة التي تواصل بها الآلات الثقيلة كدحها الذي لا يتوقف».

تُكدس الكتب وتخاط وتوضع على الأرض في أمكنة أخرى في أنحاء البناء، وتُضغط كي توجد بشكل الحالي. يقول أبوت لقرائه: إنه يتم استخدام ما لا يقل عن ٢٥ آلة منفصلة لضغط الكتب إلى شكلها الجاهز للترفيف، ويحتوي الطابق العلوي غرفة التنضيد، حيث يملأ المنضدون مصفات تنضيدهم بأنواع الطباعة التي تقرأ بشكل عكسي، وتحصل هذه العملية التي تُعد أساس حرفة الطابع في قمة البناء. فيما بعد، يصف أبوت مطولًا عمل منضّد الحروف الذي يشهد فيه زواجًا إعجازيًّا بين الاستقامة الحرفية والفعالية الصناعية:

لا ينظر في وجه اللوح؛ كي يرى الحرف حين يرفعه ويضعه في مصف الأحرف الطباعية، لكنه يسلم بذلك جدلًا: إذا أتى من المقصورة اليمينية يكون الحرف الصحيح.

لا وقت لديه كي يعطيه أكثر من نظرة سريعة؛ كي يرى أنه يضعه في مصف الحروف بشكل صحيح في مكانه الصحيح، وكي يضع الرجل ألف ems (وحدة قياس طباعية مكان حرف عادي) في ساعة، عليه أن يرفع ويثبت ثلاثة آلاف قطعة مختلفة من المعدن،

وحين نضع في الحسبان أن عليه أن يختار كل هذه القطع المنفصلة من أجزاء مختلفة، ليس أقل من ١٤٠ في المجمل نستشف أن حركاته يجب أن تكون نشيطة جدًا.

بعد أن تطبع الآلات التي تفتقر إلى الشعور بالكتاب ويُشحن من المصانع في رزم ضخمة وأكداس يتوقف عن كونه عملًا حرفيًّا.

تصير أصوله ضبابية، ويُجلَّد في عمليات كهربائية كالتي في مشغل فرانكشتاين، ويصبح الكتاب سلعة بسيطة، لكنه مثل معظم السلع الحديثة مبهم لمستخدمه الذي يجهل كيف يصنع واحدًا بنفسه، ولكن كما كشف أبوت، بالرغم من الطلاء الكهربائي وبراعة المطابع التي يشغلها البخار، إنَّ أصابع أصحاب الحرفة هي التي تطوّر الكتاب في عصر الآلة.

حين ازدهر الإنتاج الكمي للكتب ازدهر المتحف البريطاني، كما حدث للمكتبات الوطنية في أوروبا وأمريكا، وامتلأ فجأة بالكتب التي وصل عددها إلى مئات الآلاف، وكان الشخص غير المتوقع الذي ترأس الازدهار في مكتبة المتحف البريطاني، وأصبح أول أمين مكتبة بروميثيوسي في القرن التاسع عشر في أثناء العملية قد بدأ عمله كثوريٍّ إيطالي منفي.

كان محاميًا شابًّا صاعدًا يُدعى: «أنطونيو بانيزي» أثار عداء الحكومة الدوقية لمدينته الأصلية موردينا؛ بسبب ارتباطه بجمعيات سرية جمعت بين السياسة الليبرالية والصوفية شبه الماسونية، وبشرت جاذبية الأيديولوجيا التقدمية والمعرفة الباطنية بمهنة بازيني كأمين مكتبة، وحين أدانت المحاكم الصورية الرفاق بالخيانة هرب بانيزي

عبر جبال الألب، ونشر في ١٨٢٣ قصة المحاكمات التي أدت إلى صدور حكم بإعدامه غيابيًّا وفُرضت عليه حياة المنفى، فوصل بانيزي في النهاية إلى لندن مفلسًا وغير قادر على التحدث باللغة، ومقتته جماعة المهاجرين البوهيميين، لكنه شق طريقه في تعليم اللغة والتَّاريخ الإيطاليين، وحسّن التَّعليم لغته الإنكليزية، بينما جذبت سيرته الثورية رعاة أقوياء، وفي الحال بدأ يحاضر حول النَّهضة ناشرًا مقالات بحثية في مجلة «أدنبرا ريفيو». والتحق بهيئة تدريس جامعة لندن المؤسسة حديثًا، وبالرغم من أنَّ التعيين المهني دعم مكانة بانيزي في البلد الذي تبناه، إلا أنه لم يؤمّن له دخلًا ماديًّا كافيًا. كان راتب الأستاذ الجامعي يُدفع من الأجور التي يدفعها الطلاب، وفي جامعة لندن ذات العقلية العملية، كانت قلة من الطلاب لديها الوقت لحضور محاضرات حول عصر النَّهضة، وكان بانزيني سعيدًا بقبول توصية صديق في موقع جيد؛ كي يصبح معاون أمين مكتبة المتحف البريطاني في ١٨٣١، ووصل راتبه مقابل عمله «مدة خمسة أيام في الأسبوع»، إلى مائتي جنيه في السنة.

شرع بانيزي بسرعة بالعمل الذي سيؤكد أهميته في تاريخ المكتبة البريطانية: الفهرسة. تألّف فهرس المكتبة الأول الذي ظهر في ١٨١٠ من سبعة مجلدات. مثل جميع الكتالوجات في ذلك الوقت، كانت مجرد قائمة أبجدية للكتب الموجودة في المكتبة، والتي كانت بمثابة جرد للكتب الموجودة في عهدة أمناء المكتبات، وكانت المكتبات تغلق أبوابها أسابيع عدة كل سنة؛ كي تسمح لأمناء المكتبة بإجراء جرد للقائمة والتأكد من أن الكتب كلها موجودة على

الأرفف، وصُممت الفهارس من أجل أمور أخرى محدودة، فالقراء كانوا يأتون إلى المكتبة مستعدين عادة ويعرفون أي كتب يريدون وماذا يريدون أن يجدوا فيها.

بين الوقت الذي وُضعَ فيه ذلك الفهرس الأول ووصول بانيزي إلى المتحف البريطاني، ازداد عدد الكتب في مجموعاته بحسب الأهمية، وقام أمناء المكتبات بحشو الفهرس الأصلي الذي بلغ سبعة مجلدات بـ: إضافات، وخربشات، وملاحق، ونفخته أوراقه البينية إلى ٤٨ مجلدًا.

تبين أن هناك حاجة إلى فهرس جديد، وكان بانيزي أمين المكتبة الأكثر استعدادًا للقيام بالعمل، وصنع شهرته سابقًا داخل المكتبة عن طريق فهرسة مجموعة من المنشورات بالغة التعقيد تعود إلى زمن الحرب الأهلية البريطانية.

ما اكتشفه بانيزي من طريق عمله على النشرات الغامضة كان شبكة كثيفة من الصلات ولّدها المؤلفون والناشرون بين الأعمال المطبوعة. أجابت منشورات على أخرى التي ربما كانت إعادة طبع لمقالات ظهرت في المجلات والصحف، أو مقتطفات من كتب، ربما ظهرت على نحو متزامن في أشكال عدة، وفي طبعات مختلفة. وربما كانت معلومات جوهرية، مثل: اسم المؤلف، والناشر، وتاريخ ومكان الطباعة غير كاملة ومغلوطة أو مفقودة كلها. طوّر بانيزي سلسلة من القواعد التي أعادت إنتاج هذه العلاقات في الفهرس، وهكذا استطاع أمناء المكتبات - والقراء - تعقبها واتباعها. وساعد في تحويل فهرس المكتبة من جرد إلى أداة اكتشاف دون أن يقصد في

البداية. من المثير القول: إن اكتشافه التناص حتى بين الكتب الأكثر عادية تنبأ بصعود العالم المتواشج للعصر الرقمي. وربما كان من الأصح الإنباه إلى أن فهرس بانيزي بدا من منظار العالم السلكي كأنه بداية فهرس عالم الإنترنت.

استخدم بانيزي هذه الدروس من البداية بعد أن تولى مسؤولية قيادة محاولة وضع فهرس جديد. وعرفَ أن مراجعة جزئية لن تكفي، فاقترح إعادة فهرسة كاملة عوضًا عن ذلك لضمان التساوق الداخلي في الطبعة النهائية، وسافر إلى الخارج أيضًا؛ كي يتعلم كيف أعدت مكتبات أخرى فهارسها، وبالرغم من أن بانيزي كان ما يزال مُلاحَقًا، وثمة ثمن موضوع على رأسه، اختلف الآن كثيرًا عن أيام منفاه الأولى، حين كانت حكومة مودينا ترسل إليه بالبريد فواتير تكلفة إعدامه مقدمًا. وعاد من رحلته في أوروبا بمفهوم عميق عن العمل الذي يقوم به، وصرّح في تقرير يعود إلى ١٨٣٦ لأوصياء المتحف: «إن الهدف الرئيس الأول لفهرس هو الوصول السهل إلى الأعمال التي تشكل جزءًا من المجموعة». علاوة على ذلك، لم تكن هذه أداة لأمناء المكتبة، بل أداة «يمتلك العامة حقًّا كي يتوقعوا وجودها في مؤسسة كهذه»، وبالرغم من أنه بدا كأن بانيزي ابتعد عن جذوره الراديكالية في إيطاليا إلا أن عمله كان محفّزًا طوال الوقت بدافع ديمقراطي، كما أوضح في تقريره. وكتب للأوصياء: «أريد أن يمتلك الطالب الفقير الوسائل نفسها التي يمتلكها الرجل الغني في المملكة لإشباع فضوله المعرفي واتباع اهتماماته العقلانية، واستخدام المراجع نفسها؛ كي يتحقق من المسائل الأكثر تعقيدًا.

وأرى أن الحكومة مطالبة بأن تقدم له المساعدة الأكثر ليبرالية وغير المحدودة في هذا المجال»، واعتقد بانيزي أن فهرس المكتبة المتواضع يمكن أن يكون أكثر من قائمة، وأكثر حتى من دليل إلى المعرفة، يمكن أن يكون وسيلة لتحويل المجتمع نفسه.

عُيّن بانيزي قيّمًا للكتب المطبوعة في ١٨٣٧، ونشر بعد سبع سنوات المجلد الأول من الفهرس الذي يغطي حرف الألف.

لم يكن الجميع مسرورين، فقد انتقده السيد نيكولاس هاريس نيكولاس، وهو سيد مثقف له ولع بالتَّاريخ البحري، ونشر في صحيفة «ذ سبيكتاتور» سلسلة من المقالات شجب فيها الفهرس الجديد في ١٨٤٦ وقال عنه: «إنَّ أمين المكتبة النزوي غريب الأطوار، ويجب ألا يُسمح له بأن يعرقل تقدم فهرس عملي». علاوة على ذلك، ادَّعى أن فهرس بانيزي «تشكل على أساس خطة مبهمة وتطلب ٩١ قاعدة لبنائه، معظمها إن لم يكن كلها يجب أن يتم تذكره، قبل أن يدرك أي شخص تحت أي ترويسة يمكن أن يعثر حتى على الكتاب الأكثر عادية في لغتنا».

شعر نيكولاس بالغيرة من نفوذ بانيزي في المكتبة. وكشف كلامه الفظ حول «النزوات الغريبة» لأمين المكتبة شكوكه بأمين المكتبة المولود في إيطاليا.

تساءل في مكانٍ آخر إن كان بانيزي «ينوي أن يهين الحس العام للبلاد التي كان لها شرف تبنيه»، لكن نيكولاس كان قلقًا من مسائل لا تتعلق بنشر الفهرس المتأخر ووزنه الأثقل أو تعقيده النهائي: كان يخشى أن يدفع ذلكَ القارئ يقوم بالمزيد من العمل.

اختار بانيزي في وقتٍ مُبكر من المشروع أن يضيف «علامة تصنيف» لكلّ كتاب إلى المدخل في الفهرس، وكرقم تصنيفٍ في كتاب مكتبة حديثة تشيرُ علامةُ التصنيف الغامضة بدقة إلى المكان الذي يُعثر فيه على الكتاب على رفوف المكتبة (أو «المطبوعات؟»، كما كانت رفوف الكتب تُدعى على نحو شائع)، وعلى عكس أرقام الطلبات كانت علامة التصنيف تشير إلى الخطة المعرفية، بل إلى الموضع. وهي لم تكن تصنيفات، بل إحداثيات. وشرح بانيزي صيغة علامات التصنيف ومعانيها في رده على نيكولاس: إن علامة التصنيف «٤٠٠ أ مثلًا» تعني أنَّ الكتاب في المجموعة التي يحددها حرف الألف، وإذا كانت العلامة ٥٠٠ أ ٢، فإنَّ هذا يعني أن الكتاب يشغل المكان الثاني في تلك المجموعة، وإذا كان معلمًا ٥٠٠ أ/ ٦ ٢، فهذا يعني المادة السادسة في المجلد الثاني على الرف أ في المجموعة ٥٠٠. بتقديمه لشروح تعليمية كهذه، هدف بانيزي إلى أن يجعل المكتبة واضحة وسهلة للقراء، وأراد أن يستعيض عن ألغاز عملها بعمل متقن يزيد من استقلالية القارئ، وكان القارئ قبل ذلك يطلب كتابًا عن طريق عنوانه فقط، وكان أمين المكتبة يعثر على علامته في نسخته من الفهرس من أجل أن يحضره، وكان الكتاب يبدو سحريًّا كأنَّه قفز من جبين زيوس، إلَّا أنَّ الأمر يتطلب الآن من القراء أن يعرفوا علامة الكتاب، وأن يضمنوها في البطاقة التي يملؤونها ويقدمونها لأمناء المكتبة على المكتب من أجل أن يطلبوا الكتاب، وأدرك نيكولاس أنَّ القراء في بحثهم حتى عن الكتاب الأكثر عادية - مثلًا، كتاب هيوم «تاريخ إنكلترا» - عليهم أن

يعودوا إلى الفهرس؛ كي يعرفوا علامة الكتاب، فقال: «نعرف الإزعاج الذي يرافق هذا الالتزام الذي يشعر به كثير من رجال الأدب الذين يمتلك وقتهم قيمة بالنسبة لهم، فيجب ألا نتوقع من القارئ في مكتبة عامة أكثر من أن يحدد الكتاب الذي يريده من طريق عنوانه، وهذا يعود إلى أمين المكتبة»، وأحس نيكولاس أن بانيزي كان يحاول أن ينتج فهرسًا جديدًا فحسب، بل نوعًا جديدًا من القارئ أيضًا، أكثر استقلالية ومعرفة بأنظمة المكتبة، وتمنى ألا يلعب دورًا في الثورة.

كره نيكولاس فكرة تقليب صفحات أكثر من ٤٨ مجلدًا من الفهرس؛ من أجل العثور على كتبه، ونادرًا ما استطاع أن يتخيل كيف أن إصلاحات بانيزي ستغير جوهريًا فكرة الفهرس نفسها - ناهيك عن حجمه الكبير - في السنوات التالية. لو كان الشيطان قد أرسله مع إينوك سواميس؛ كي يزور غرفة القراءة المستديرة في المكتبة البريطانية في ١٩٩١، لوجد أن نسخة الفهرس المطبوع المستخدم هناك، بملحقاتها وإضافاتها، قد انتفخت إلى ٢٣٠٠ مجلد مخيف تصدر أصواتًا من خبطها وتقليبها على المكتب الرئيس.

لم يكن نيكولاس الوحيد الذي صارع التغيرات في عملية المكتبة، فقد ازدادت الشكاوى حول التأخير في إيصال الكتب إلى القراء، كما ازدادت التعليقات حول فظاظة الموظفين، وحُكم على قارئ يُدعى تشارلز ويلكوكس بالسجن ١٢ شهرًا؛ لأنه أخرج كتابًا من غرف القراءة، وسجلت الرسائل التي تلقتها صحيفة «التايمز» المقت من الانتظار الطويل والعمل لساعات وجيزة والتأخير في ظهور

الفهرس الجديد، لكن الصراع لم يكن قابلًا للتجنب، فقد نما عدد القراء المسجلين من ثلاثة آلاف إلى ستة عشر ألفًا من عام ١٨٣٠ إلى ١٨٤٠ بحسب كتاب بي آر هاريس «تاريخ مكتبة المتحف البريطاني»، وطلب القراء مائتي ألف كتاب مختلف في عام واحد. وفي أربعينيات القرن التاسع عشر بقي عدد القراء الذين كانوا يُخدمون يوميًّا منتظمًا، وكان معدله ٢٣٠ وقريبًا إلى الحد الأعلى الذي يمكن أن تستوعبه غرفة القراءة، وكان الجو متوترًا وضيقًا في مكتبة المتحف البريطاني حين كان فهرس بانيزي الضخم يتجه نحو الكمال متعثرًا.

على أي حال، نادرًا ما تحققت جميع انتقادات نيكولاس والآخرين من تقدم بانيزي أو حماسه، ونشر في ١٨٤٦ رده على هاريس في كتاب وضع له عنوانًا هو «مؤونة الكتب المطبوعة من المكتبة إلى غرفة القراءة في المتحف البريطاني» أوضح فيه التحديات التي واجهتها المكتبة في استيعاب العدد المتنامي من الكتب والقراء. ومزح مزحة ماكرة مع نيكولاس أيضًا، معيدًا طباعة رسالة كان قد أرسلها باكرًا حين بدأ بانيزي عمله مدح فيها الإصلاحات الأولية لأمين المكتبة.

ردّ أعداء بانيزي وفتحتْ لجنة ملكية تحقيقًا في شكاوى الرعاة عن المكتبة والمتحف في عام ١٨٤٧، وكان من أبرز المجريات شهادة العظيم توماس كارلايل الذي انضم إلى نيكولاس والآخرين في شجب الجهود الهادفة إلى إنتاج فهرس جديد.

وبَّخ اللجنة قائلًا: «إنَّ ما نريده ليس الفهارس المتقنة، بل فهارس واضحة متاحة للجميع»، ولكن حين سُئل عن استخدامه

المنشورات الإنكليزية حول الحرب الأهلية في المكتبة أثنى على فهرستها قائلًا: إنه «حصل على فائدة عظيمة منها».

كان هذا بمثابة نصر لبانيزي الذي خدمت فهرسته للمنشورات كأساس للمنهجية الجديدة.

برأت اللجنة الملكية سياسات بانيزي في النهاية، وسمحت له بمواصلة عمله دون أي عرقلة، وتوقفت فهرسة بانيزي عن التركيز على منشورٍ واحد، وصارت عوضًا عن ذلك جهدًا متواصلًا، كما الفهرسة في المكتبات كلها حتى هذا اليوم.

استمر عهد بانيزي في المتحف حتى ١٨٦٦، وأشرفَ بناء غرفة القراءة المستديرة الضخمة التي استند تصميمها إلى خطة رسمها بقلم الرصاص، وفي ١٨٥٦ صار أمين المكتبة الرئيس، وفي ١٨٦٩ حصل على لقب فارس. وفرضت قواعد فهرسته نفوذها في المتحف البريطاني حتى خمسينيات القرن العشرين.

شرّف السيد أنطوني بانيزي الثوري الإيطالي المتقلب والبروميثيوسي البلاد التي تبنته وأنشأ، ليس فقط لأسيادها المتعلمين، بل لطلابها الفقراء وشعبها أيضًا، إحدى أعظم المكتبات في العالم.

بينما كان بانيزي منخرطًا في مشروع بروميثيوسي لبناء مكتبة للأمة، كان الملايين من سكانها يرتعون في البؤس، وانطلقتْ في هذه الأعوام التي اتسمت بالصراع الطبقي والرعب الاقتصادي حركة المكتبة العامة في أنحاء بريطانيا، حين اعترفت نخبة الأمة التقدمية أن ضوء الطاقة الثقافية والفكرية لم يكن موجودًا في حيوات العوام،

وأثرت الحروب النابليونية في الاقتصاد البريطاني، وفرضت مجموعة من الضرائب والقوانين الخانقة أعظم الأعباء على كاهل الطبقة العاملة. وفي ١٨٣٨، في العام الثاني من عامي الركود، قدّم الراديكالي اللندني وليم لافيت مشروع قانون سمّاه ميثاق الشعب تضمّنتْ نقاطه الست الاقتراع العام للذكور وإنهاء مؤهلات الملكية كشرط للانتخاب في الحكومة، وهدفت هذه النقاط إلى جعل البرلمان مسؤولًا أمام شريحة واسعة من سكان بريطانيا المتنامين أكثر من قبل، ورفض البرلمان مشروع قانون لافيت، لكن الحركة الشارتية (الميثاقية) نشأت وعبّرتْ عن آمال العمال البريطانيين الفقراء في أثناء سنة ثورة ١٨٤٨.

اعترف الشارتيون بأهمية التَّعليم في تحقيق تطلعات أولئك المعزولين عن السلطة والمنصب، كما فعل رجال الكنيسة المنشقون منذ مائتي سنة، وانتشرت في أنحاء بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر غرف القراءة الشارتية، وكانت عبارة عن مكتبات إعارة تعاونية تقدم الكتب لأعضاء المنظمات الراديكالية. وبرهنت هذه المكتبات على أنها شعبية جدًّا. وفي الحال تنافست مع المكتبات التجارية التي تتطلب اشتراكات، وصارت تقدم لأعضائها مدخلًا إلى قائمة متبدلة دائمًا من الكتب مقابل أجر متواضع، لكن تهديد النظام القائم لم يمرّ مرور الكرام، فقد أعلنت مجلة «بلاكوودز» في ١٨٢٥ أنه «أينما حصل الأدنى مرتبة في الدولة على قليلٍ من المعرفة يُحدثون دمارًا في الوطن». إلا أن عضو النقابة فرانسيس بليس قال: إن القراءة ستُدخل الراديكالي الفقير إلى دائرة: الثقافة، والأخلاق،

والرخاء، وتبعده عن إغراءات الرعاع، وكما أن فهم الإنسان مُوجَّه إلى سعي جدير بالثناء، فإن رغبته بالحصول على المعلومات ستزداد، وسيصبح مهذبًا في سلوكه ولغته، ومتزنًا وحصيفًا.

إن إنسانًا كهذا سيصعد دائمًا فيما الإنسان غير المتعلم سيغرق».

وبالرغم من أن فلاسفة نفعيين مثل جيريمي بنتام ومريده جون ستيوارت ميل جُوبهوا بتكتيكات راديكالية، إلا أنهم دعموا وجهة نظر بليس بأن المدخل الأوسع إلى المعرفة سينفع المجتمع ككل، وقال ميل: إن الجماهير«لا تحسب الأمور جيدًا»، وهي «تفتقر إلى الحس العملي الجيد»، وإن تعليمًا قويًّا سيجعلها تحسب الأمور جيدًا، وتصبح بالتالي مستهلكة حكيمة وعاقلة وعمالًا متدربين جيدًا وطامحين، وكان هناك بين طبقة المفكرين من بدأ يعتقد أن الظواهر الاقتصادية تتبع القوانين الشمولية التي يكشفها العقل، وصار من المفهوم أنه عن طريق المدخل الكبير إلى المعلومات يمكن أن يُدرَّب النَّاس كلهم على مبادئ الحق، ويُحوَّلوا إلى فاعلين عاقلين من أجل الخير الأكبر للجميع، وكما عبّر مؤرخ المكتبات أليستير بلاك عن الأمر: «ستقبل الجماهير عن طريق استيعاب قوى العقل التي يولّدها التَّعليم المبادئ الرأسمالية كحقيقة». وعلّمت المعرفة الرجال والنساء أن يشتروا في أرخص الأسواق، ويبيعوا في أغلاها ثمنًا. بالنتيجة، علمتهم أن يكونوا «متوحدين مع الطبيعة الربحية للمجتمع الرأسمالي». وكان هدف التَّعليم النفعي هو إنتاج «أشخاص يحسبون الأمور جيدًا»، وقدّمتْ غرف قراءة النقابات ومكتبات الاشتراك إمكانية لفعل هذا بطريقة اقتصادية، وأدرك المنادون بالنفعية أنَّ قيمة

كل كتاب بالنسبة للمجتمع تزداد كلما حصل مزيد من النَّاس على مدخل إلى قراءته في مكتبة معتنى بها جيدًا، ويمكن أن يواصل كتاب مكتبة فتح الأبواب على النقيض من الكتاب الخاص الذي ينتهي استخدامه الوظيفي بعد أن يُقرأ ويُعاد إلى الرف للمرة الأخيرة.

بيد أنه لم يكن جميع النفعيين اقتصاديين وباردين في حساباتهم، فقد شعر جون ستيورات ميل على وجه الخصوص الذي ألهمته الحركة الرومانسية بأن المكتبات تقدّم خيرًا أعظم من الذي يقدمه العقل: إنها تقدم السعادة أيضًا، وقدمت الكتب فرصًا أكبر للتدريب والتلقين ضمن إطار ثقافة الرأسمالية ومهربًا ولو آنيًّا، وراحة وتأملًا، شجعوا في النهاية على احترام الإنسان لزميله الإنسان الذي هو أساس الإيثار.

حدث كل هذا في المكتبات، وهذا ما كان يأمله رعاة مشروع قانون المكتبة العامة في ١٨٥٠ حين أقنعوا البرلمان بإقراره، وبيّن أليستير بلاك تأثير التفكير النفعي في داعمي المكتبات العامة، وقال: إنَّ دوافعهم ربما كانت أكثر نفعية: كانوا يأملون أن تقوم المكتبات بتوجيه الدوافع التخريبية للطبقة الدنيا التي حُرمت من المدخل إلى الوسائل التثقيفية. على أي حال، حلّتْ المكتبات العامة التي تدعمها الضرائب بسرعة محلّ مكتبات الاشتراك وغرف القراءة الشارتية، وحين افتُتحت مكتبة مانشستر العامة في ١٨٥٢، شغلت غرفة شارترية سابقة. وصاغ المتحدثون في حفل الافتتاح تعليقاتهم بلغة الحرب الطبقية والمصالحة، وكان داعم المكتبة جوزيف برزرتون يأمل أن الطبقات كلها «ستتعلم كم هي ضرورية لبعضها، وكيف

أن العمل ورأس المال مترابطان، وكيف أن مصالح الطبقات كلها، الغنية والفقيرة، متشابكة كمثل اللبلاب وشجرة البلوط».

وتحدث تشارلز ديكنز الذي حضر أيضًا وقال: إنه واثق من أن المكتبات ستعلّم «أن رأس المال والعمل غير متناقضين بل يعتمدان على بعضهما ويتبادلان الدعم».

شعر بالآلام الثورية لأوروبا في أمريكا أيضًا، ولكن على نحو أخفّ.

سمّى والدا ميلفيل لويس كوسوث ديوي ابنهما على اسم المصلح الهنغاري لاجوس كوسوث الذي ذاع صيته في المنفى بعد قيام ثورة ١٨٤٨ في بلاده كمحاضر، وبدا كأن الانقلابات الاجتماعية في أوروبا في ذلك العام وعدت بنهاية الأنظمة الملكية، وأسرتْ لبعض الوقت خيال الأمريكيين الذين كانوا مستعدين للحكم بقسوة على القواعد الوراثية. ونُظر إلى الثوريين باحترام شديد على نحو خاص في الزاوية الشمالية الغربية من نيويورك، حيث وُلد ديوي في ١٨٥١ التي ما تزال تُدعى: «المقاطعة المحروقة»؛ بسبب عدد الثورات الدينية التي أشعلت ألسنة لهبها الأولى في المنطقة وبدأها المورمون.

وكمؤيد للتهجية المبسطة، أسقط ديوي في النهاية اسمه الأوسط ذي الأصل الأجنبي، واختصر تهجية اسمه إلى ميلفيل، لكنه كأمين مكتبة ومصلح اجتماعي جسّد الحماسة واليقين الأخلاقي للمقاطعة التي ازداد تدينها بدوافعها المتناقضة كلها.

قدحت طموحات ميلفل الخاصَّة شرر نارٍ حقيقية، وحين شبّ حريق في مدرسته في ١٨٦٨، اندفع ديوي كي ينقذ الكتب من المكتبة

المشتعلة، واستنشق كمية كبيرة من الدخان وهو يفعل ذلك، وقاد سعاله القوي الذي أُصيب به لاحقًا طبيبه إلى الاستنتاج بأنه سيموت في حوالي عامين، وبحسب واضع سيرته وين ويجاند، ولّد هذا الوعي المبكر بالموت الوشيك اهتمامًا بادّخار الوقت استمر في بقية حياة ديوي وجسّد نموذج إصلاحاته كلها، وكانت الفعالية حجر مغناطيس ديوي في كل شيء من تدريب موظفي المكتبة إلى ترفيف الكتب، وصارت الفعالية هوسًا له، وترأس: التهجية الصوتية، والاختزال، والنظام المتري معتقدًا أنَّ المدخل إلى فتح أقفال الموارد الضخمة للوقت تكمن في عقلنة البساطة.

حصل إسهام ديوي الأكبر - الذي ذاع صيته عن طريقه - حين كان ما يزال طالبًا في كلية أمهيرست.

عمل ديوي كمساعد في مكتبة، وشعر بالإحباط حين وجد أن الكتب تفتقر إلى التنظيم، فانطلق كي يستنبط نظامًا استطاع بوساطته أن ينظم الكتب.

لم يأتِ الاهتمام بالتصنيف في حد ذاته مع ديوي، بل كان في الحقيقة موضوعًا رئيسًا بين أمناء المكتبات في ذلك الوقت الذي كانت المكتبات تنمو فيه بسرعة.

ذلك أنَّ النظام القديم لم يعد يعمل، حيث كان يُمنح لكل كتاب بقعة محددة على الرف، وتتطلب كل إضافة جديدة من الكتب تعديلًا للفهرس كله، فخطرت لويليم توري هاريس في سينت لويس فكرة تصنيف الكتب، بل المعرفة التي تحتويها، وقدَّم هذا النظام خطة تصنيف نسبي كان يُعثر بمقتضاه على الكتب بحسب علاقتها

ببعضها، واتبع هاريس نظرية بيكون الثلاثية في المعرفة، وصنّف الكتب بحسب موضوعات: التَّاريخ، والشعر، والفلسفة، وكانت فروع المعرفة هذه قابلة لمزيد من التحليل ما سمح بتوضيح بنية المعرفة التي شملت أعمال العقل كلها، وبالرغم من أن المفكرين عرفوا خطط تصنيف كهذه واستخدموها منذ العصور الوسطى، إلا أنهم لم يطبقوها على المكتبات إلا في حالات نادرة، وعادة بلغة غير دقيقة وعامة، وقدمت مكتبة الفاتيكان بطاولاتها المقسمة بحسب المقدس والمدنس، مثالًا عن خطة غير دقيقة كهذه. تطورت في هذه الأثناء أنظمة كهذه في مكتبات القرن التاسع عشر وطورتها مكتبة المتحف البريطاني التي مُنحت الرفوف فيها أسماء «رقمية» يمكن أن تقسم تقريبًا اعتباطيًّا؛ كي تشير إلى مواقع كتب محددة، وكان ابتكار ديوي هو الجمع بين النظامين الأبستمولوجي والرقمي، فالأرقام لا تحدد فقط نظام ترفيف، بل تفرّق بين حقول المعرفة، وهكذا ضم البساطة التحليلية للأرقام العشرية إلى خطة حدسية للمعرفة، خطة استوعبت بسلاسة جميع الكتب التي سبق أن كُتبت، والكتب التي يمكن أن تُؤلف أيضًا.

لا يقتصر تأثير ديوي في عالم المكتبات وتجربتنا معها على التصنيف العشري بتأثيره المتنوع، كما أنه لا يقتصر على عالم المكتبات.

كان تأثيره في الحقيقة واضحًا في مظاهر المكتبة كلها، وكان رائد التَّعليم المنهجي لأمناء المكتبات، وأسس أول كلية مكتبات في كولومبيا في ١٨٨٩، وأطلق شركة سماها مكتب المكتبة لبيع الأثاث وتجهيزات المكتب. واقترح جمالية كاملة فعالة للتصميم الداخلي

للمكتبات الكبيرة والصغيرة، وحين ساعد في تأسيس رابطة المكتبة الأمريكية وضع معايير المهنة الداخلية من جهة: التَّعليم المتوقع، والأخلاق، ومعايير العمل، ومعايير المهنة الخارجية من جهة دور أمين المكتبة في المجتمع ككل، وأسهمت حيوية ديوي وحماسه وشخصيته الاستثنائية - كما أسهم التصنيف الذي حمل اسمه - في جعله أكثر أمناء المكتبات شهرة في زمنه أو في أي زمنٍ آخر، إلا أن هذا كان مؤسفًا في مناحٍ كثيرة، ذلك أن هوس ديوي بالفعالية واعتماده على تفويض السلطة والمراتبية ومسبقاته الثقافية الاجتماعية والدينية أثروا في تطور المكتبة بطرق ما تزال واضحة حتى يومنا هذا.

يمكن أن يدعى ديوي جون آدامز حركة المكتبة الأمريكية بمعنى ما، حيث جمع بين تصميم آدم المشاكس وقوته في المعركة السياسية والإحساس بالدقة والواجب تجاه السلطة. وحين عُقد الاجتماع الأول لجمعية المكتبات الأمريكية في ١٨٧٦، حضره ديوي، وكان في سن الخامسة والعشرين والعضو الأصغر في جماعة شملت مدير مكتبة بوسطن العامة جستين وينسور الذي صار فيما بعد أمين مكتبة جامعة هارفارد، ووليم فريدريك بول مؤلف «فهرس بول للأدب الدوري»، المرجع الأول من نوعه. واجتهد ديوي من البداية؛ كي يعرّف مهنة الجمعية وعملها بلغة عقلانية، وبطريقة تختلف كثيرًا عن الرؤية التي قدمها أمناء مكتبة (باحثون)، مثل: وينسور وبول. شاطرهم رؤيتهم حول أهمية القراءة في التقدم الاجتماعي، ولكن وجهات نظره حول كيفية تحقيق المكاسب كانت مختلفة عن وجهات نظرهم.

ناقش أمناء المكتبة الباحثين في المؤتمر أنواع القراء المناسبين الذين يمكن أن تستضيفهم المكتبة، وأي أنواع من الكتب يجب أن يقرأوا، كان تشديدًا كهذا جديدًا على أمناء المكتبة، وكان حجم المجموعات وطبيعتها مفهومين جيدًا في السابق.

كان هذا جزءًا من الميراث الثقافي الذي جاء من العصور القديمة، إلا أنه يتم إنتاج أنواع جديدة من الكتب الآن، وصار الناشرون يستفيدون من رخص الورق وطرق الإنتاج الكمي الضخم للوصول إلى قراء جدد لسلعهم وابتكاراتهم، وتمنى أمناء المكتبة ذوو الذهن الإصلاحي أن يُقحموا أنفسهم بين الجماهير والكتب؛ كي يقدموا التوجيه حول أنواع القراءة الملائمة، ووافق ديوي على الدافع، لكنه شعر أنه يجب على المكتبات أن تركز من أجل تحقيقه على الطرق التي تنظم بها الكتب وتجعلها متاحة أكثر مما تركز على عناوين هذه الكتب التي تختارها، وكانت هذه مسألة تقتضي إلى حدٍّ كبير توحيد كل شيء، خطط الفهرسة فحسب، بل حجم البطاقات والأدراج المستخدمة للفهارس في المكتبات كلها أيضًا، وكما كتبَ ديوي في العدد الأول من مجلة المكتبة الأمريكية «أميركان لايبراري جورنال»: إن «الفهرسة والكثير من المسائل الأخرى المتعلقة بها يجب أن تتم في المكتبات كلها في الوقت ذاته، وإذا ما جرى تخفيض كبير لنفقات المكتبات، فإن نسبة مئوية أكبر بكثير من الدخل يمكن ـ أن تُخصص للكتب».

كان ديوي يفكر من حيث الجوهر بالمكتبات في جميع الأمكنة، وفي الحقيقة كان يأمل أن يتم إنشاء المكتبات حتى في الجماعات الأصغر؛

كي تخدم السكان الأكثر هامشية. وتصور في ذهنه مكتبة مثالية واحدة، وكما عبّر واضع سيرته ويجاند عن الأمر: «كان مقتنعًا أن أفضل طريقة لرفع إمكانية المكتبة إلى الحد الأعلى هي إنشاء مجموعات متجانسة على نحو فعَّال من المواد ذات الجودة وزيادة فعالية الخدمة عن طريق توحيد قواعد وأنظمة الترتيب». ذلك أن زائرًا إلى مكتبة نُظمت وفق توجيهات ديوي سيعثر على طريقه دون صعوبة. وكانت المصالح والاحتياجات الخاصَّة المحلية أقل أهمية من الإيصال الفعال للكتب إلى أيدي القراء بالنسبة لديوي.

قاد اعتماده الدائم على الكفاءة المكتبات إلى اقتصادات عظيمة، وتبنت المكتبات أثاثه ونظام تصنيفه فحسب، بل بطاقته الفهرسية المبتكرة حديثًا، وجاء هذا الإصلاح على حساب التنوع المحلي الذي يجعل المكتبات الفردية تستحق الزيارة والقراءة فيها.

لم يكن هذا الابتكار الأخير، البطاقة الفهرسية، من ابتكار ديوي. وربما كانت البطاقة الفهرسية المتميزة الأولى هي الجرد الذي قام به إدوارد جيبون على ورق اللعب.

كانت البطاقات شائعة الاستخدام مسبقًا من قِبل أمناء المكتبة الذين واجهوا قوائم جرد غير قابلة للإدارة وفوضوية، وأضيفت إليها ملاحق في منتصف القرن التاسع عشر، وعيّنت كلية هارفارد في الجزء الأول من القرن شخصًا غرائبيًّا يُدعى ويليم كوسويل؛ كي يضع فهرسًا جديدًا، وتوصّل إلى فكرة قطع الفهارس القديمة إلى شرائط وفرز المداخل الفردية إلى مجموعات بحسب الموضوع، وصار هذا العمل أساس «فهرس قصاصات طويلة» جعل المراجعة

السنوية التي يقوم بها أمين المكتبة للمجموعة أسهل بكثير.

لم تستخدم هارفارد البطاقات كي تصنع فهرسًا عامًّا، وأعني أنها لم تستخدم أول بطاقة فهرسية كما نفكر بها اليوم حتى ١٨٦٠، وسرعان ما انتشر استخدام البطاقات وصار موحدًا، وكان مكتب مكتبة ديوي الخاص بالفهرس يكتظ بالبطاقات والعلب والآلات الكاتبة المتخصصة، وأدوات أخرى لصيانة بطاقات الفهرس.

49

26h. Pencil Dater. A movable pad dater attached to a lead pencil; a slight motion of the hand stamps the date much plainer than it can be written, without removing the hand from the pencil. Of great service at the loan desk, where books must be charged rapidly. Devised at the Milwaukee Public Library, and adopted by many others.

Price, dater and L. B. dates, complete, 75c.

2612. L. B. Accession and Numbering Stamp. Used in library work for registering the accession number in books, on cards, and elsewhere, and in banks and commercial offices for numbering checks, stock certificates, etc. This machine is very exact in its operation. The figures shift automatically one number higher at each impression, as required for consecutive numbering or paging, or it can be instantly adjusted to print each number twice, or to repeat the same number indefinitely. Made specially for us. We recommend them as the best obtainable.

Selection can be made from the following face type:

a) №1234567890
c) №1234567890
d) №1234567890
e) №1234567890
b) №1234567890

PRICES

4-wheel Machine, numbering from 1 to 9999,	$25.00
5-wheel " " 99999,	30.00
6-wheel " " 999999,	35.00

2613. D. C. Numbering Stamp. For users of the Decimal Classification a special stamp has been made, providing for two decimals; i. e. for five figures of the classification. Used for printing the class numbers on cards, book plates, and labels. It has not only proved a genuine labor-saver, but adds uniformity and legibility to the catalog.

Price, 2613 5 wheel, D. C. Stamp $30.00

(حركة ضئيلة لليد. أدوات مدخرة للعمل مصورة في فهرس مكتب المكتبة لعام ١٨٩٠. مكتبة وادنر بي ٨.٥..٧٧٧٠).

لم يسْعَ ديوي فقط إلى توحيد الفهارس، بل مظاهر تجربة المكتبة كلها، ويمكن القول مرة أخرى/ إن رؤية ديوي المهيمنة تجلت بين

صفحات فهرس مكتب المكتبة الذي رأينا فيه: الطاولات، ومناصب الخرائط، والرفوف، ومكاتب الشحن، وأختام التواريخ، والمحابر، والأقلام التي كان بوسع أمين المكتبة في منعطف القرن أن يعتمد عليها؛ كي يُزوِّد المكتبة وتصبح أكثر فعالية قدر الإمكان، وعرضت الكراسي خطوطًا جميلة وبسيطة بأرجل نحيلة غير مزخرفة وبُنْية مفتوحة لمنع جمع الغبار تحت المقعد، وجعلت أرفف الكتب والأقواس والملصقات الحاصلة على براءة اختراع تصفح الكتب موحدًا من مكتبة إلى أخرى. وبإلهام من ديوي انتشرت أدوات اقتصاد المكتبة وهي تتألف من حشدٍ من: الملصقات الخاصَّة، والأكياس، والقرطاسية، وأسنان معدنية لأقلام حبر ولوازم أخرى متفرقة.

وقدم الفهرس وسيلة لتحويل أي مكتبة ريفية خاملة إلى آلة فعالة لوضع الكتب بين أيدي النَّاس، إلى مدينة فاضلة لقارئ عصر الآلة المبكر.

إن أحد التفاصيل الأكثر إدهاشًا لفهرس مكتب المكتبة هو التنظيم، وعلى غرار الكتب في مكتبات ديوي، انسجمت المنتجات في فهارسه التجارية أيضًا مع النظام العشري.

ثمة طاولة في المقدمة تسجل الصفحات التي عليها: عصي الصحف، وآلات كاتبة لبطاقات الفهارس، ومناصب أطلس، بل أيضًا تصنيفات كل منها.

كانت العشرينيات على سبيل المثال مُخصصة لـ «التجهيزات الفنية». في العشرينيات، تم منح الأختام والتواريخ الرقم ٢٦، ومن

هناك تحول النظام إلى الترتيب الأبجدي، وكما في المكتبة، سبّب نظامُ التصنيف في الفهرس الإحباط للقارئ، ولكن الهدف الذي يكمن وراء ذلك هو المكافأة والتشجيع على التصفح، وتحدّث مصلحو مكتبات آخرون عن التشابه بين قارئ المكتبة والمتسوق، ولم تكن هذه استعارة بالنسبة لديوي.

قدم موقف ديوي تجاه النساء مثالًا آخر على تأثيره المتنوع في عالم المكتبة.

كانت مكتبة بوسطن العامة أول مكتبة وظفت النساء في ١٨٥٧، وكان هذا ابتكارًا آخر قام به ديوي. وأدخلت الكلية التي أسسها في كولومبيا، كلية اقتصاد المكتبة، النساء إلى صفها الأول. واتخذ ديوي هذه الخطوة من دون استشارة أوصياء الجامعة، وكان هذا العامل الوحيد الأكثر أهمية وراء قرار إغلاق الكلية بعد عامين تمامًا، ما دفع ديوي إلى نقل الكلية إلى جامعة الولاية في ألباني، وحين نعيد النظر قليلًا في الموضوع يبدو القرار حركة رائدة لتعزيز حقوق المرأة، ولكن كما يشير واضع سيرته وايجاند، استخدم ديوي في الحقيقة قبول النساء في الكلية للغاية نفسها التي استخدم فيها توظيفهن في المكتبة؛ لتحديد المهنة وتعريفها.

كانت النساء خاضعات للرجال الذين يشغلون وظائف هيئة التدريس، وعكَسَ هذا الخضوع، من منظار ديوي، خضوع أمناء المكتبة المهني لأساتذة الجامعات وخبراء آخرين الذي عدّه ضروريًّا للعمل الفعال للمكتبة. وبينما تولى زملاؤه في جمعية المكتبات الأمريكية السلطة؛ كي يديروا قراءة رعاتهم، تجنّب ديوي هذا

التفويض.

كان عمال المكتبة في النهاية مشغولين جدًّا في فهرسة الكتب ووضعها بين يدي الرعاة، ولم يكن لديهم الوقت لإزعاج أنفسهم باختيارها، كما عبّر ويجاند عن الأمر، لم يدرك ديوي أنه «جرّد أمناء المكتبة من حق امتلاك السلطة لتحديد أفضل قراءة، ما حدّ كثيرًا من قوتهم في عالم المهنة».

بالمقابل، كان التفاؤل حيال مهنتهم - سلطتهم؛ كي يقرروا القراءة الأفضل - أساسيًّا بالنسبة لأمناء المكتبة في زمن ديوي، وحتى داخل دائرة المهنة، كان الدافع البروميثيوسي لتحسين النصيب الثقافي للبشرية كلها قد تجلى مسبقًا كضرورة أخلاقية لإدارة تدفق الكتب إلى يدي القراء، وشغل شخص لا يقل أهمية عنه هو رالف والدو إمرسون نفسه بالتحديات التي واجهها طلاب، مثل: القراء الجدد كلهم في مكتبة القرن التاسع عشر المزدهرة، وأنبه إمرسون في تقرير كتبه لأوصياء هارفارد في ١٨٦٨ إلى أن هناك حاجة إلى شخصية جديدة، «أستاذ عارف بالكتب»، كي يخدم كدليل في متاهة الرفوف التي تئن، وقال: إن الطلاب يهربون من المكتبة:

شعروا بالمقت من العدد الكبير للكتب الذي كشف لهم جهلهم التي كانت كثرتها تخفي عن نظر الشبان المعلومات والمعرفة التي يريدونها، فهل سيشفق باحث لطيف على فضوله المخلص ويرشده إلى فئة الكتب وإلى المؤلف الذي كتب له وحده بالضبط، ألا يمكن العثور على سيد؛ كي يشغل مكتبًا مثل مستشار مكتبة يمكن أن يحيل

إليه أمين المكتبة الأسئلة حول المؤلفين والموضوعات؟

تعكس شفقة إمرسون على محنة طلاب جامعة هارفارد اهتمام أمناء مكتبة القرن التاسع عشر بالقراء المفقودين كلهم، وكما تروي لنا الأساطير تمامًا أن شفقة بروميثيوس وُلدت من حبه للبشرية، هكذا أيضًا تقدم الأساطير التي يحتويها المجلد الأول من مجلة «أميركان لايبراري جورنال» رؤى نبوئية عن أمناء مكتبة يعملون كي يشكلوا تجارب القراء وفي النهاية أذهانهم.

كان الأمريكيون في أثناء المرحلتين الاستعمارية والفيدرالية يحصلون على تعليم رفيع.

وفي ١٧٣١ شكل بينجامين فرانكلين وأعضاء جمعيته الأدبية جونتو شركة المكتبة في فيلادلفيا، وجعلوا الكتب متاحة للجماعة، وتأسست مكتبة بوسطن العامة في ١٨٠٧. في أثناء ذلك الوقت نشأت المكتبات والدوائر الأدبية في مدن كبيرة وصغيرة، بعضها ديمقراطي جدًّا وبعضها الآخر نخبوي على نحو يعكس وعيًا فرديًّا ذاتيًّا، لكن المجتمع الأمريكي نما وتغير في أوائل القرن التاسع عشر، وفي منتصف القرن كان سليلو أولئك الأدباء قلقين مثل نظرائهم الأوروبيين من تدهور مدرك في معايير قراءة الجمهور العام.

عزف تشارلز فرانسيس آدامز، مثلًا، الذي أدار المكتبة العامة في كوينسي، ماساتشوستس، على وتر مألوف حين ذَكَّر زملاءه أن المدارس العامة تُعلّم الجمهور «أن يقرأ، لكنها لا تعلمه كيف يقرأ».

كان الخطر على المكتبات من هذا الإتقان الذي بلا قيود واضحًا،

ووصف آدامز في مقالة نشرها في العدد الافتتاحي من مجلة «أميركان لايبراري جورنال» كيف أن الفرص التي تقدمها المكتبات المجانية غمرت الجماهير، فخافت من تنوع مادة القراءة، ولم تكن مجهزة كي تعثر على الكتب الأفضل والأجمل وتقرأها، لهذا كانت تغادر دون أن تحقق ما تريده وتأخذ إمكانياتها معها. تبنى آدم استعارة الإدمان في تصويره للخطر والصعوبة. يقول: «من السهل جدًّا والممتع جدًّا أن تقرأ فقط الكتب التي لا تقود إلى أي شيء، الكتب الخفيفة والممتعة، وكلما كان هذا أكثر كان أفضل، ويعادله في الصعوبة أيضًا أن نهجر الكتب كما نترك عادة مضغ التبغ إلى حدٍّ مفرط، أو التدخين طوال الوقت، أو الاعتماد على المنبه في: الشاي، أو القهوة، أو الكحول».

قارن ويليم فريدريك بول الذي أدار مكتبة شيكاغو العامة أيضًا بين عادتي التدخين والقراءة في العدد نفسه من المجلة.

بالنسبة لبول، على أي حال، لم تكن الإشارة إلى التبغ سلبية بشكل كامل، قال: «كنت أدخن التبغ وأقرأ ميلتون في الوقت ذاته، وللدافع نفسه: كي أكتشف السحر الكامن في التبغ والقراءة الذي قدم لأبي تلك المتعة الكبيرة»، لكن بول أقر أن كثيرًا من النَّاس، يثنيهم الانطباع الأول غير السار عن التبغ عن أي تفكير زائد بمفاتنه، وهكذا بالقراءة وعن طريق اتباع نظام غذائي يحتوي أشياء قوية للغاية، فإنَّ القارئ الجديد يصبح في الحال قارئًا سابقًا، وبالرغم من أن بول وآدامز اختلفا حول التبغ، فإنهما اتفقا بشكل تام حول طبيعة تطور عادات القراءة ضد نخبة فكرية كانت تحتقر المكتبة.

يمكن أن تقول النخبة: إن المكتبة تفتقر إلى كتب جيدة كافية،

وليس فيها ما يكفي من كتبنا.

في الواقع، لا يوجد ما يكفي من كتب كهذه، والنخبة لن تؤلفها بالسرعة الكافية كي تنجو من التحلل في بحر الرخيص والمبهرج و«الرفيع للغاية»، لكن بول ذكّر القراء النخبويين بأن أذواقهم الخاصَّة لم تكن دائمًا هكذا مبهمة.

ينسى الباحث بسبب غروره الفكري الخطوات المتتالية التي قام بها وأدت إلى تطوره الذهني، أي: القصص التي قُرئت له في أثناء حضانته، وكتاب مغامرات الفتى الذي أمتعه كثيرًا والحب العاطفي الذي جعله يذرف الدموع في شبابه. افترض أن الجماهير ستقرأ كتبًا يحدد هو معيارها إذا لم يتم تزويدها بكتب يعترض عليها، لكنه مخطئ، إذا اقتصروا على هذا الخيار، لن يقرأوا كتبًا.

كتب فيما بعد:

لم ألتقِ قط بشخصٍ لديه ثقافة أدبية رفيعة لن يعترف أنه في مدةٍ ما من حياته، وعادة إبَّان شبابه، قرأ الروايات بإفراط.

أكدت لي ملاحظتي أنَّ هناك في التطور العقلي لكل إنسان يكتسب فيما بعد الثقافة الأدبية مدة محدودة يشتهي فيها قراءة الرواية، وربما يقرأ الروايات بإفراط، وإذا أشبعت الرغبة، ينتقل منها بأمان نحو مجالات دراسية أوسع، وهذا الاشتهاء لا يعود إليه أبدًا في شكله الأصلي.

أوحى تكوّن القراء النخبويين - نمو عادتهم الأدبية وتطورها - لبول بأنطولوجيا كاملة من القراءة في شكلها المثالي، ذلك أن النطاق

الشامل والواسع للقراءة في القرن التاسع عشر الذي حوّله الناشرون والمؤلفون التجاريون إلى نوع من سلسلة الوجود الأدبية الكبرى التي تعكس مستويات ومحطات المجتمع والجندر، صار سيرورة تطورية يمر بها القارئ الفردي تحت إدارة أمين المكتبة، وكما بدأ الباحث بحكايات الحضانة وتقدَّمَ إلى: قصص المغامرة، والروايات الغرامية، والسير الذَّاتية، وكتب الأسفار، والتَّاريخ، هكذا سيتطور القراء الجدد ومجتمعهم معهم.

إن الشرح الصحيح لموقع كل قارئ على هذا الميزان التطوري هو العمل الخاص لأمين المكتبة، والدور الذي يلعبه في حياة الرعاة، فالمربيات يربين الأطفال، وأمناء المكتبة يربون الرعاة، والقراء يقرؤون الكتب، وأمناء المكتبة يقرأون القراء.

لخّص لويد بي. سميث الذي عمل في شركة مكتبة فيلادلفيا في مقالته: «مؤهلات أمين المكتبة»، الدوافع والمواهب التي تناسب النموذج البروميثيوسي، فأمين المكتبة الذي يصفه هو مبدع للأفكار، ومجهّز على نحو فريد؛ كي يحوّل طين القراء غير المثقفين إلى معادن ثمينة لنخبة مثقفة.

إن أمين مكتبة سميث المطلع على اللغات الكلاسيكية والحديثة والمتابع لآخر الأبحاث في الاختصاصات المختلفة، والحكيم في طرق جذب المتبرعين، والحازم في الانضباط والكريم في اللطف، هو قبل كل شيء «شره في قراءة الكتب»، و«ملتهم للأدب». لا يحتاج «أساتذة يريدون الانضباط»، إلى التقديم.

هذه المواصفات هي إلى حدٍّ كبير مسألة وراثية، كما يخبرنا سميث

في نوبة أخرى من استخدام اللاتينية: إن حافظ الكتب يُولد لا يُصنع.

ويجب أن يكون حب الأدب في سلالته، وأن ينتمي الرجل إلى طائفة البراهمة، ومن هو البراهمي في أواخر القرن التاسع عشر سوى تايتان في القالب الأسطوري، القوة القديمة التي تقف بين النَّاس، من جهة، وقباطنة الصناعة ومديري الحكومة التي أصبحت أكثر شمولًا وتشعبًا وفضولًا من جهة أخرى. ربما كان أمين مكتبة سميث كاهنًا فاشلًا أو أستاذًا غير مثبت، ولكنه بالرغم من فشله هو رجل علم ومعرفة، والثقافة هي حقه المكتسب بحكم الولادة. هذا هو بروميثيوس الذي سيحضر ضوء المعرفة إلى الجماهير، ويرى سميث أن مواهب هذه الطبقة يجب أن يتم إحضارها؛ كي تعالج مشكلة تصحيح ثقافة كاملة للقراء، ويجب توظيف أدواتها للاستخدام في ملاحقة مثال واحد، لجعل القراءة تخدم هدفًا شاملًا: التقدم المنسق للمجتمع والفرد في داخله.

ربما كانت أهم صورة متخيلة تجسد سلطة أمين المكتبة وقدرته على صياغة القراء الذين تحت مسؤوليته هي التي أتت في صيغة بيان درامي لصامويل س. جرين من مكتبة ووستر العامة المجانية، في مقالته: «العلاقات الشخصية بين أمناء المكتبة والقراء».

كان سرد جرين عاديًّا وإصلاحيًّا معتدلًا، ولم يتجاوز كونه سلسلة من الوصف الموجز ليوم عادي في حياة أمين مكتبة، وقطّر جرين في شخصية أمين مكتبته الحماس التقدمي لوينسور، وحماس بول الناجم عن قلب طيب، والجاذبية الأرستقراطية لسميث.

أولًا: اعرفْ زبونك: «حين يأتي إلى المكتبة أشخاص لهم موقع اجتماعي رفيع - الرعاة القدامى للمكتبة - فهم يمتلكون ثقة كافية. إن الرجال البسيطين في مشارب الحياة الأكثر تواضعًا، والفتيان والفتيات المدربين جيدًا يحتاجون إلى التشجيع قبل أن يصبحوا مستعدين كي يقولوا بحرية ما يريدونه». صار واضحًا في الحوادث اللاحقة من حياة أمين مكتبة جرين أن المشكلة ليست مشكلة جبن، بل حكمة. ليست المسألة أنهم لا يستطيعون أن يقولوا ما يريدونه، في الحقيقة هم لا يعرفون ما يحتاجون إليه، ويجب على أمين المكتبة سدّ النقص. وحين يأتي رجال الحرفة إلى المكتبة، سيبحثون عن نماذج وصور، ويعرفون المصادر القياسية، ويقدمونها دون تعليقات لا مبرر لها، وحين تأتي طالبة مدرسة للبحث عن معلومات حول مقياس الياردة، يجب أن يمارس أمين المكتبة ضغطًا تعليميًّا أعلى، ولو بخفة، ويشير فحسب إلى الطَّريق نحو المصادر المطلوبة، ويجب عليه أن ينتظر أن تضل القارئة الشابة، ثم يتدخل كي يضعها على المسار الصحيح. وعن طريق إرشاد لطيف وتجريب كهذا، ستتعلم في الوقت المناسب كيف تعثر على الطَّريق بنفسها. لكن بالنسبة لمواطن يبني بيتًا، و«غارق في العمل، لكنه ما يزال سعيدًا؛ كي يمضي ساعة واحدة في المكتبة»، إن المقاربة مختلفة: «يجب أن يُحْضر أمين المكتبة الكتب التي تحتوي المعلومات المرغوبة، ويسلمها إلى القراء مفتوحة إلى الصفحات الملائمة».

إن أمين المكتبة حساس لاحتياجات زبائنه ومقدراتهم. ويوضح جرين كيف أن تقديم أمين المكتبة للكتاب الملائم إلى المجادل الملائم

يمكن أن يوضح الطَّريق إلى الحل حتى في المجادلات السياسية، وكوصي لنوع جديد من المكتبات، يجب أن يبقي يده غير مرئية حتى وهو يوجه تقدم الجماعة ككل، ويجب أن يضع يده على نبض الاحتياجات والأذواق: السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والأدبية أيضًا. سيكفي المخزن الواسع من المعرفة لدى أمين المكتبة أحيانًا دون الرجوع إلى مجموعات المكتبة. وحين تستفسر سيدة شابة: «هل صحيح أن التمثال النصفي الصغير الذي نشاهده في معظم الأحيان الذي يُدعى عادة كلايت يجب أن يُدعى كلايتي؟» يجيبها أمين المكتبة: «نعم». أكيد أن أمين المكتبة بحاجة للعودة إلى القواميس كي يتذكّر أن كلايتي حورية البحر التي لأنها كانت تحب أبولو في السر حدقت بتركيز شديد إلى مرور الشمس عبر السماء فتحولت إلى حجر دم (رقيب الشمس).

يعرف أمين المكتبة بدقة من الكلمة الأولى التي يتفوّه بها: قارئ القرية، أو الحارة، أو الشارع الذي ينحدر منه في جغرافية الفكر على غرار هنري هيجينز في كتاب «سيدتي الجميلة».

إن الطرق التي تحددها البوصلة تقود كلها إلى المدينة الأبدية نفسها، مدينة المعرفة والتقدم والحساسية المصقولة.

باكتسابه «احترام وثقة» الجمهور المتنوع من القراء، يُمنح أمين المكتبة «فرص تحفيز حب الدراسة»، و«يعثر على الكتب التي يحتاج إليها القراء الحقيقيون لها»، وبناءً على ذلك يجعل المكتبة أكثر شعبية بين الجماعة.

إن كتب المكتبة «تُقدم كي يستخدمها أشخاص يتمتعون

بدرجات مختلفة من الثقافة والحساسية، ولأولئك الذين لهم مستويات ذهنية من مراتب مختلفة»، وبالنسبة لفهرس سميث للمواصفات، يجب أن نضيف ذكاء اجتماعيًّا بحدة الموسى ووعيًا لتقلبات التطور البشري.

نقول مرة أخرى: إنَّ هذه الترسانة كلها أُحضرت؛ كي تثير مشكلة واحدة، وهي: إن النَّاس لا يقرأون النوع الصحيح من الكتب، وإنَّ المكتبة مُكرَّسة لحل هذه المشكلة، بالوسائل الضرورية، يقول جرين:

ضع في قسم التوزيع أحد أتم الأشخاص من سلك معاونيك، امرأة ما مطلعة، مثلًا، تستمتع بصدق بأعمال الخيال، لكنها تتمتع بذوقٍ مُثقف.

لا بأس إن كان هناك عرق عمل خير في مركّبها. دع المعاونة، تقوم إذًا ببعض العمل المنتظم، لكن من النوع الذي تستطيع تركه حين تُطلب مساعدتها لاختيار الكتب للقراءة.

دعْها تجتهد كي تقدم لكل مَن يطلب المساعدة أفضل كتاب يرغب في قراءته.

«أفضل كتاب يرغب في قراءته»، وإذا تطلب الأمر مساعدة مفيدة لإغوائه بقراءته، فهذا جيد أيضًا.

لا إغواء خارج الحدود، والمثابرة هي المفتاح، «ويجب ألا يكون أمين المكتبة راغبًا بالسماح لسائل أن يغادر المكتبة دون أن يجيب على سؤاله، كما يجب على الحانوتي ألا يجعل الزبون يغادر حانوته دون أن يشتري».

تخيّل جرين أمين مكتبة في قالب أرستقراطي على غرار سميث، لكنه أرستقراطي يأخذ وضعية على حافة تمزق بين القديم والجديد، بين حافظ الكتب القديم والعامل الاجتماعي الذي يقدم المعلومات في عصر الحداثة. يَعْلقُ أمناء المكتبة المعاصرين على نحو مُشابه بين الإلهامات الثقافية للقديم والطموحات المهنية للجديد، وتقدم «أمانة المكتبة»، كما يقول المؤلف المجهول لمقالة «الاستمرارية» التي نُشرت في العدد ١٨٩٠ من مجلة «هاربرز ويكلي»، «مجالًا أفضل للرياضة الذهنية أكثر من أي مهنة أخرى»، وكما نكتشف بسرعة، إن بطلنا ليس سعيدًا إلى حدٍّ ما بهذا. ليس لديه الوقت ولا الميل كي يجعل دوافع القارئ غير المكتملة أذواقًا ثقافية نادرة.

إن أمين المكتبة هذا مشغول جدًّا بمثل هذه العلاقات الحميمة، ذلك أنه بينما يجلس على المقعد الأمامي؛ كي يخدم نزوات رعاته كلها، فهو أيضًا «يفهرس عددًا لا نهاية له من السلاسل والمسرحيات الفرنسية»، وبالرغم من هذا الغم الأولي، يبدو أن أمين المكتبة يفضل هذه المهمة على الإجابة على أسئلة الرعاة، وحين «تأتي مجموعة من طلاب السنة الثانية وتتجول داخل المكتبة»، فإن ذكاءه «يركض خارج باريس وعبر نصف قرن» عائدًا من بيئة موليير إلى أرض المكتبة التقدمية.

يتوضح على الفور أن أمين المكتبة هذا لا يهتم بالرحلة. أدخلْ طلاب السنة الثانية:

«قل: هل تعطيني من فضلك خريطة لجزر لونغ آيلاند ساوند؟»

«قل: هل يمكن أن أجدد كتبي كلها؟»

«قل: هل تستطيع أن تخبرني أين يتحدث ميلتون عن شبه الجزيرة الذهبية؟»

«قل: هل ستريني شيئًا ما حول الفأر الجبلي؟»

«قل: هل الأستاذ سكريبنر موجود؟»

بدا طلاب السنة الثانية متعبين إلى حدٍّ ما، لكنهم كانوا مؤدبين وغير مزعجين بالرغم من أنهم دخلوا كمجموعة، ولكن بينما كان الراوي يصارع كي يتقن ازدراءه، أوضح كم هو عميق الانقسام بين حقليْ عمله: من جهة، انغمس في عمل بوليسي بحثي يتعلق بالسيرة الذَّاتية، ومن جهة أخرى، كان مجبرًا على أن يلعب دور الخادم العام، الموظف والنَّاسخ المقيد إلى مكتب المراجع.

غادر طلاب السنة الثانية، وعاد أمين المكتبة إلى أحلام يقظته السيرية، فكتب قائلًا: «هنا، نشرة صغيرة ورقيقة تُدعى آثار زواج المصلحة بقلم إم إم. دارتوا وليون برونزويك وليريك (كذا)؛ كي أفهرسها يجب قبل كل شيء أن أحدد المؤلفين...». على أي حال، يقاطعه المزيد من الرعاة بسرعة، وفي مقالة «الاستمرارية» نرى أنَّ الرعاة بلهاء وحاضرو البديهة وساخطون.

حاول أحد الرجال مساعدة صاحبة بيته على تربية ديوك مصارعتها، فيما احتاج آخر إلى المساعدة في فك شفرة خط يده، واعتقد تلميذ أن «الأطلنطس الجديدة» لفرانسيس بيكون مقالة في مجلة، بينما أراد آخر من أمين المكتبة أن يكتب أطروحته عن بايرون له. سأل أحد ما إن كان أمين المكتبة يمتلك أي ذوق «أدبي»، وأراده

آخر أن يحسب له بوليصة شحنه.

بالرغم من عضّ هذه النسور لكبده باستمرار، فإنَّ أمين المكتبة يواصل كدحه ويقنع نفسه في النهاية أن كاتبه المسرحي لهيريس هو في الحقيقة ليفي مشيرًا إلى الدليل الحاسم، بينما كان ضوء الشمس المتضائل الذي «ينكسر بأسى عبر الألواح الزجاجية المدهونة» يختلط بغبار المكتبة الحائم. بهذا منح الراوي مكان عمله جو كنيسة تضغط فيه الاعترافات على رجال الكنيسة طوال النهار، وحيث لا يمكن أن يستريح المرء من إنشاد المزامير. «وأخيرًا فُهرست المسرحية الفرنسية الصغير»، يقول في الخاتمة:

أعددتُ: بطاقة المؤلف، وبطاقة المواضيع، والإحالات المرجعية كلها، وبرهن دارتوا والأخوان ليفي على أنهم خصبون.

وفي الحال خُطت أسماؤهم كمؤلفين مشتركين على نحو معقد في الفهرس الرئيس، ثم في أحد الأيام اكتشفتُ بالمصادفة أن دارتوا كتب في الحقيقة اسمه فرانسوا فيكتور أرماند دي أرتوا بورنوفيل، وكان لدي ذلك الحمل من العمل الذي يجب أن أراجعه مرة أخرى.

جسّد أمين المكتبة في المقالة المنشورة في صحيفة «هاربرز» صورة المرآة للمثال الذي قدمه رواد مثل بول ووينسور، وعندما واجه مجموعة المشاكل نفسها أو ضايقته رفض أن يحول تحديات الهازئين العنصريين إلى فرص مهنية. عوضًا عن ذلك، جسّد الرذائل التي شكا منها الرواد في أمناء مكتبة الزمن القديم كلها: الغيرة، والازدراء، والاستياء من محطته المتدنية في المكتبة المُحولة، حيث الكتب مجانية للجميع، حتى لفاقدي الذاكرة وغير السياسيين والأميين.

رفض أن يتلاءم مع القالب التقدمي الذي قدمته المهنة واعيًا على نحو مؤلم للسياق المتبدل لخدمة المكتبة.

كان الهدف الرئيس لفهرس المكتبة كما أشار فهرس مكتب المكتبة لعام ١٨٩٠هو مساعدة الرعاة للعثور على الكتب التي يريدونها بالسرعة الممكنة، وهذا ما أكده بانيزي، أمين المكتبة البروميثيوسي الأول، حين بدأ بإصلاح فهرس مكتبة المتحف البريطاني في بداية القرن التاسع عشر، لكن الفهرس ظلَّ بالنسبة لأمين المكتبة هذا في نهاية القرن غاية في حد ذاتها، وكان بحث القراء عن الكتب الصحيحة يعترض الطَّريق دائمًا.

طوّر جيلٌ مبكر من زملائه والمشرفين عليه الميثولوجيا المهنية عن طريق إعادة تخيل اختلافات مستندة إلى الطبقة في قراءة الذوق، وكانت مسبقًا متخيلة، ذلك أن الأغنياء والفقراء على حدٍّ سواء استمتعوا بالرخيص والمبهرج و«الرفيع للغاية» في مراحل في خطة التطوير. وأعادوا في أثناء العملية تخيل أنفسهم كأطباء ومفكرين يقومون بتصنيف عمليات تطوير للقراء، ويشخصون انحرافاتهم ويعالجونها.

تم التخلي في مقالة «الاستمرارية» عن الميثولوجيا التقدمية كلها. ما تبقى هو تذرّر انفصل فيه كل قارئ عن الآخر، فيما انفصل أمين المكتبة عنهم كلهم، غرقت شخصيات مقالة «الاستمرارية» في نقاط ضعفها، وكان أمين المكتبة حديثًا على نحو متميز في وعيه لهذا وهو يكدح كي يبدع فهارس لقراء يفتقرون للوسائل الفكرية كي يستخدموها، ولم يستطع أمناء المكتبة أن يأملوا توجيه النَّاس في استخدامهم مواهب ضخمة، مثل: معرفة القراءة والكتابة والمدخل إلى المعلومات، وفي نهاية المطاف، لم يتمكنوا من تقديم يد المساعدة في تشكيل الأذواق

الثقافية؛ لأنها كانت تتحرك تحت تأثير نزوة قِوَى أكبر وأكثر تقلبًا جميع: الحوافز المتعددة، والانحرافات، والعوائق في الحياة الحديثة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السادس
معرفة مصيرها النَّار

إذا كان القرنُ التاسع عشر قَرْنَ بناء المكتبات، فإن القرن العشرين كان قرن هدمها، إلا أن هذا لا يعني أن حرق الكتب اختُرع في القرن العشرين، بل كان يطارد تاريخ المكتبة من الإسكندرية إلى تينوشتيتلان، ومن كابادوقية إلى كاتالونيا، ومن سلالة كين الصينية إلى انحلال الأبرشيات الإنكليزية.

في القرن العشرين تم اختبار طرق جديدة في: تدمير الكتب، وحرقها، واستغلال دمارها.

قد لا يكون من قبيل المبالغة القول: إن التضمين المفاجئ للكتب في أواخر القرن العشرين - بعد اختفاء النص في البداية في التشوشات المبرغلة للميكروفيلم، ولاحقًا في الأثير المبكسل أو المنقّط للإنترنت - بدأ مع التجدد الهمجي للعنف ضد الكتاب في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكثيرًا ما يُقتطف ما قاله هاينرش هاينه في القصص الحديثة عن حرق الكتب، وخاصَّة حرق النازيين للكتب في أيار ١٩٣٣: «هناك حيث يحرق المرء الكتب، فإنه يحرق البشر في النهاية».

كان هاينه ينتمي إلى القرن التاسع عشر وكتب في كتابه («المنصور») عن حرق الكتب في القرن الخامس عشر في أسبانيا

والبرتغال، إلا أنه تبين أن حرق المكتبات في القرن الأخير، قرن الأيديولوجيات الشمولية والحروب الكبرى، لم يكن الطَّريقة الوحيدة لتدميرها.

اقتحمت القوات الألمانية جامعة بلدة لوفان في ٢٥ آب/ أغسطس، ١٩١٤ قبل أقل من أسبوعين من زحفها عبْر بلجيكا، ولم يقم الجيش البلجيكي بأي محاولة للدفاع عمّا أعلن أنها «مدينة مفتوحة» اعترافًا بكنزها الفريد من: الفن، وهندسة العمارة القوطية، ومكتبة جامعتها المجيدة، وكانت مدينة لوفان القروسطية التي حكمها دوقات برابانت موطنًا لصناعة نسيج مزدهرة بدأت في التدهور في القرن الخامس عشر، وأنقذ البلدة من الإهمال الاقتصادي في عام ١٤٢٥ مرسوم بابوي لتأسيس جامعة، وشدت جامعة لوفان الجديدة طلابها ليس فقط من البلدان المنخفضة، بل أيضًا من فرنسا وألمانيا، وسرعان ما أصبحت المدينة على وجه السرعة مركزًا مدينيًّا للثقافة الأدبية، وبسبب حاجة الجامعة للكتب إلى حدٍّ ما صارت لوفان أيضًا مركز الطباعة في بلجيكا، وكان أول رسام بلجيكي هو جان دي ويستفالي ينتج هناك نصف دزينة من الكتب في السنة بين ١٤٧٤ و١٤٩٦. ومنذ أن صارت المطابع تحت الحماية القانونية لعميد الجامعة، صارت البلدة ملاذًا آمنًا لتجارة الكتب، وتحررت نسبيًّا من الرقابة الرسمية والضغوط المتحولة لرعاتها الملكيين، وجذبت هذه المدينة الفلمنكية ذات الأبراج والمكتبات باحثين مهمين كان الأبرز بينهم إرازموس الذي دعا

لوفان وطنه من ١٥١٧ إلى ١٥٢١. وبالرغم من أنه لم يرتبط قط بشكلٍ رسمي بالجامعة، ساعد في تأسيس كلية إنسانوية بثلاث لغات قدمت تعليمًا منهجيًّا دقيقًا في فقه اللغات: العبرية، واليونانية، واللاتينية.

بدأت مكتبة الجامعة الصغيرة بالنمو في ذلك الوقت من منتجات تجارة الكتاب في لوفان إلى حدٍّ كبير، لكن الكتب انتظرت بناء خاصًّا بها حتى ١٧٣٠، حين توسعت مجموعة كتب الجامعة بسبب هدية تلقتها بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة مجلد. وفي آب/ أغسطس ١٩١٤، احتوت المكتبة سبعين ألف مجلد وثلاثمائة مخطوط كانت ثمرة خمسمائة عام تقريبًا من الحياة الفكرية غير المُقاطَعة. وكان بين مقتنيات المكتبة ٣٥٠ كتابًا من الكتب التي طُبعت في المراحل الأولى للطباعة، وسلسلة طبعات قديمة من الكتب المقدسة، ومجموعة من المخطوطات اليسوعية النادرة، ومجموعة وافرة من المواد المتعلقة بالإصلاح الديني في البلدان المنخفضة، ونشرات سياسية من حرب الثلاثين عامًا وغزو لويس الرابع عشر لبلجيكا، علاوة على أرشيف ومخطوطات مكتوبة بخط يد مؤلفها توماس أكيمبيس وأرشيف الجامعة المهم.

حين وصل الغزاة الألمان إلى لوفان، بدأ المدنيون الغاضبون يهاجمون قوات الاحتلال.

كان الرد الألماني سريعًا وكريهًا. «حدثت سلسلة من الردود الانتقامية الوحشية على قرى تقع شرق لوفان»، كما ذكرت صحيفة «النيويورك تايمز» في ٣٠ آب/ أغسطس، «وتم إحراق جزء من

تايريمونت على يد القوات الألمانية»، وكي يصد هجمات المدنيين قام الجيش الألماني عندما دخل لوفان بأخذ «ثلاث رهائن هم رئيس البلدية ومواطنان بارزان، فتقدم ابن أحد الرهينتين وهو فتى عمره ١٥ أو ١٦ سنة؛ كي يتحدث مع القائد الألماني وفجأة شهر الفتى مسدسًا، وأطلق النَّار، فقتل الألماني».

كانت هذه الطلقة على ما يبدو إشارة إلى الأنصار الذين كانوا في الجوار: «قيل: إن إطلاق نار منسقًا بدأ على الفور من الأسطح والنوافذ المحيطة بالساحة»، لكن شهود العيان البلجيكيين رووا قصة مختلفة: قامت القوات الألمانية المنسحبة «عشوائيًّا» بإطلاق النَّار بالخطأ على رفاقها في لوفان، ما أدى إلى سقوط قتلى عدة في صفوف الألمان (ذُكر هذا في صحيفة «التايمز»، لندن، ٢٨ آب/ أغسطس).

قرر الألمان أن يجعلوا من لوفان عبرة لمن يعتبر بصرف النظر عمن أطلق النَّار، فأعدموا الرهائن، ثم «أمروا السكان بالخروج من منازلهم، وأشعل جنود مسلحون بالقنابل النَّار في المدينة كلها»، ودُمرت أبنية لوفان التي لا نظير لها وكنوزها المعمارية الفريدة ومكتبتها اللافتة، وأفادت صحيفة «التايمز»، «أن المدينة التي كان عدد سكانها يبلغ خمسة وأربعين ألف نسمة، وشكلت المركز المديني والفكري للبلدان المنخفضة، صارت كومة رماد».

بررت الحكومة الألمانية حرق لوفان على أساس الضَّرورة العسكرية بعد أن ادّعت أن المدنيين البلجيكيين ارتكبوا فظائع، مثل: نصب الكمائن لقوات الحراسة الخلفية، واقتلعوا أعين الجنود

الجرحى في الميدان، وأعلن الألمان: «إن الموقف الهمجي للسكان البلجيكيين في جميع الأجزاء التي احتلتها قواتنا لم تبرر إجراءاتنا الأشد فحسب، بل فرضتها علينا من أجل الدفاع عن النفس»، إلا أن الغرب نظر إلى الأمر على نحو مختلف بالطبع. كان هذا العمل «خيانة للحضارة»، كما كتبت صحيفة «ديلي كرونيكل» في لندن في التاسع والعشرين من آب/ أغسطس، وأضافت: «إن الحرب على غير المقاتلين سيئ بما يكفي، لكن هذه حرب على الأجيال القادمة الأبعد»، وبعد ثمانية أيام من حرق الألمان للبلدة وتدميرها، كتب شاهد: إ «تطايرت أوراق المخطوطات والكتب نصف محترقة تحت رحمة الريح»، لكنه تم إنقاذ مخطوط واحد والسبب هو أن أستاذًا استعاره؛ كي يعود إليه، وحمله معه حين هرب من المدينة قبل أن يحتلها الألمان، فتوقف وهو يمشي في صف من اللاجئين في الحديقة قُرب جينت ودفن الكتاب، «وكان موضوعًا في صندوق حديدي صغير». ليس هناك سجل يُظهر عودة هذا المخطوط الوحيد إلى المكتبة أو العثور عليه، وربما كان الكتاب الأخير من مكتبة لوفان العظيمة قبل الحرب ما يزال يرقد في تابوته الحديدي، وكان أشبه بمكتبة مُخبأة تتألف من كتاب واحد.

لم يمضِ وقت قصير على نهاية الحرب حتى أسست مجموعة من المتبرعين الأمريكيين لجنة لإعادة بناء المكتبة، وقامت بجمع الأموال، ووظفت المهندس المعماري ويتني وارين؛ كي يصمم بناء جديدًا. لكن المشروع أثار جدلًا منذ البداية، فالكاردينال ميرسييه، كبير أساقفة مالينس، الذي ترأس لوفان وجامعتها، قدم لوارين

نصًّا؛ كي ينقشه، وطلب منه أن يعلقه على الدرابزون، يقول: (دمّرتْها الروح الانتقامية الألمانية، وأعاد بناءها الكرم الأمريكي).

توفي الكاردينال قبل أن تُشيد المكتبة، وعدَّ رئيس الجامعة المونسنيور لاديوز النقش غير ملائم. ذلك أن الطلاب الألمان برزوا دائمًا بين الطلاب، واعتمدت الكلية على الصلات الأكاديمية مع الجامعات الألمانية، وشعر لاديوز أن الشوفينية يجب ألا تكون جزءًا من مهمة الجامعة. ويجب أن تخدم الجامعة عوضًا عن ذلك كمستودع وحاضن للثقافة الأدبية، فقد كان في الجامعة أوروبيون من جميع الأمم.

لكن دافع المونسنيور ميرسييه العاطفي كان قد أثّر في تصميم وارين للمكتبة، وأعلن منشور أصدرته اللجنة الأمريكية أن الصور على الواجهة ستركز «على شكل سيدة النصر، يدعمها: القديس جورج، والقديس مايكل، وهما يسحقان الأرواح الشريرة».

تضمنت خطط الزخرفة أيضًا مشهدًا لتدمير المكتبة والتماثيل النصفية لأبطال الحرب: «الملك، والملكة، والكاردينال ميرسييه»، وتضمن الدرابزون بنقشه الذي يصف العمل الألماني الشائن «شعار الدولتين الأمريكية والبلجيكية». علاوة على هذا، يجب أن تُرفع الأجراس؛ لأن دقاتها كانت «شائعة في المدن الفلمنكية كلها»، ويجب أن تكون فريدة: «سترنّ كل ساعة معبّرة عن الأجواء القومية لتلك الأمم التي قاتلت في الحرب الكبرى؛ كي يسود الحق والعدالة والشرف، وستنشد «النشيد الوطني الأمريكي»، والنشيد الوطني الفرنسي، «لينقذ الله الملك»، و«النشيد الوطني البلجيكي»... إلخ».

ضغط رئيس الجامعة بقوة من أجل ضبط النفس مُروِّعًا من فكرة تحويل مكتبته إلى صندوق موسيقي شوفيني، واتبعتْ المكتبة التي بُنيت في النهاية خطة وارين، لكنها افتقرت للعناصر الشوفينية التي ربما أحبها الكاردينال المرحوم ميرسييه: النشيد الوطني، والأجراس التي ترن، شعارات دول المنتصرين، والنقش الذي يشجب الروح الانتقامية الألمانية، وقالت النشرة: إن برج الجرس في المكتبة الجديدة سوف «يهيمن على البلاد المحيطة»، وفي هذا التفصيل، وتقريبًا في هذا وحده، تحققت الآمال الأثيرة للجنة الأمريكية.

توفي لاديوز عشية الحرب العالمية الثانية، وكان رئيس جامعة ومكتبة عكستا وجهة نظره الإنسانية، وحين دخلت القوات الألمانية مرة أخرى زاحفة عبر بلجيكا في ١٦ مايو ١٩٤٠ كان أول ظهور لها في لوفيان هو برج مكتبة يرتفع فوق الأشجار وفوق أسطح المدينة. هرب جيل آخر من سكان لوفيان سابقًا تحت القصف الألماني الذي لم يتوقف، وهذه المرة صارت المدينة هدفًا عسكريًّا.

كانت موطن حامية بريطانية تستعد للانسحاب إلى دونكيرك والقناة الإنكليزية.

صبت المدفعية الألمانية النَّار على برج المكتبة في الأصيل، وزعم شاهد عيان، وهو عضو في المجلس المحلي، أن ضابطًا ألمانيًّا طلب منه أن يحدد أجراس المكتبة، ثم فيما بعد شاهد مدفعية بطارية الضابط تقصف البرج، وأفاد شهود عيان آخرون أن هجومين آخرين شُنّا، استمر كلٌّ منهما نصف ساعة، ركزا القصف على المكتبة، واستهدفت الذخيرة الخطاطة (المسارات البراقة الفوسفورية التي

تسمح بالاستهداف الصحيح وتنشر النَّار بفعالية أكبر) البناء.

واخترقت القذائف السقف، وأشعلت النَّار في كتب العلية التي اشتعلت في الوقت المناسب، وارتفعت حرارتها بما يكفي؛ كي تذيب الأرضية الزجاجية للصالة الرئيسة جاريًا عبر أنابيب البخار، نشر هذا الزجاج الذائب النَّار في قسم المخطوطات وغرفة الكتب النادرة في الأقبية، وبرد لاحقًا إلى مقرنصات لمعت بين الأكداس الممزقة. وكتب الرئيس الجديد المونسنيور فان واينبرغ: «خُرب البناء كله ودُمر»، وأشار إلى «المشهد الكريه للعوارض الحديدية والإطار المعدني الملتوي المفكك، وصناديق كتب ساقطة هنا وهناك، وكتب مسحوقة ما تزال في مكانها»، ولكن المنازل والأبنية جوار المكتب بقيت منتصبة.

تبين أن الألمان أرادوا أن يدمروا المكتبة.

كان الألمان متلهفين في الأيام التي تلت الهجوم؛ كي يبرهنوا أن الحريق دبره البريطانيون، وشاهد بعض الشهود ألسنة اللهب الأولى في المكتبة في الصباح الباكر قبل الانسحاب البريطاني، وشق انفجار النَّار من الأكداس في القبو الأرض الحجرية للصالة الرئيسة التي أشار إليها الألمان فيما بعد كدليل على أن البريطانيين وضعوا متفجرات في القبو، وزعمت قصص الصحف الألمانية أن خبيرًا عثر على آثار حريق متعمد في ١٢ موقعًا في المكتبة، واستدعى الضباط الألمان الذين كانوا يقودون احتلال لوفان المونسنيور فان واينبرغ وأمين مكتبة، البروفسور إتيان فان كاوينبيرغ، وطلبا منهما أن يشهدا رسميًّا أن البقع التي وُجدت على الباب هي دليل على مواد قابلة

للاشتعال استخدمها الإنكليز؛ كي يشعلوا نارًا ويسرّعوها، وبدت اللطخ للرجلين مثل الورنيش الذي صار فقاعات وذاب وسال في حرارة ألسنة اللهب، وطلب الضابط الذي استجوب أمين المكتبة في الحقيقة منه أن يشهد على أن بعض الصناديق التي تم تلقي شحنة كتب فيها من اليابان كانت علب وقود سيارات، وشهد أمين المكتبة فيما بعد أنه رفض نظرياتهم، لكن الألمان ضغطوا؛ كي يلقوا باللوم على البريطانيين.

لماذا استهدف الألمان المكتبة مرة أخرى؟ ربما أرادوا إسقاط البرج لمنع استخدامه من قبل القناصة البلجيكيين والإنجليز أو مراقبي المدفعية.

في الحقيقة، أبلغ رئيس الجامعة (لجنة جرائم الحرب البلجيكية التي نشرُ تقريرها حول مكتبة لوفان في ١٩٤٦) أنه قبل الهجوم الألماني عثر حارس المكتبة على جنديين بلجيكيين في البرج يحدقان بالمنظار نحو الشرق، فطلب منهما المغادرة، قائلًا: إنهما يعرضان المكتبة للخطر بلا فائدة، لم تكن إطلالة الجنديين جيدة، كما قال، ولم يكن معهما جهاز لاسلكي أو أي وسائل تواصل استخبارية مع رؤسائهم، لكن الألمان لم يزعموا قط أن البرج كان موقع رصد بالرغم من أنه كان بوسعهم تبرير الهجوم بناءً على ذلك من دون اللجوء إلى قصة عن البريطانيين.

دعم تقرير اللجنة لعام ١٩٤٦ تفسيرًا آخر، وشهد رجل يُدعى إميل فان كمال بيك الذي استولى على بيته خارج لوفيان ضباط مدفعية القوات الألمانية، على الآتي:

كان معهم سيارة جاؤوا فيها من حيث قاموا بتوجيه نيران المدفعية، فوُضعت تلك السيارة في حديقتي ولم يُسمح لي بالاقتراب منها، فيما بعد دعوني كي أنضم إليهم على الطاولة.

في أثناء الوجبة، أخبرني ضابط ألماني أن نقش «الغضب التيوتوني» كان ما يزال معلقًا على المكتبة.

أخبرته أن هذا لم يكن صحيحًا، لكن الضباط الألمان أصروا على العكس.

إذا كان هذا الكلام وقصص شهود عيان آخرين جُمعت في ١٩٤٦ من قبل اللجنة صحيحًا، فقد اعتقد ضباط الرايخ الثالث أن المكتبة كانت صرحًا لانتصار الحلفاء - وللعار الألماني - الذي صممه وخطط له المهندس المعماري وارين والكاردينال ميرسييه.

كانت لدى الألمان أسباب أخرى؛ كي يحتقروا مكتبة لوفيان، فهي لم تشر إلى أن بناء مكتبة جديدًا انبعث من رماد المدينة فحسب، بل إلى مجموعة كتب جديدة أيضًا، وبعد الحرب العالمية الأولى أعادت المكتبات البلجيكية ملء رفوفها بكتب صُودرت من الألمان المهزومين، واحتوت مكتبة لوفيان مرة أخرى على مجموعة كتب غنية، وبينها كتب طُبعت في بدايات عصر الطباعة ومخطوطات من القرون الوسطى، وصُودر الكثير من هذه الكتب عن رفوف المكتبات الألمانية.

لم يذكر الضباط الذين تحدثوا مع فان كمال بيك في حديقته في صباح ذلك اليوم المشرق الجميل من أيار كتبًا ألمانية مسروقة، لكنهم

اعتقدوا أنه بين النصوص الفريدة الكثيرة المحفوظة في مكتبة لوفان كان هناك نص لم يستطيعوا قبوله: سطر اتهامي واحد منقوش على الحجر.

لم تكن كتب مكتبة لوفان الكتب الوحيدة التي أحرقها النازيون، أو حتى أول كتب:

صُدم العالم المتحضر برمته حين في مساء العاشر من أيار/ مايو سنة ١٩٣٣ قام النازيون رسميًّا بحرق كتب المؤلفين غير المرغوب بهم، بما فيها كتاب مؤلفتنا هيلين كيلر، في ساحة فرانز جوزيف بين جامعة برلين وأوبرا الدولة في جادة أنتر دين ليندين، وقامت فرق الإغارة النازية بعد الظهر بالدخول إلى المكتبات العامة والخاصَّة، ورمتْ في الشوارع الكتب التي قرر الدكتور غوبلز بحكمته المطلقة أنها غير مناسبة لألمانيا النازية.

هذا ما ذكره لويس بي لوشنر، مراسل وكالة الأسوشييتد برس في برلين مصدومًا من مشهد إحدى عمليات الحرق الكبيرة للكتب التي نفّذها النازيون في ربيع ١٩٣٣.

رأى لوشنر النيران كتعبيرٍ عام عن شخصية جوزيف غوبلز، المفكر النازي البارز ووزير الثقافة المستقبلي للرايخ الجديد. لم يأمر غوبلز قط بحرق الكتب.

كان جَمْع الكتب وحرقها في الحقيقة من عمل مجموعة طلابية مؤيدة للنازية تُدعى هيئة الطلاب الألمان، وقام الطلاب بتطهير مكتباتهم ومكتبات مدارسهم، ثم انطلقوا إلى مكتبات بيع الكتب

ومكتبات الإعارة من أجل الوقود، وكان أمناء المكتبات المحترفون يمقتون هذه المكتبات منذ زمن طويل، وكانت الكتب الموجودة لدى بائعي التبغ وأكشاك الجرائد تتألف عادة من مجموعات صغيرة من الروايات الشعبية: قصص المغامرات العاطفية والقصص البوليسية، وما شابه ذلك. وشجبها أمين المكتبة المتعاطف مع النازية فولفانج هيرمان ناعتًا إياها بأنها «بيوت دعارة» أدبية، وكان حارقو الكتب يعتمدون على حكمة هيرمان - الذي كان يرسل إليهم بلطف قائمة المؤلفين - لاختيار وقود نيرانهم، وربما كان كتاب هاينريش هاينه «المنصور» الذي قدم لعالم مصدوم شهادة عن عمليات حرق الكتب على القائمة، وكان الطلاب وذوو القمصان البنية المتحمسون يصادرون كتبًا كثيرة لهاينه أو غيره سواء أكانت على القائمة أم لا.

وبالرغم من أن حارقي الكتب أتلفوا أعمال المسرحيين، إلا أنهم لم يفتقروا إلى الحس الدرامي.

أشار المؤرخ ليونيداس هيل إلى أن عمليات الحرق كانت مشاهد، و«كان المخططون واعين جدًّا للسوابق التَّاريخية، مثل: حرق محاكم التفتيش للهراطقة، وحرق لوثر للمراسيم البابوية، وإحراق الطلاب الألمان لاتفاقية فرساي في ١٩٢٩»، وكان الطلاب يستأجرون عربات روث تجرها الثيران لنقل الكتب إلى مواقع الحرق في أثناء عملية إحراق الكتب في فرانكفورت، وكان رجال الإطفاء يحضرون عمليات الإحراق من أجل الأمان والوقار المدني متوقعين إحدى مفارقات راي برادبري الرئيسة في رواية «فهرنهايت ٤٥١».

في هذه الابتكار وفي غيره، كان الطلاب الذين ينظمون عمليات

الحرق روادًا لجماليات مسرح الهواء الطلق، وهي تسليات ملهمة من النازيين رعتْها الحكومة وشكلت جزءًا من محاولة غوبلز الإجهاضية؛ كي يلغي الدراما الحديثة التي نعتها بأنها «منحطة»، ويفرض بدلًا منها طقوسًا مسرحية «جديرة بالنَّاس»، وكما أفاد لوشنر من برلين، أدى الطلاب «رقصات هندية حقيقية وتعاويذ حين كانت ألسنة اللهب ترتفع في السماء»، وقدمت هذه التعويذات التي دُعيت «خطابات النَّار» جوًّا شبه ديني للعمليات، وإحدى النسخ كانت كالآتي:

١- ضد الصراع الطبقي والمادية.
من أجل الجماعة القومية ووجهة نظر مثالية.
ماركس، كاوتسكي.

٢- ضد الانحطاط والانحلال الأخلاقي.
من أجل الانضباط والأخلاق في العائلة والدولة.
إتش. مان، إرنست جلايسر، إي. كاستنر.

٣- ضد الكلبية والخيانة السياسية.
من أجل الإخلاص للشعب والدولة.
ف. دبليو. فورستر.

٤- ضد المبالغة المهينة بطبيعة الإنسان الحيوانية.
من أجل نبل الروح البشرية.
المدرسة الفرويدية. مجلة إماجو.

٥- ضد تزييف تاريخنا وتشويه سمعة شخصياته العظيمة.
من أجل احترام ماضينا.
إميل لودفيغ، فيرنر هيجيمان.

٦- ضد الصحافة الأجنبية ذات الطابع الديمقراطي اليهودي.
من أجل مشاركة مسؤولة في عمل إعادة البناء القومية.
تيودور وولف، جورج بيرنهارد.

٧- ضد الخيانة الأدبية لجنود الحرب العالمية،
من أجل تثقيف الأمة بروح الجاهزية العسكرية.
إي. إم. ريمارك

٨- ضد التلوث العنيد للغة الألمانية
من أجل الحفاظ على ملك أمتنا الأغلى.
ألفرد كير.

٩- ضد الغرور والوقاحة.
من جل إجلال واحترام الروح الألمانية القومية الخالدة.
توكولسكي، أوسيتسكي

على الرغم من أن غوبلز لم يكتب «خطابات النَّار» أو ينظّم حرق الكتب إلا أن الطقس أمتعه، ووظّف على الفور طاقاته باسم الرايخ. وحين وصله خبر إحراق الكتب في برلين، اندفع كي يخطب في الرعاع في ساحة فرانز جوزيف، ونقل لوشنر كلامه: «أيها الرجال

والنساء الألمان، أنت تفعلون ما هو صائب في رمي الروح الشريرة للماضي في ألسنة اللهب في هذه الساعة المتأخرة من الليل. إنه فعل رمزي عظيم وقوي، فعل يشهده العالم كله، يتألق فيها ترتفع ألسنة اللهب. هذا سيكون قسمنا: الرايخ والأمة وزعيمنا أدولف هتلر: يحيا! يحيا! يحيا!».

لم يتأثر سيغموند فرويد الذي ظهر اسمه في «خطابات النَّار». رُويَ أنه سأل: «فقط كتبنا؟ كانوا سيحرقوننا معها في الأزمنة القديمة». لكن بدا أن فرويد نسي الكاتب هاينه. كانت هذه فقط البداية، إحدى عمليات الحرق الثلاثين الأولى للكتب الجامعية في ربيع ١٩٣٣. وعلى مدى الأعوام الاثني عشر التالية رافق مائة مليون كتاب (بحسب أحد التقديرات) ستة ملايين إنسان إلى ألسنة لهب المحرقة النازية (الهولوكوست).

بدأت الهجمات النازية على الثقافة قبل صعود هتلر الجنوني إلى السلطة في ١٩٣٣ كما بيّن ليونيداس هيل. وكان إريك ماريا ريمارك مانعة صواعق مبكرة للإحباط القومي، فقد مُنعت روايته «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» في مدارس ولاية تورينغن في بداية ١٩٢٩، وقام المتعصبون في أنحاء البلاد بطرد الأساتذة من مناصبهم. ورسموا فوق الجداريات التي عدوها مهينة، وأزالوا «الفن المنحط» من المتاحف، وأجبروا جامعة باهاوس على الإغلاق.

وفي ١٩٣٠ قُوطعت محاضرات توماس مان وابنته، وتلقيا هما وآرنولد زفايج وليون فوخت فاغنر وآخرون تهديدات هاتفية من العصابات النازية.

في آب/ أغسطس سنة ١٩٣٢، نشرت الصحيفة النازية «المراقب الوطني» قائمة بأسماء كتّاب ستمنع كتبهم إذا استولى النازيون على السلطة. وفي نيسان/ أبريل ١٩٣٣، أصدر ألفرد روزنبرغ مُنظِّر الحزب النازي وخصم غوبلز في المسائل الثقافية، قائمة متواضعة بأسماء اثني عشر مؤلفًا. لكن الحماس دبّ في الرقابة، بحسب هيل، في نهاية العام الأول من الرايخ، وقام ٢١ مكتبًا منفصلًا بشكل جماعي بحظر أكثر من ألف كتاب، وبعد عام، توحدت جهود أربعين وكالة لحظر ٤١٠٠ كتاب.

تنافس غوبلز وروزنبرغ في السنوات القليلة التالية على سلطة حظر الكتب وإعادة صياغة الأدب الألماني بحسب روح الشعب. وكان روزنبرغ، بالرغم من كل سلطته السياسية، مسؤولًا حزبيًّا فحسب، أما غوبلز، فقد كان وزراء الرايخ تحت قيادته. وهكذا حيث كان روزنبرغ يطلق اللعنات كان غوبلز يصدر المراسيم، وشجع حماسهما التنافسي على تيار من قوائم الكتب المشوشة والإدانات للأعمال الأدبية، وبقيت الرقابة حتى في أثناء تدعيم الرايخ تحت قيادة هتلر العمل اللامركزي لـ: وحدات شرطة الدولة، ورعاع الحزب، والمواطنين المتعصبين، وكان: الأساتذة، والطلاب، وبائعو الكتب، وأمناء المكتبات في أنحاء ألمانيا صامتين فيما كان النازيون يطهرون مكتبات المدارس من الكتب المحظورة. وكان يُسمح لأمناء المكتبة أن يستعيضوا عنها بمجموعات مفصلة لتلائم الذوق الأدبي النازي.

حوفظ على سرية قوائم الرايخ للكتب المطبوعة حتى في أوج

الرقابة النازية في أواخر الثلاثينيات وما بعدها، وتُرك: بائعو الكتب، والمدرسون، والمواطنون الخاصون؛ كي يستخلصوا المعايير من أجل استبعاد الكتب في ضوء تصريحات غوبلز المأثورة حول صيانة روح الشعب. وهكذا لم يكن الرعاع هم من أحرق الكتب فحسب، إذ قام الألمان العاديون بحرق كتبهم قبل أن تعثر عليها قوات الاقتحام خوفًا من تفتيش بيوتهم، وكتب هيل: «إنَّ من حاولوا حرق كتبهم اكتشفوا أن هذا لا يمكن أن يتم بسهولة وسرعة؛ لأن رزم الورق السميكة يجب أن تُفصل؛ كي يصبح من الممكن أن يدخل فيها الهواء وتستهلك ألسنة اللهب أوراقًا مفردة، وإلا فإن الرزم ستُحرق عند الحواف فحسب. أما حرق مجلدات ضخمة في المواقد والمدافئ، فقد كان مملًا ويستغرق وقتًا».

لم يحرق النازيون المكتبات فحسب، لكنهم بنوها أيضًا على طريقتهم غير القابلة للمحاكاة، وبدا كما لو أن تدمير الكثير من الكتب، وفرض الرقابة على الكثير من الأدب الألماني، أحدثا فجوة كان يجب أن تُملأ، أو على الأقل أن تغطى بصورة مؤلفة من الأدب النازي الأصلي تحت سيطرة أيديولوجية محكمة، وعمل النازيون إلى حدٍّ ما لتحويل الكتب المستولى عليها إلى رأسمال، وبينما كان الرايخ يحول نفسه إلى آلة حرب، صار الاستيلاء على مكتبات بيع الكتب التابعة لليهود مصدرًا للنقد من أجل عملية البناء العسكرية، وترافقت مصادرة الكتب والمخطوطات مع سرقة الكنوز الفنية التي ملأ بها النازيون خزائن الحكومة وجيوبهم، وكنزَ النازيون الكتب والفن، وأحيانًا تظاهروا بامتلاك: الخبرة، والذوق، والمسعى

الفكري.

كان ألفرد روزنبرغ الأكثر تعصبًا في هذا المجال. إذ بينما كانت قواته الخاصَّة (الكوماندوز) الثقافية التي دعيت قوة روزنبرغ للمهام الخاصَّة تطوف في أرض محتلة جديدة في الشرق دمرت مكتبات عظيمة، لكنها سطت على كثير منها أيضًا، وكتب هيل: «كلّف هتلر قوة المهام الخاصَّة في تموز/ يوليو ١٩٤٠ بالاستيلاء على الكتب من أجل إنشاء مكتبة جامعة نازية بعد الحرب. ورافقت وحدات من عشرين إلى خمسة وعشرين رجلًا في زي خاص الجيوش في الشمال، وحققت قوات المهام الخاصَّة في: ٣٧٥ أرشيفًا، و٤٠٢ من المتاحف، و٥٣١ مؤسسة، و٩٥٧ مكتبة».

واحتوى مقر روزنبرغ في برلين على مليون كتاب مسروق.

رفع الاستيلاء على الكتب اليهودية عدد مجموعة الكتب اليهودية في مكتبة مدينة فرانكفورت التي كانت تحت تصرف مؤسسة روزنبرغ لدراسة المسألة اليهودية إلى خمسمائة وخمسين ألف كتاب، وكتب هيل: «نهب النازيون في بولندا بين كانون الأول/ يناير ١٩٣٩ وآذار/ مارس ١٩٤٠، أكثر من ١٠٠ مكتبة، ويُقال: بأنه سُرقت ستمائة ألف كتاب من الأدبيات اليهودية والعبرية في مدينة وودج ومليون كتاب من بولندا كلها».

إن الألمان «أحرقوا بشكلٍ منهجي» مكتبة كراسنكي التي كان أمناء المكتبات البولنديون يستخدمون طبقاتها السفلى كمخبأ للكتب النادرة من المكتبة الوطنية في جامعة وارسو. و«في فيلنا أمر الدكتور جوهانز بوهل من قوة المهام الخاصَّة الخبير في الأدب العبري الذي

درس في القدس، باختيار عشرين ألفًا من المجلدات من بين مائة ألف جُمعت من بلدات عدة و٣٠٠ كنيس. وبيع ثمانون ألف كتاب كمواد خام لمعمل الورق»، ولم يتم السعي وراء الكتب اليهودية فحسب، فقد كانت: الكتب الكاثوليكية، وكتب الماسونية، والكتب السلافية كلها ناضجة للاختيار. وقال هيل: «سرق ١٥٠ من الخبراء الذين يعملون لقوة المهام الخاصَّة أو أتلفوا ٥١ مليون كتاب في أوكرانيا. وفي بيلاروسيا نُهبت أكثر من ٢٠٠ مكتبة. وفقدت المكتبة الوطنية ٨٣٪ من مجموعتها، وبالرغم من أنه عُثر فيما بعد على ستمائة ألف مجلد، إلا أنه فُقد مليون مجلد».

نشطت قوة المهام الخاصَّة أيضًا في الغرب، وبعد الاحتلال الألماني لروما في ١٩٤٣، فتش ضباط قوة المهام الخاصَّة محتويات مكتبتي الكنيس الروماني الكبيرتين اللتين كانتا تضمان مجموعات فائقة للعادة جُمعت طوال ٢٠٠٠ سنة من تاريخ الحياة اليهودية في روما.

طالبوا بفهارس المكتبتين، وفقط قبل أيام من ترحيل اليهود في روما إلى أوشفيتز، حُمّلتْ عربتا قطار طُلبتا بشكل خاص بعشرة آلاف كتاب من المكتبتين، وأُرسلتا إلى مؤسسة روزنبرغ في فرانكفورت.

كانت المكتبة العامة قبل الحرب مؤسسة محتضرة في ألمانيا، حيث بقيت مستودعًا لثقافة النخبة. وتصفُ المؤرخة مارغريت شتيك أمناء المكتبات قبل الحرب بأنهم انقسموا إلى مدرستين تُعرفان باسم: «الطَّريقة القديمة والطَّريقة الجديدة»، وأضفى أمناء المكتبات الذين يناصرون الطَّريقة القديمة – قسم التيار الرئيس من أمناء المكتبة، في

تقديرات شتيغ – طابعًا رومانسيًّا على المثل التقدمية التي حفّزتْ أمناء المكتبات في القرن التاسع عشر في مكان آخر: شدّدوا على أن الهدف الرئيس للمكتبة في المجتمع هو التَّعليم، أو النمو الفكري والروحي الشخصي، وكانت الطَّريقة الجديدة من بنات أفكار والتر هوفمان، وهو شخص متعلم من لايبزغ أصبح أمين المكتبة الأساسي للنازيين، ورأى هوفمان أن المكافآت الشخصية التي تقدمها المكتبة خاضعة لهدفها الرئيس: تطوير روح النَّاس، وكما تقول شتيغ:

نظرت الطَّريقة القديمة إلى إنكلترا والولايات المتحدة كإلهام، إلا أن الطَّريقة الجديدة عبدت النزعة الألمانية.

شددت الطَّريقة القديمة على الفرد، أما الطَّريقة الجديدة، فقد فكرت من منظار جمعي، مثل: «الجمهور»، أو «ربة المنزل البرجوازية»، ونظرت الطَّريقة الجديدة إلى التربية كعملية، وسيلة يستطيع فرد عن طريقها أن يحقق إنسانيته الكاملة. وبالنسبة للطريقة الجديدة كان التَّعليم مُنتَجًا يجب أن يُقدم لمستخدم المكتبة.

نظر أتباع الطَّريقة القديمة إلى الثقافة على أنها متنوعة ومتشعبة ومتغيرة، أما الطَّريقة الجديدة، فقد رأت «أن الثقافة لها شكل واحد فحسب». أراد هوفمان فقط الكتب «الجيدة» في مكتبته، وخاصَّة الأعمال الألمانية الكلاسيكية.

انتهى النزاع بين الطَّريقة القديمة والطَّريقة الجديدة حين استلم النازيون السلطة، وانضمت المكتبات إلى المهمة العظيمة والصوفية لصياغة عقول النَّاس في ألمانيا كشعب. وجسّد صعود النازيين

بالنسبة لأمناء المكتبات فرصة تمويل بلا حدود، فانطلقوا بسرعةٍ إلى العمل؛ كي يعيدوا بناء المؤسسات، ويساعدوا في تطوير الشعب، وسعوا إلى إنهاء اشتباه النازيين بالكتب التي عدّها هتلر مستودعات متدنية للتجربة الداخلية إلى جانب أشكال جماعية أكثر قوة مثل فن العمارة، وصارت وظيفة المكتبة كما عرّفها الرايخ السيطرة على الطاقات البرجوازية الخطيرة للقراءة التي هي مشتتة وعقيمة لمساعدة النَّاس في العثور على معلومات مفيدة دون أن يحطوا من «روحها».

وقالت شتيك: إن أمناء المكتبة عملوا بكدٍّ كي يحيلوا التناقض النازي حيال القراءة إلى شعارات مفيدة، لتنسيق المكتبة مع الرايخ الثالث، وصرّح هتلر بأن القراءة يجب أن تكون «غريزية»، يوجّهها حدس الشعب لا المثقفون.

في ١٩٣٥ تبنى أمناء المكتبة الألمان شعار «الكتاب سيف الروح» من أجل احتفالات «أسبوع الكتاب» السنوي الخاص بهم، واقتطف ملصق أسبوع الكتاب في ١٩٣٦ كلامًا مطولًا جدًّا للفوهرر: «باستثناء فن العمارة، والذهاب النادر لحضور أوبرا، لدي الكتب كأصدقاء وحيدين، التي أقرأها بنهم، وفي حوالي بضع سنوات وضعت الأساس لمعرفة ما أزال أستمد منها». وأشارت شتيغ إلى الطاقات المتناقضة لهذه المقولة، وتخدم القراءة في المثال النازي هدفًا محدودًا، فهي مرحلة أولية من الحياة، وضرورة يجب التغلب عليها.

دعم أمناء المكتبة موقعهم المهني في الرايخ الجديد أينما استطاعوا بالرغم كل شيء. وساعدوا في جمع قوائم مؤلفين كي يراقبوهم،

واستأصلوا خصومهم في مكتبات الإعارة الصغيرة ذات الوزن الخفيف، وطهروا مجموعاتهم الخاصَّة استباقيًّا مما دعاه غوبلز أدب «الإسفلت»، أي: كل ما كان حديثًا وغامضًا. وبحسب شتيغ لم تضع المكتبات في أي مكان أرضية العمل للمثل النازية أفضل مما فعلته في الجماعات الناطقة بالألمانية للأمم التي خارج ألمانيا.

استخدم النشطاء في: تشيكوسلوفاكيا، وبولونيا، والألزاس، واللورين، وفي أمكنة أخرى المكتبات لتوليد إحساس بالارتباط العرقي الذي كان قومي التوجّه قبل وقت طويل من نشوء الاشتراكية الوطنية.

وفي آب/ أغسطس ١٩١٩ - بعد ستة أسابيع من توقيع اتفاقية فرساي للسلام - نظم الوطنيون خدمة كتاب الأرض الحدودية لتعزيز المكتبات وغرف القراءة بين الجماعات الناطقة بالألمانية خارج حدود جمهورية فايمار، وروت شتيغ أنَّ الداعم الكبير لمكتبات اللغة الألمانية في الخارج كان فيلهليم شيفن وهو متطوع في الحرب العالمية الأولى أنشأ جمعية نشر الكتابة الشعبية الجيدة، وبعد صعود النازيين، دُمجت خدمة كتاب الأرض الحدودية بسلاسة في الرايخ، وصارت قناة مهمة لنشر أيديولوجية البيئة الحيوية والهوية الآرية، وبفضل دعم كريم من الدولة كان غائبًا في الوطن، صارت المكتبات الألمانية قوية في تشيكوسلوفاكيا (بلاد طبيعتها متعددة الأعراق دعاها الرايخ في تصريح أنها «عار على أوروبا»)، لكنها صارت على أيدي العاملين في خدمة كتاب المناطق الحدودية مراكز أمامية للاشتراكية الوطنية.

من المؤسف أن الحقبة النازية صارت عصرًا ذهبيًّا منحرفًا لأمناء المكتبة في ألمانيا، على الأقل لأولئك الذين استطاعوا دمج أوراق الاعتماد العرقية الملائمة مع قرابة للذوق الثقافي النازي الخبيث، كما كتبت شتيغ:

أكمل أمناء المكتبة إعادة توجيه المهنة عن طريق الاستيلاء على بعض الموضوعات النازية وثيقة الصلة وتطبيقها بطريقةٍ خاصَّة على المكتبة العامة، وشُدد على السمة السياسية للمكتبة العامة، وأُدخلت فكرة الشعب. ورفضت نظرية المكتبة النازية فايامار بصلف، وكان هذا الرفض في الحقيقة شجبًا للتنوع الثقافي، وقاد مباشرة إلى تطهير المجموعات.

أشارت شتيغ إلى المأزق المزدوج الذي وجدت فيه المكتبات الألمانية نفسها في الحقبة النازية. «ما جعل هذه المهنة الصغيرة وغير المهمة»، التي كانت أكثر هامشية في ألمانيا من أي مكان آخر، «جديرة بالانتباه هو أن أمناء المكتبات كانوا حافظي مجموعات المكتبة، واقتنى أمناء المكتبات الكتب ومواد قراءة أخرى، ونظموها، ونشروها. وأدى تصميم النازيين على إملاء ما يقرأه النَّاس، والأكثر أهمية، ما يجب أن يمتنعوا عن قراءته، إلى نقل أمانة المكتبة من اهتمام حكومي هامشي إلى محوري». في هذا الخصوص، نشد أمناء المكتبة «التنسيق» بشكل فعال في الأعوام الأولى من الرايخ.

برهنت المكتبات أخيرًا أنها هامشية للنازيين؛ لأن استخدامها كان اختياريًّا، وكما بيّنت شتيغ، لم تستطع الحكومة أن تجبر النَّاس على

نحو فعال على استخدام المكتبات بالطَّريقة التي استطاعت بها إجبارهم على استخدام مؤسسات ثقافية أخرى، وخاصَّة النظام التربوي. وهكذا خفّ حماس النازيين للكتب كسيوف للروح، واشتهى الرايخ الكتب، بل سيوفًا دموية، وكانت مساومة أمناء المكتبة مع النازيين في النهاية فاوستية: استطاعوا البقاء والاستمرار عن طريق طمأنة الرايخ برضاهم وهامشيتهم.

ولكن إذا تمكنت إدارة المكتبات الألمانية من النجاة من صفقتها الشيطانية مع النازية بشق النفس، فقد ازدهرت المكتبات في أماكن أخرى، حتى حيث كانت الإبادة النازية قائمة، وقال ديفد شافيت في كتابه: «الجوع للكلمة المطبوعة»، كانت المكتبات جزءًا من البقاء في الغيتوات ومعسكرات الحل الأخير. ففي تيريزينشتات «نموذج المدينة اليهودية» السيئ الصيت أنشأ الرايخ قرب براغ مكتبة مزدهرة فيها مائة ألف كتاب. وحتى المجمع السكني ٣١ في بيركيناو كانت فيه مكتبة، وهي عبارة عن مجموعة متواضعة من ثمانية مجلدات أُقفل عليها في غرفة كبار السن في البناء. وفي غيتو فيلنا، وسط وضع مزرٍ وكريه وتهديد مستمر بالترحيل إلى معسكرات الموت بنى اليهود مكتبة. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٢، أعدّ أمين المكتبة هيرمان كروك تقريرًا حول السنة الأولى لمكتبة غيتو فيلنا، كانت وثيقة فائقة للعادة موجودة الآن في مجموعة مؤسسة يفو في نيويورك، وترجمها زاكاري إم. بيكر. وتشكل عمل علم مكتبات جيد وصرخة تمزج بين الرجاء واليأس في آن.

وكتبت دينا أبراموفيتش، التي عملت في المكتبة، عن اللقاء به في الغيتو للمرة الأولى:

في مساء أحد الأيام، ونحن نخرج من مساكننا المكتظة إلى الحي اليهودي، صادفتُ هيرمان كروك، مدير مكتبة جروسر السابقة في وارسو، المركز المهم للأنشطة اليديشية الثقافية العلمانية والاشتراكية.

جاء كروك مع جدول اللاجئين اليهود من وارسو، وبقي آملًا أنه سيعود إلى وارسو؛ كي ينقذ زوجته من براثن النازية، فلم ينجح، وبقي عالقًا في فيلنا.

تذكرتْ كروك أبراموفيتش من زياراته إلى مكتبة الأطفال، حيث كانت تعمل، وأخبرها أنه أقنع المجلس اليهودي، الذي يدير الغيتو اليهودي، بأن يرعى تأسيس مكتبة جديدة في صالات المكتبة القديمة. وشرح لها أن عمّال المكتبة يمكن أن يتقاضوا أجرهم من المجلس نفسه، ما يزيد فرصة أن يحصلوا على تصريحات عمل ضرورية لتجنب الترحيل.

انضمت أبراموفيتش إلى موظفي كروك القليلين في الصالات الباردة للمكتبة، وعملوا باستمرار، رمموا الغرف، وأدخلوا الكتب، وفهرسوا المجموعة، ولم يتوقفوا عن العمل إلا في الشتاء حين كانت درجة الحرارة في البناء غير المُدفَّأ تنحدر إلى ما تحت درجة التجمد، وكان كروك لا يكلّ بالرغم من جوعه ويأسه. وعلاوة على إدارته للمكتبة كتب يوميات ذكر فيها تفاصيل مؤلمة عن حياة الغيتو،

وتحدث فيها عن الحفلات والمسرحيات التي أداها يهود متعطشون للثقافة، ووصف أيضًا دون إغفال أي تفصيل تعذيب سكان الغيتو وترحيلهم والتجارب المروعة لأولئك الذين هربوا من قتلتهم الليتوانيين في بوناري، ساحة الإعدام القريبة في الغابات التي تقع خارج فيلنا.

حظي كروك وزملاؤه بلحظات نادرة من الراحة وحتى المتعة بين الكتب وهم يعدون بطاقاتهم الفهرسية داخل حدود المكتبة الباردة، وحاول كروك أن يوثق هذه اللحظات ويبحث عنها في تقريره، وتسجل إحصاءاته التي استخدمها «كي يدخل القارئ في الغيتو في راحة نفسية تعتمد على ثقافة الكتب»، تفاصيل متنوعة: عدد الكتب في المكتبة واللغة التي كُتبت بها وعدد المرات التي طُلبت فيها وخلفية قرائها. وقدمت هذه المعلومات صورة عمَّا عنتْه القراءة لأعضاء جماعة نُفيت إلى الجحيم.

قال كروك: إنَّ المكتبة الرئيسة لجماعة فيلنا اليهودية مكتبة ميفيستي هاسكالاه كانت تحتوي خمسة وأربعين ألف كتاب مهم في ١٩٣٩، قبل أن يُدفع اليهود إلى الغيتو. وأضاف أنه في الأيام الأولى لأيلول/ سبتمبر من عام ١٩٤١، فقدت هذه المكتبة تقريبًا ٢٠٪ من كتبها، وفهرسها المؤلف من أربعين ألف بطاقة أيضًا، بعد أن صادرها المحتلون الألمان الذين أخرجوا ألف وخمسمائة مجلد بـ: الفرنسية، والإنكليزية، والألمانية. وأشار كروك إلى أنه «ضاع» أربعة آلاف مجلد آخر حين نُقل اليهود إلى الغيتو، مما لا شك فيه أن كثيرًا من الكتب فُقد مع قرائها قبل السّوْق الألماني الماكر، واختفى

الموظفون في هذه المدة، فقد قبض الألمان على المدير فيفوش كراسني وأعدموه في أيلول/ سبتمبر ١٩٤١. وكان أحد اليهود التسعة عشر ألف الذين أُعدموا رميًا بالرصاص في بوناري قبل تأسيس الغيتو، وبين تشرين الأول/ أكتوبر وكانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١، سيقَ ثلاثة وثلاثون ألفًا وخمسمائة يهودي آخر من الغيتو وأُعدموا، وبقي عشرون ألفًا من اليهود تقريبًا أحياء في فيلنا. في أثناء هذا الوقت الجحيمي جمع كروك معًا طاقمًا لتشغيل المكتبة مرة أخرى وإعادة فهرسة محتوياتها، وخدمة القراء كيفما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، حيث أضافوا لبعض الوقت مجلدات إلى المكتبة في أعداد كبيرة. وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٢، أقام الغيتو حفلًا لإحياء ذكرى حقيقة مدهشة: تم توزيع مائة ألف كتاب منذ أن أعاد كروك فتح المكتبة، لكن مشاعر كروك حيال رفوفه المنتفخة كانت مشوشة، فقد سجل في يومياته أن خدمة روزنبرغ لكتب الحدود كانت ترسل له كتبًا مصادرة من الكنس والمنازل الخاصَّة التي اقتحموها ودمَّروها في محاولة؛ كي «يقتصر وجود الكتب اليهودية على الغيتو».

وروت أبراموفيتش كيف كان مكتب كروك يطل على الساحة التي صُف فيها أعضاء الجماعة وأُعدموا رميًا بالرصاص.

صفرت ريح قارسة عبر الصالة الكبيرة المجاورة التي حولها كروك إلى غرفة قراءة جديدة ومتحف، وفي الحال كتبت أبراموفيتش:

أزيحت ألواح الزجاج المحطمة، ورُكبت أخرى جديدة، ودُهنتْ الجدران بطلاء جديد، ورُكّبتْ خزانات زجاجية على طول الجدران

وُضعت فيها لفائف مخطوطات التوراة وآنية نبيذ فضية وشمعدانات، وستائر مطرزة لحجرات مزخرفة تحتوي مخطوطات التوراة، فازداد عدد مخطوطات التوراة التي يملكها المتحف بصورةٍ معتبرة مع مرور الوقت، ووصلت على نحو غامض من القرى المحيطة. وكانت إشارات واضحة إلى اختفاء الجماعات اليهودية.

لم يُنصح بعرضها، بل كان من المستحيل عرضها كلها إلا إذا أراد المرء أن يُظهر أنَّ المتحف مقبرة، وكانت المخطوطات ملفوفة بأغطية الأسرة وتتوضع صامتة ومُخبأة في زاوية أرشيف الغيتو.

زار أربعة آلاف وسبعمائة مشترك المكتبة في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٢ كما أفاد كروك، وترافق نمو المجموعة مع افتتاح المكتبة «فروعًا» في سجن الغيتو ومنزل الأطفال وأمكنة أخرى، وتولى موظفو كروك عملية إعادة فهرسة صارمة للمكتبة، وأنتجوا سبعة وعشرين فهرس موضوع ورسومًا بيانية صورت عددًا كبيرًا من الحقائق، وظهرت بنية مجموعة الكتب معًا كرف. حيثُ يمثِّل كل كتاب ألف مجلد، وأظهرت أنواع الكتب التي أُعيرت أيضًا الكتب ككتب مكدَّسة بجوار بعضها البعض، وكان هناك مجلد ضخم يمثل ٧٨،٣٪ من الكتب المعارة التي كانت أدبًا، إلى جانبه توضّع مجلد أصغر يمثل أدب الأطفال (١٧،٧٪ من ما هو معار) وكتاب ضئيل منمنم للكتب غير الروائية (٤٪).

ويشير كروك عن طريق هذه القوائم وقوائم أخرى، إلى الاتجاهات السَّائدة، وتزايدت نسبة الكتب في اللغة اليديشية

والعبرية منذ «الفعل» الذي أغلق الغيتو، وهكذا قراء المكتبة: فقد أخذ ٢٠٪ من المشتركين الكتب إلى الخارج في أثناء الأسبوع، وفي يوم الأحد، ارتفعت النسبة إلى ٢٥٪.

لم تكن كتب المكتبة جيدة وجديدة مثل رسوم كروك البيانية الآملة، ووصفت دينا أبراموفيتش مخزون الكتب في المكتبة قائلة: «كانت هناك مجلدات فُقدت منها عشرات الصفحات في البداية والنهاية، وربما ليس أقل من هذا في الوسط، وجُلدت وأعيد تجليدها مرة بعد أخرى؛ بحيث إن الهامش كان مفقودًا، واختفت بدايات الأسطر في مكانٍ ما في عمود الكتاب الفقري، وكانت باختصار كتبًا مصابة بإعاقة حقيقية، وكان يجب التخلص منها منذ وقت طويل».

كان سكان الغيتو متعطشين للكتب بصرف النظر عن وضعها، وفي قسمٍ يحتوي ملخصًا من تقريره بعنوان: «معجزة الكتاب»، حاول كروك أن يكتب «المواصفات النفسية» لقرائه، سأل: «من ستفيد هذه الكتب الآن؟» وأشار إلى أنه في الأيام الأولى، حين كانت المدينة «غارقة في الدم اليهودي»، لم تكن القراءة ترفًا مستحيلًا فحسب، بل «انسحابًا من الأوضاع المحيطة»، ولكن سكان الغيتو اكتشفوا في وقت مبكر أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا دون «مخدر» الكتب، وحتى في وسط «أفعال» الترحيل، كانت الكتب تنتشر كما كتب كروك: «ترك كل فعل ميراثه»، ومع القراء «الذين أعيرت لهم الكتب»، غادرت الكتب أيضًا، وبقي عدد أقل من النَّاس في الغيتو، وعدد أقل من الكتب في المكتبة، قال كروك:

كان قارئ الغيتو مشلولًا نفسيًّا، ومَثَله الأعلى الهروب، كان

اهتمامه الأدنى هو على الأقل أن يبقى على قيد الحياة، وكان هناك أمران ممكنان فحسب: القراءة من أجل هدف النشوة - أي: من أجل التوقف عن التفكير - أو على العكس، القراءة من أجل التأمل والتفكير أن تصبح مهتمًا بمصائر قابلة للمقارنة، وتبحث عن التشابهات وتتوصل إلى استنتاجات محددة. يجب على القارئ في غالب الأحيان أن يستخدم الكتاب كمرآة كانعكاس لموقفه والأوضاع المحيطة.

تشابهات: ثبت أنَّ الشخص الجائع يقرأ بلهفة عن الجوع، بينما شخص بمعدة متخمة لا يستطيع أن يلتزم بهذا النوع من المواضيع. هنا، في أوضاع الغيتو، وسط طبقة محددة من الأنتلجنسيا الناضجة اجتماعيًّا، تحتل المرتبة الأولى قراءة إل. إن. تولستوي (في اللغات المتوافرة كلها)، وخاصَّة روايته الضخمة «الحرب والسلم».

تضم كتب مرغوبة أخرى رواية حظرها النازيون بعنوان: «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» وأعمال الأدب والتَّاريخ اليهوديين. كان من الكتب المشهورة أيضًا كتاب عن المجزرة التي ارتكبها الأتراك ضد الأرمن. مرة سأل هتلر دائرته الضيقة: «من يتذكر الأرمن؟» مؤكدًا لهم أن التَّاريخ في النهاية سيتجاهل الحل النهائي أيضًا، لكن سكان الغيتو تذكروا الأرمن.

حين يتعلق الأمر ب «الكتلة الكبيرة» من القراء، «فإنها تكتفي بمادة قراءة تبعدها عن الواقع، ذلك أن هناك شخصًا ينفصل عن واقعه عن طريق التسلية، بينما يسعى شخصٌ آخر إلى الفهم

والاستيعاب».

إن الدافعين هما في النهاية «وسيلتان للهروب» فحسب، كما قال كروك، وهذا يجمع بين الكآبة والمعرفة. «إن مؤونة الكتب تمكننا من أن نتغذى بالبقايا فحسب، ولا يُضاف أي شيء جديد، كما أنَّ الكتب ممزقة، وستصبح مجموعات كاملة مجموعات محطمة، وفي الحال ستفرغ رفوف المكتبة.» وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٤٣، قبل أسبوع من التصفية النهائية للغيتو، رُحِّل كروك إلى إستونيا. وبعد عام، أُحرق حيًّا في معسكر كروجا للتعذيب.

كانت قائمة الكتب التي أُتلفت في القرن العشرين طويلة، حين غزا جيش التحرير الشعبي التبت دمّر عددًا كبيرًا من الأبرشيات، ورُميتْ مئات آلاف الكتب في ألسنة اللهب. انقرض الشَّكل المتميز للكتاب التبتي المطبوع، المخطوطات الطويلة والضيقة المطبوعة على كتل خشبية اكتست بأغلفة من الزعفران مخيطة بخيط قرمزي، وكان هذا شكلًا أقدم بقرون من الكتاب المقدس لغوتنبرغ، ونقل الرهبان واللاجئون مكتبات كاملة عبر الحدود إلى الهند على ظهور الأحصنة والبغال، حيث لم يبنوا مكتبات كاملة فحسب، بل شرعوا أيضًا بإنشاء مطابع جديدة، وحافظوا على صنعة الكتاب التبتي، كما حافظوا على نسل حيوانات اللامة حيًّا. وفي أمكنة أخرى في الصين، عانت الكتب على نحو مريع في أثناء الثورة الثقافية، لكن الكتب كانت تُحرق في الأمكنة التي تُقرأ فيها كلها، فقد أحرق القوميون السنهاليون المكتبة التاميلية في جافنا في سريلانكا، وكانت هذه

المكتبة التي احتوت: آلاف المخطوطات، ولفائف سعف النخيل، والكتب المطبوعة إحدى مستودعات جنوب آسيا الأعظم للثقافة والتَّاريخ، وشكلتْ شهادة حية على مجتمع سريلانكي متعدد الأعراق وعالمي، وقبل ثلاثة أعوام من تلغيم حركة طالبان لتماثيل بوذا وتفجيرها في باميان، أعلنت الحركة عن رغبتها في تدمير الثقافة عن طريق حرق خمسة وخمسين ألف كتاب في مركز حكيم ناصر خسرو البلخي الثقافي، في شمال أفغانستان، أمام بصر المدير المرعوب.

إن حرق مكتبة مجرد طريقة أكثر وحشية للتعبير عن الرأي، وكانت المكتبات التي تُترك سليمة تتحول إلى أدوات قمع وإبادة جماعية أيضًا بما أنها تقدم معايير تعكس أوهام القومية المقدسة وإرادة النقاء.

يقول ريتشارد رايت في ما هو ربما مشهد الذروة في كتابه «الفتى الأسود»، سيرته الذَّاتية المحزنة: إن المكتبات في الجنوب الذي كان يعيش فيه جيم كرو لم تعد بعض الكتب منتهكة للحدود فحسب، بل تبنّتْ أيضًا فكرة أن بعض النَّاس غير مناسبين؛ كي يكونوا قراء.

وإذا كانت المكتبة الجديدة قد قدمت أملًا تقدميًّا كبيرًا، فإنها استطاعت أن تسبب ألمًا لا يُطاق في سحب ذلك الأمل.

بدأ اهتمام رايت بالكتب كما يروي حين كان عاملًا في مصنع في سن السابعة عشرة وعثر على افتتاحية جريدة تشجب كتابًا للمؤلف إتش. إل. مينكين. وبعد أن قام بتقييم ذكي للظلم الذي واجهه في الجنوب، اعتقد أنه إذا كانت صحيفة جنوبية تكره ما كتبه مينكين،

فهذا يعني أن لديه شيئًا مهمًّا يقوله. أراد أن يقرأ مينكين، لكن المكتبة كانت مغلقة في وجه السود، وعرف رايت أن الخطة التطويرية التي شجعها أمناء المكتبة في القرن التاسع عشر لم يكن لأمثاله مكان فيها.

ربما كانت هناك طريقة في النهاية: كان يُسمح له بالدخول في السابق من أجل أن يُحْضر كتبًا يطلبها الرجال البيض الذين يعمل لديهمن وكان في الحقيقة يحصل عليها لنفسه، فقد لجأ إلى هذا الخيار بحذر، ذلك أن الاقتراب من الرجال الخطأ يمكن أن يؤدي إلى العنف. وقرر أخيرًا أن يطلب من السيد فولك، وهو رجل كاثوليكي لاحظ أنه غضب من التعصب الأعمى الذي عانى منه على يد بروتستانت الجنوب.

وافق الرجل مترددًا وقال: إن رايت يستطيع أن يستخدم بطاقته، ويزوّر اسمه على الأوراق التي تطلب الكتب، شرط أن يتحمل المسؤولية الكاملة إذا اكتُشف.

يكشف تصوير رايت لمخاطر غزواته للمكتبة أنه كان يعيش في دولة بوليسية يتولّى السلطة فيها رجل أبيض، ذلك أن أمرًا لا يبدو مؤذيًا مثل طلب الكتب من المكتبة تحوّل إلى استجواب، وكانت زيارته الأولى إلى المكتبة بالبطاقة التي استعارها مروعة، وبالرغم من أن رايت زار المكتبة مرات عدة من قبل، بالنِّيابة عن «البيض»، صار يخشى الآن من أن «يزلّ ويفضح نفسه» نوعًا ما.

حين وصل إلى المكتب نزع قبعته وانتظر إلى أن تمت خدمة البيض الذين في الطابور، وحاول أن يبدو «غير مثقف قدر الإمكان».

رأته أمينة المكتبة أخيرًا، ودون أن يتحدث سلّمها بطاقة المكتبة

ورسالة مزورة كُتب عليها عنوان كتابين لمينكين.

مالت أمينة المكتبة في البداية للشك، فذكّرها رايت بأنه أدى مهمات في المكتبة للسيد فولك من قبل، لكنها بقيت متشككة، وسألته إن كان يخطط لقراءة الكتابين، فأجابها رايت: «آه، لا يا سيدتي، لا أعرف القراءة».

استدارت بعيدًا؛ كي تحضر الكتابين مغمغمة كلمات عن مينكين. تذكّر رايت: «أعرف أنني فزت. كانت تفكر بأمور أخرى، وخرجت المسألة العرقية من ذهنها. أخيرًا، جاءت حاملة الكتابين». عبر رايت الحد بأمان، فخرج ماشيًا بالكتابين في ذلك اليوم، كتابيْ مينكين: «كتاب المقدمات» و«المسبقات».

استخدم رايت بطاقة المكتبة كتأشيرة دخول إلى عالم الكتب، فقال: إن ما أدهشه في البداية هو قوة التعبير وليس الكلمات، وإمكانية تحلّي البشر بالشجاعة؛ كي يعبّروا عنها. لكن حساسيته الخاصَّة برزت، وبدأت بالنمو بعد قراءة الروايات.

لم يعد يبحث عن قراءة ترفيهية، ذلك أن رايت عثر في الروايات على وسيلة لإعادة بناء عالمه.

فهم من قراءته رويات سنكلير لويس رئيسه على أنه مثل شخصية إلمر جانتري، واطلع من طريق قراءته لدرايسر على معاناة أمه في ضوء جديد التي لم يكن قادرًا على مواجهتها حتى ذلك الوقت، فقال: «كان من المستحيل بالنسبة لي أن أخبر أحدًا ما الذي ألهمتني إياه تلك الروايات، فكان الإحساس بالحياة ذاتها».

لكنه كان زمنًا خطيرًا بالنسبة لرايت، ذلك أن ولعه المكتشف

حديثًا بالكتب أثار اشتباه الرجال البيض الذين أظهروا له أنهم أفضل منه.

«يا ولد، لماذا تقرأ هذه الكتب؟»

«آه، لا أعرف يا سيدي».

«هذا الكتاب الذي تقرأه عميق يا ولد».

«أنا أبدد الوقت فحسب يا سيدي».

«سيشوّش ذهنك إذا لم تنتبه».

خشي رايت أنه في أي لحظة يمكن أن تكشف حساسيته الموسّعة حديثًا نفسها، وتغري رجلًا أبيض؛ كي يتدخل ويحجّمها مرة أخرى. حرس جميع كلماته ووجهه؛ كي يخفي آثار معرفته الجديدة كلها.

مما لا شك فيه أن استقبال رايت في المكتبة كان نموذجيًّا في عصره، فقد واجه الأمريكيون السود شمالًا وجنوبًا: الازدراء، وسوء الفهم، والعداء المباشر في المكتبات العامة، وكتب آرثر بوستويك في ١٩١٠ قائلًا: «لا يوجد تمييز في الولايات الشمالية نظريًّا، وبالرغم من هذا، فإن الزنجي في الشمال لا يستخدم المكتبة كما يمكن التوقع. يجعلونك تشعر غريزيًّا، سواء أكان هذا منصفًا أم لا، فإن العِرق ليس مرغوبًا».

لم تفتح المكتبات العامة أبوابها في الجنوب للزنوج حتى السنوات الأولى من القرن العشرين بحسب دراسة أجرتها إليزا أتكينز جليسون في ١٩٤١ صدرت بعنوان: «الزنجي الجنوبي والمكتبة

العامة»، إلا أن الكليات الخاصَّة بالسود جعلت مصادر مكتباتها متاحة للجماعة، ودربت في بعض الأحيان أمناء المكتبات من أجل خدمات المكتبة العامة، لكن الاستقبال العام للسود كان محدودًا جدًّا حتى في تلك الولايات التي توافرت فيها المكتبات المؤثثة. كان في جورجيا مثلًا خمس وثلاثون مكتبة في ١٩٣٦ لم يخدم السود إلا خمس منها، ومن بين أربع وأربعين مكتبة في فلوريدا استطاع السود الدخول إلى أربع منها. وفي العام نفسه كانت واحدة من المكتبات العامة التسع عشر في ولاية أركنسا مفتوحة للسود فقط، وكان هذا نموذجًا متبعًا في الولايات الجنوبية كلها تقريبًا من بين المكتبات الثماني عشر في ألاباما، لم تسمح إلا اثنتان بدخول السود، ومن بين مكتبات كنتاكي الأربع وستين سمحت أربع عشرة بدخولهم، ومن بين مكتبات لويزيانا الست عشرة سمحت ثلاث بدخولهم، ومن بين مكتبات الميسيسبي الاثنتين وعشرين لم تسمح بدخولهم إلا اثنتان. إلا أن ولاية فرجينيا الغربية كانت متميزة، ذلك أن قانون الولاية في ذلك الوقت فرض على المكتبات التي تتلقى دعمًا ماليًّا من الحكومة أن تقدم خدمة كاملة للسود.

لم تذكر الدراسة نوع الخدمة، وفي تكساس تجاوزت النسبة المئوية للمكتبات العامة التي تخدم السود نسبة السود المئوية من السكان، وكان الاختلاف مدهشًا في معظم الحالات: في المسيسيبي مثلًا، شكّل السود ٥٠،٢٤٪ من عدد السكان الإجمالي، بينما سمح لهم ٨،١١٪ من مكتبات الولاية بالدخول.

لم يضطر الأمريكيون من أصل إفريقي إلى أن يزوّروا دائمًا

الرسائل؛ كي يحصلوا على الكتب، ففي الجنوب كانت هناك على مر التَّاريخ مكتبات الكليات الخاصَّة بالسود، وفي الشمال قبل الحرب شكّل الرجال الذين تم تحريرهم من العبودية جمعيات أدبية، وجعلوا الكتب متاحة لجماعاتهم عن طريقها، وكما بينت المؤرخة إليزابيث ماكهنري: ازدهرت تلك المكتبات الاجتماعية على نحو مستقل عن الرعاية التي كانت غالبًا أبوية، وقدمها دعاة إلغاء الرق البيض، وأسهمت في إحساس أمريكي إفريقي بالهوية اشتدّ عوده في أثناء القرن التاسع عشر.

ومن سخرية الأقدار أن إحدى المكتبات العامة الجنوبية التي جعلت الكتب متاحة للسود كانت في مدينة ريتشارد رايت، ممفيس، وكتب جليسون قائلًا: إنه في ١٩٠٣ قامت مكتبة كوسيت في ممفيس، تينيسي، بإبرام اتفاقية مع مؤسسة ليمون، وهي كلية للزنوج، تؤثث بموجبها الكلية الغرفة، بينما تقدّم مكتبة كوسيت أمين المكتبة والكتب. وعلاوة على كونها مكتبة مدرسة، كانت تلك المجموعة من الكتب متاحة لجميع الزنوج المهتمين في مدينة ممفيس ومقاطعتها المحيطة.

كانت دار بلدية سارابيفو مثالًا مدهشًا على طراز الهندسة المعمارية المغاربية، وافتتحت على ضفاف نهر الميلجاكا في ١٨٩٦.

وكتب كورت شورك في صحيفة «النيويورك تايمز» قائلًا: «عبّر جمعها بين البناء المهيب والبساطة عن شخصية المدينة بعد الحرب».

وفي ١٩١٤ بدأ الأرشيدوق فرديناند وزوجته صوفيا رحلتهما المهلكة بالسيارة على نهر الماجيكا، حيث بعد بضع لحظات خرج

غافريلو برينسيب من الحشد وأطلق الرصاصة التي أشعلت الحرب العالمية الأولى، لكن أهمية البناء في أثناء العصر اليوغسلافي تستند إلى مهمته بعد الحرب، ذلك أنه كان يأوي مليونًا ونصفًا من الكتب من مكتبة البوسنة الوطنية والجامعية.

في الخامس والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٩٢، في الساعة العاشرة والنصف تقريبًا، قامت مدفعية القومي الصربي الجنرال راتكو ملاديتش المتمركزة شمال طريق سراييفو- بيل على الأرض المرتفعة لجبل تريبيفيتش بقصف المكتبة الوطنية والجامعية البوسنية على ضفة النهر المقابلة.

أفاد سكان حي دار البلدية أنَّ القصف الكثيف للمدينة تركز فجأة على المكتبة، وهزت المدينة سلسلة انفجارات فيما اخترقت القذائف الحارقة سقف المكتبة، وسقطت في الداخل مشعلة رفوف الكتب.

أسرع كثير من سكان سراييفو إلى المكتبة، وبذلوا جهدًا هائلًا لإنقاذ الكتب من ألسنة اللهب المتأججة ولمساعدة الناجين على الخروج من البناء.

توفيت الموظفة عايدة بوتورفيتش في الحريق الهائل. وأظهر فيلم جرى تصويره داخل المكتبة في أثناء الحريق جحيمًا تستعر في القاعة الرئيسة الواسعة، وامتلأ الجو بالدخان وندف الصفحات الممزقة المتطايرة.

وحين وصل رجال الإطفاء تعرضوا للهجوم، ذلك أن الجنود في التلال استخدموا القذائف المضادة للطيران والرشاشات التي لم

تلحق أذى كبيرًا بالبناء نفسه، لكنها قطّعت الأنابيب ورجال الإطفاء إلى شرائط، وانتزع الجنود البوسنيون بين عشية وضحاها الكتب من المكتبة تحت وابل نيران مدمرة من مواقع القوميين الصرب، وتواصلت جهود الإنقاذ أيامًا متتالية. وتذكّر قائد فرقة إطفاء فيما بعد أنه راقب الكتب تتطاير في الجو فوق المكتبة، وتحدث مراقبون عن الرماد والورق من نار المكتبة اللذين ملآ فناءاتهم، وروى أحد سكان سراييفو للصحافي كورت شورك أن «البناء بدا جميلًا حتى وهو يشتعل»، وجمع الشاعر البوسني جوران سيميك قطع ورقة محترقة وهي تتساقط، وألف لاحقًا قصيدة بعنوان: «رثاء دار البلدية»، عبّرتْ عن العبث المأساوي لتدمير المكتبة قائلًا: «متحررة من الرفوف، تجولتْ الحروف في الشوارع مختلطة بالعابرين وأرواح الجنود الموتى». مكتبة سُر مَن قرأ

تروي قصة نيكولا كوليفيتش الذي كان باحثًا وصعد في صفوف حكومة الصرب القومية، الكثير عن الاستياء والبواعث المتشابكة التي دفعت مدمري المكتبة إلى القيام بتدميرها.

كان كولجيفيتش مرجعًا لافتًا حول شكسبير قبل الحرب، علاوة على ثقافته الواسعة كان يؤلف الشعر والنقد، وازدهر في الجو العالمي لسراييفو، ووصفت الصحافية جانين دي جيوفاني في مقالة نشرتها في «مانشستر غارديان» في آذار/ مارس ١٩٩٧ كيف ابتعد كولجيفيتش عن البحث واعتنق القومية الصربية وترقّى؛ كي يصبح نائب رئيس للبوسنيين الصرب، وكان «مثل شخصية إياجو في مسرحية عطيل يهمس في أذن رادوفان كراديتش».

لم يكن نيكولا الوحيد الذي برز من عائلة كولجيفيتش في سراييفو، كان شقيقه سفيتوزار، أحد خبراء الأدب الأمريكي، محبوبًا من قبل طلابه ومعروفًا أكثر من نيكولا. بالإضافة إلى ذلك، كان سفيتوزار، الذي كانت زوجته بوسنية من أصل مسلم، أكثر انسجاما مع نمط الحياة المتعدد الثقافات للمثقف اليوغوسلافي، وحين توفي ابن نيكولا في حادثة تزلج في أواخر السبعينيات، أصيب كولجيفيتش بالاكتئاب قاده إلى التحول إلى قوميٍّ صربي وإلى التصوف الأرثوذكسي، وصار تابعًا مبكرًا للقائد القومي الصربي رادوفان كراديتش (الذي كان يدعي أيضًا كتابة الشعر)، وجعلته آداب سلوكه المصقولة وإنكليزيته الفصيحة ناطقًا مهمًّا باسم القضية، وحظي بالقوة بسرعة، وهرب مع كراديتش إلى بلدة بيل السياحية القريبة في ١٩٩٢ كي يعلنا عاصمة للبوسنيين الصرب. وأدار نيكولا كولجيفيتش حصار سراييفو، وكانت دار البلدية تمثل بالنسبة له كل ما يكرهه في المدينة، فهي تحتوي تاريخًا متنوعًا وإرثًا عثمانيًّا، وازدهرت داخل أسوارها الحياة المعرفية التي جذبت في النهاية سفيتوزار، لكنها غرّبتْ نيكولا، وبحسب قصة دي جيوفاني قام نيقولا، الباحث السابق الذي استخدم طوال سنين كثيرة المكتبة الوطنية والجامعية البوسنية، بتوقيع المرسوم الذي أمر راتكو ملاديتش بقصف دار البلدية وتدمير المكتبة.

أنهت دي جيوفاني قصتها بعد ستة أسابيع من انتحار نيكولا كولجيفيتش بالرصاص، وكان لنائب الرئيس السابق أسبابه، فبعد أن تم إبعاده من السلطة السياسية وأذلته اتفاقيات دايتون التي أنهت

الحرب والتطلعات القومية للبوسنيين الصرب، كان يمضي الوقت منتظرًا الإدانة بجرائم الحرب، وبالنسبة للمعارف والزملاء الذين حاورتهم دي جيوفاني، الأشخاص الذين مزقت حيواتهم سياساته، يجب أن يُعد تدمير كولجيفيتش للمكتبة بين أسباب انتحاره أيضًا، وكان هناك أحد المعارف، وهو باحث اضطر لاستخدام كتبه كوقود في أثناء حصار سراييفو الطويل، وأخبر دي جيوفاني عن مقالة كتبها كولجيفيتش عن مسرحية ماكبيث قال فيها: «في محاولته كي يتجاوز نفسه، قضى ماكبيث على نفسه»، وأضاف: «إن هذه الجملة تصلح كنقش على شاهدة قبر نيقولا».

لم تكن مكتبة دار البلدية المكتبة الوحيدة التي هاجمها الصرب، فكان تدميرها مثالًا واحدًا فحسب في حملة شُنت ضد الثقافة الأدبية البوسنية، وهاجم القوميون الصرب قبل ثلاثة أشهر المؤسسة الشرقية بقنابل حارقة. وشملت الخسائر التي وصفها أمين المكتبة والباحث والناشط أندراس ريدماير خمسة آلاف ومائتين وثلاثة وستين طنًّا من المخطوطات بـ: العربية، والفارسية، والعبرية، والبوسنية السلافية التي تكتب بأحرف عربية، وسبعة آلاف وثيقة عثمانية، ومواد مصادر أولية لخمسة قرون من تاريخ البوسنة، ومجموعة من السجلات المساحية ومائتي ألف وثيقة أخرى من الحقبة العثمانية، وقُصف أيضًا المتحف القومي البوسني والأرشيف القومي في الهرسك، ومكتبة جامعة موستار، ومتحف الهرسك، والمكتبة الأبرشية الكاثوليكية الرومانية لموستار التي فُقد منها خمسون ألف كتاب.

ووثق رايدماير أيضًا مئات المكتبات والمتاحف والكنوز المعمارية الأخرى في أنحاء كرواتيا والهرسك، وفي وقت لاحق في كوسوفو. وفي سجل التدمير هذا، تمثل المكتبة الوطنية والجامعية البوسنية ربما الخسارة الأكبر، فمعظم كتبها المليون ونصف بما فيها مائة وخمسون ألف كتاب نادر تم تدميرها، ودعا جيفري سبار، زميل رايدماير ومنسق جهد متعدد الأمم لإعادة بناء مجموعات البوسنة غير القابلة للاستبدال، الحادثة بأنها «مثيرة للجدل وأسوأ حالة مفردة من عمليات حرق الكتب المتعمدة في التَّاريخ بالمطلق»، ونبه سبار إلى أن المكتبة «احتوت جهود أجيال»، وأظهرت الأعمال التي كانت فيها أنه بالرغم من حجج القوميين الصرب والنقاد الغربيين على حدٍّ سواء، ازدهرت البوسنة بطوائفها المتعددة في أثناء قرون من الحكم العثماني، ثم عقود من الحكم النمساوي واليوغسلافي. وكان سكانها من أي خلفية أتوا قادرين ليس على أن يعيشوا جوار بعضهم فقط، بل مع بعضهم أيضًا. ولهذا السبب بالذات صارت هدفًا لمدفعية القوميين.

كان دافع القوميين في غاية الوضوح بالنسبة لرايدماير أيضًا.

كتب قائلًا: إنَّ: المكتبات، والأرشيفات، والمتاحف، والمؤسسات الثقافية استُهدفت في أنحاء البوسنة كي تُدمَّر، في محاولة لمحو الدليل المادي - الكتب، والوثائق، والأعمال الفنية - التي يمكن أن تذكّر أجيال المستقبل بأن النَّاس من الخلفيات الدينية والإثنية المختلفة كان لهم مرة تراث واحد، وكتب رايدماير بعمق عن دار البلدية، الفكرة المحفزة لثقافة إسبانيا الإسلامية، التي فُهمت فيها تراثات:

المسلمين، واليهود، والمسيحيين على أنها تسهم في حضارة أكبر من محصلة أجزائها، وحفزت أفكار مشابهة، كما يحاجج رايدماير، الحياة الفكرية والثقافية للبلقان في العصر العثماني، لكن القوميين الصرب الذين حاصروا سراييفوا في آب/ أغسطس ١٩٩٢ لم يستطيعوا استيعاب تناقض مباشر كهذا مع مُثُل النقاء العرقي المحتفى بها، فقال رايدماير: «إن الغريب في الأمر هو عكس المنظورات: يُظهر الذين يمارسون التطهير العرقي فهمًا عميقًا للعوامل الثقافية والدينية: هذه هي المعايير الرئيسة التي يختارون على أساسها أهدافهم»، فقد قامت محاولتهم لتدمير المكتبات البوسنية على مفارقة قاسية؛ لأنها تؤكد المسبقات الغربية عن الأحقاد العنيدة المتبادلة السائدة في البلقان، حتى وهي تمحو الدليل نفسه على تناقضها: المنتجات الغنية والمتنوعة لألفية من التعايش المشترك الفكري والثقافي في المنطقة، وفشل: حافظو السلام الغربيون، وعمال الإغاثة، والبيروقراطيون في حوالي ذلك في الإقرار بالتدمير الثقافي كنذير بالإبادة الجماعية كما حصل.

حين كان أندراس ريدماير طفلًا فرت عائلته من سيطرة الشيوعيين على المجر، ويعمل الآن كأمين مكتبة ومؤرخ متخصص في جنوب أوروبا الإسلامي، حيث يقع مكتبه في مكتبة هارفارد للفنون الجميلة، وهو مكان هادئ ومضاء بسطوع، ومكتظ بـ: الكتب، والمصنفات، وصناديق الملفات الطافحة.

في هذا المكتب يدير رايدماير وجيفري سبار برنامج الفن الإسلامي الخاص بالمكتبة وعددًا من المشاريع المخصصة للحفاظ

على حضارة البلقان وجهودًا لتقديم من يريدون تدميره إلى العدالة، وتحتوي ملفاته أدلة على جرائم حرب من: الصور، وأقوال شهود، وملاحظات ميدانية، وتقارير توثّق دمار الصروح الثقافية من البوسنة إلى كوسوفو. وفوق خزانة تتوضّع بضعة صحون بتري مُغطاة تحمل أيضًا أدلة: بقايا متفحمة من الكتب المحترقة التي جعل أندراس نفسه وصيًّا عليها، وخطرت لي في المرة الأولى التي زرت فيها مكتبه فكرة أن أندراس أمين مكتبة الكتب المحترقة.

تشكل هذه القطع المحترقة دليلًا متشظيًا على أصلها مثل شظايا فيلا بابيري في هيركلانيوم: تظهر على بعضها آثار حروف أكثر سوادًا من الصفحات ذات اللون الشاحب، وتتكون قطع أكبر غالبًا من صفحات منصهرة، حيث تتحرك حوافها بالطَّريقة الحساسة الكاشفة التي تتحرك بها الحافة الأمامية لكتاب. «تبين أنه من الصعب جدًّا في الحقيقة حرق الكتب»، قال لي أندراس مبتسمًا مرددًا صدى الدروس المرّة التي تعلمها مالكو الكتب الألمان الخائفون حين صعد النازيون إلى السلطة.

أراني صورًا التُقطت داخل مساجد مدمرة في كوسوفو: الكتب المحترقة مكومة، ويصل ارتفاعها إلى الخصر في الزوايا، حيث سُكب عليها البنزين وأُحرقت. وذكّرني أندراس: كانت هناك «صفحات كتب مضغوطة بشدة معًا، ما جعل من الصعب أن يغذّي الأوكسجين النَّار، ولم يدرك المهاجمون ذلك»، وكان كثير من الكتب في تلك الصور غير قابل للإصلاح، لكنها بالرغم من ذلك حافظت على شكلها، وظهرت النصوص بوضوح في الركام، وبالرغم من أنها

تعرضت للأذى هناك الكثير منها الذي يمكن أن يُنظف ويُقرأ مرة أخرى.

يبحث مشروع تجميع المخطوطات البوسني في المكتبات في أنحاء العالم للعثور على نسخ من المواد التي فُقدت في أثناء الحرب في البوسنة، بينما تقوم «قاعدة بيانات السيرة الذَّاتية البوسنية» التي أسّسها كونسورتيوم عريض من المكتبات الجامعية بجمع قائمة بمواد بوسنية مفقودة كخطوة أولى لإعادة بناء مجموعة قومية. ويبني رايدماير أيضًا قاعدة بيانات؛ كي يوثّق دمار المكتبات والصروح الثقافية في البلقان لاستخدامها كدليل في محاكمات جرائم الحرب المستقبلية، وسافر في الآونة الأخيرة إلى لاهاي؛ كي يشهد في محاكمة جرائم الحرب الخاصَّة بالرئيس الصربي السابق سلوبودان ميلوسيفيتش.

ذكّرني أندراس حين كنا نتناول القهوة في أصيل أحد الأيام في صيف ٢٠٠١ بطريقةٍ أخرى لحرق الكتب شرحها له زميلٌ نجا من حصار سراييفو، نفد الحطب في الشتاء لدى الباحث وزوجته، فشرعا بإحراق كتبهما كوقود للتدفئة والطبخ، وتذكّر أندراس ما قاله صديقه: «هذا يجبر المرء على أن يفكّر نقديًّا، على المرء أن يفكر بالأولويات:

أولًا: تحرق المقررات الجامعية القديمة التي لم تقرأها منذ ثلاثين سنة، ثم هناك النسخ، لكن في النهاية تضطر إلى القيام بخيارات أصعب وتتساءل: من أُحرق اليوم، دوستويفسكي أم بروست؟» سألتُ أندراس إن تبقت أي كتب لدى صديقه حين انتهت الحرب،

فأجاب بعد أن توهج وجهه بابتسامة مرتعشة: «آه، نعم، ما يزال لديه الكثير من الكتب، فقد قال لي: تنظر إلى الكتب وتختار أن تبقى جائعًا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع
ضائع على الأرفف

تسلّق ولدٌ في إحدى المرات سلمًا وحدّق من خلال النافذة نحو الصحراء البعيدة خارج القاهرة. نظر إلى الأعلى: في الطرف الأعلى من السلم، فلاح تجويف في الحائط، ثم نظر إلى الأسفل، حيث كانت الأوراق التي كان يمسكها بيده مفتتة ومتعرقة، وتتألف من صفحات من: كتب التمارين المدرسية، ومسودات، ورسائل عشوائية.

كانت مهمته أن يصعد السلم المرتفع ويضع كومة الأوراق داخل التجويف.

أخيرًا، وصل إلى القمة مرتجفًا ولاهثًا، ثم حدق في الحفرة التي كانت مظلمة كفوهة، فكانت هذه جنيزة، قبر الأشياء المكتوبة، وأي صفحة فيها كما أخبره الحاخام يمكن أن تحتوي اسم الله.

هذا هو المكان الذي تذهب إليه الكتب حين تموت، فابتلع الفتى خوفه المفاجئ، وحشر الأوراق المضغوطة وقد لاح على وجهه التوتر، فضغطها في النهاية؛ كي تدخل بإصبعه، ولكزها بسرعة؛ كي تتوضع في الداخل.

غابت الأوراق عن النظر، واختفت مصدرة حفيفًا خفيفًا في مكانٍ ما في الأسفل.

عاد الفتى نازلًا على السلم المخشخش إلى الأرض الصلبة، بعيدًا عن هذه المقبرة في الجو إلى أمان كتب الصلاة غير المحطمة وأوراق البردي الفارغة الجديدة.

إن الجنيزة كلمة تعني في اللغة العبرية الحاوية، وتشير في التقاليد الحاخامية إلى مدفن الكتب، وهو مكان في الكنيس توضع فيه كتابات من جميع الأنواع حين تهترئ. تُجمع الصفحات الممزقة كلها، سواء أكانت قصائد تعبدية عامة أم قصص التلمود وأساطيره أم دفاتر أطفال، وتُوضع في الجنيزة من أجل الحفظ، إلى أن تُدْفن دفنًا لائقًا.

ووصفها الباحث الكبير الحاخام سولومون شخيتر هكذا: «حين تفارق روحٌ جسدًا، نقوم بإزالة الجثة من مدى النظر كي نحميها من الانتهاك، وبطريقة مماثلة، حين تتلف الكتابة نخبئ الكتاب كي نحفظه من التدنيس، فتصعد محتويات الكتاب إلى السماء مثل الروح».

كان تبجيل الكلمة المكتوبة شائعًا بين شعوب الكتاب، وكان القرآن مقدسًا جدًّا على غرار التوراة، ولا يمكن رميه، ذلك أن كتاب الله مظهر من مظاهر شخصيته، وتقع في جبل تشيلتان قرب كويتا في باكستان كهوف كثيرة تحتوي تقريبًا خمسين ألف نسخة من القرآن مدفونة، وكل واحدة منها مكفنة كجثث الموتى بقماش أبيض، ويشكّل الجبل موقعَ حجٍّ للمسلمين في أنحاء آسيا كلها، ويتم تحويل كثير من الكهوف إلى غرف صلاة يسهر فيها الأتقياء بين الصفحات المكومة والمكفنة. وقيل: إن من يُدفنون قرب الجبل - الذي يشتهر

باسم جبل القرآنات المقدسة - يُصْفح عن ذنوبهم.

ليست هذه الممارسة الإسلامية جديدة، ذلك أن العمال الذين كانوا يرمّمون المسجد الكبير في العاصمة اليمنية صنعاء في ١٩٧٢ اكتشفوا كومة كبيرة من المخطوطات المتعفنة، فجمعوها في أكوام ونحّوها جانبًا، واكتشف الباحثون فيما بعد بين الأوراق الممزقة صفحات من النص القرآني تعود إلى الأعوام المائتين الأولى من الإسلام، وكان من المثير أن بعضها احتوى بدائل للنسخة الرسمية المعتمدة اليوم، ما أثار تساؤلات حول التَّاريخ النصي لكتاب الإسلام المقدس.

لا تعترف الجنيزة اليهودية بالصفة المقدسة لكتاب واحد سواء أكان ممزقًا أم كاملًا، بل بالكلمة المكتوبة بعامة. نتيجة هذا، شكلت الجنيزات المهجورة أو المنسية مصادر مهمة للمخطوطات اليهودية لوقتٍ طويل، لكن جنيزة كنيس القاهرة عاشت عمرًا طويلًا على نحو فريد: كانت مخبأة، ولا يمكن الوصول إليها إلا بوساطة السلم، وتكومت: كتبها، وحروفها، وأوراقها المتنوعة، واختلط بعضها ببعض، وتلفت طوال ألف سنة من القرن التاسع بعد الميلاد إلى القرن التاسع عشر.

رُمِّمَ الكنيس في ١٨٩٠، وتدفقت كمية كبيرة من المواد من الجنيزة إلى الأسواق، وهناك عثرت على طريقها إلى الأيدي المقتنية للمسافرين الأوروبيين، في عام 1896، اشترت امرأتان اسكتلنديتان، أغنيس لويس سميث ومارغريت دون-لوب جيبسون، أجزاء غريبة من المخطوطات أثناء جولتهما في القاهرة،

وعند عودتها إلى إنجلترا، أعطتا سولومون شيشتر قطعتين من الكتابة العبرية. اكتشف شيشتر، الذي كان حينها أستاذًا في كامبريدج، أن قطعة واحدة تنتمي إلى كتاب بن سيرا (الإكليسياستيكوس)، الذي كان نصه معروفًا من قبل باللغة اليونانية فقط، تم تأليف الكتاب في حوالي ٢٠٠ قبل الميلاد، وضاعت النسخة العبرية الأصلية طوال ألفية.

أثار هذا الاكتشاف شخيتر، فقام برحلة إلى القاهرة، وحصل على إذن كي يأخذ معه كل ما رغب به من الجنيزة.

يثير وصف شخيتر لحالة الجنيزة الذكريات، ويستحق الاقتطاف بكامله:

نادرًا ما يستطيع المرء أن يستوعب الفوضى حتى يراها.

إنها ساحة معركة كتب، وشاركت في المعركة المنتجات الأدبية لقرون كثيرة سابقة، وتتناثر شظاياها المبعثرة الآن في المكان.

هلكَ بعض المتحاربين على الفور، وفي الحقيقة سُحقوا في الصراع المريع من أجل المكان، بينما عُصر آخرون وحُوّلوا إلى كتل كبيرة بلا شكل، كما لو أنهم تعرضوا للسحق الذين حتى بمساعدة من الأجهزة الكيماوية لا يمكن أن يُفصلوا الآن دون إلحاق ضرر كبير بمكوناتهم.

كان مفتونًا بالروعة والتآكل، فقرر شيختر أن يحصر مقتنياته بالمخطوطات تاركًا مواد مطبوعة عمرها أربعمائة سنة.

يتأسف الباحثون على خياره الآن، ومنذ زمن شيختر نشأ اهتمام

كبير بتاريخ المخطوطات اليهودية المطبوعة، وكان جرد شيختر رائعًا، وشمل مائة ألف شظية بالمجمل، بما فيها النصوص التوراتية والنصوص التوراتية المدونة على الرق والموضوعة في علب جلدية، والأسفار المنتحلة، والكتابات المزورة، وكتاب المشنا (متن التلمود)، ونصوص التلمود لابن ميمون وآخرين، والشعر التعبدي، والرسائل، والفواتير، والقوائم، والرقى، والتقاويم، والفهارس، وتمارين الأطفال، والقراء، والقواميس، والإشراقات، والتعاويذ، والنصوص القبلانية، والنصوص الطبية، والأسماء، والجدل، والشعر، والمفردات، وكتب الأطفال العرب، والنحو العربي، والتواريخ، والنصوص العلمية، والمخطوطات اليهودية بالعربية.

في السنوات التي أعقبت وصف شيختر لمحتويات جنيزة القاهرة تناثرت بالتدريج على جانبي المحيط الأطلسي. ويوجد الجزء الأكبر من الشظايا في كلية اللاهوت اليهودي في جامعة كامبريدج، لكنها جُمعت معًا مرة أخرى في أبحاث إس. دي. جويتين الذي تقدم دراسته لها المؤلفة من ستة مجلدات بعنوان: «مجتمع متوسطي»، قصة فائقة للعادة عن الحياة اليهودية في العصور الوسطى تبين الصلات بين المجالات: الشخصية، والفكرية، والإثنية، والسياسية، والاقتصادية للعالم اليهودي- الإسلامي.

هل الجنيزة مكتبة؟ إنها ليست مكتبة بالمعنى الدقيق للمصطلح، فالمكتبات يجب أن تكون متاحة، لكن الجنيزة كانت طوال قرون كثيرة غير متاحة. علاوة على ذلك، يتم اختيار كتب المكتبة والموافقة عليها، وتُعد جديرة بالحفظ. وفي هذا تشكل الجنيزة نقيضًا للمكتبة:

ذلك أن محتوياتها تتألف من أشياء يتم التخلص منها وتُطرح بسبب عدم فائدتها.

هذا يعني أن الجنيزة كانت مكتبة.

إن المكتبات تجمع وتخزن الكتب من أجل الاستخدام المستقبلي، وهذا ما فعلته الجنيزة، ذلك أنها بجمعها وحفظها الآثار الثقافية الفريدة لا تُضاهى بين المكتبات في العالم.

يمكن القول: إن الجنيزة حفظت موادها على نحو أفضل مما فعلته أي مكتبة، وبينما تعرضت شظاياها من دون شك للأذى؛ بسبب عدم الانتباه، إلا أن وضعها كان أفضل في أثناء حبسها الطويل من الكتب في أفضل المكتبات الحافظة، حيث تكون خاضعة لـ: المعالجة، والانتقال، والضياع، والهجوم، والسرقة. إن حقيقة أن الجنيزة عُدت بلا قيمة هي ما جعلها لا تُقدر بثمن اليوم، فهي تقدم رسالة أكثر شمولًا عن أزمنتها لا تستطيع تقديمها أي مجموعة مكتبة مفحوصة ومرخصة، ذلك أن مظهرها الذي يخلو من القيمة، والعادي الذي يصفه شيختر جيدًا في النص المقتطف أعلاه، ويذكرنا أيضًا باستعارة معركة الكتب لجوناثان سويفت، هو ما يجعلها شهادة قوية على جماليات أشخاص كانوا سيُنسون لولا ذلك.

لا يقف وراء الجنيزة سبب أيديولوجي أناني أو من أي نوع آخر، وهذا يجعل منها قبل كل شيء نقيضًا للمكتبة. ذلك أنه بصرف النظر عن الحياد السياسي المزعوم للمكتبة وشفافيتها وافتقارها الظاهر للجذور، فإنها تحتوي الدوافع المدفونة والمتناقضة في الغالب لـ: الأمراء، وفاعلي الخير، والأكاديميين الذين هم مؤلفوها.

أراد الإسكندر، بصرف النظر عن كل شيء، أن تحتل مكتبته الحصة الأكبر من الرأسمال الفكري، وأراد ديوي مكتبة لا تعمل بفعالية فحسب، بل تعزز الفعالية في حيوات القراء. وعلى عكس هذه المكتبات - الشرطية والأيديولوجية المثيرة للجدل- كانت الجنيزة مجرد كومة من المهملات لا تخشى تناقضاتها المجموعة.

توضعت مجموعة من الكتب على طاولة مغطاة بالدانتيل في الصالة الخشبية المشمسة لمنزل مزرعة في ويسكنسن، بعد قرون من إنزال سلم جنيزة القاهرة.

ربما وُضع عشرون مجلدًا بشكلٍ مريح في خزانة قابلة للحمل بُنيت مثل الخزانة الرومانية القديمة ببابين يفتحان على مصراعيهما للكشف عن مجموعة مزدوجة من الرفوف المتدرجة.

كان هناك عشرون كتابًا في خزانة صغيرة، وهذا كل شيء، ولكن صورة المكتبة التي يُعاد إنتاجها في كتاب آرثر بوستويك «المكتبة العامة الأمريكية» تُظهر أن جو المكتبة يمكن أن يتشكل من بضعة مجلدات، وتقدم هذه الكتب مثالًا على ما دعاه أمناء المكتبات في منعطف القرن «المكتبة المنزلية»، وهي ليست مجموعة ممتلكة بشكل خاص، بل مجموعة كتب كانت تُجمع معًا وتُرسل إلى القراء في الريف.

كانت المكتبة المنزلية كنسخة مبكرة من الكتاب المتنقل تسافر إلى مزارع ويسكنسن الريفية في عربات تجرها الأحصنة، ويسوقها أمناء المكتبات.

كانت متواضعة وبسيطة، توضع تحت صورة غامضة، يؤطرها كرسيان أسودان بسيطان، لكن ثمة أثر خفيف من الإسكندرية محتوى في خزانة الكتب تلك، ونفحة من: مكتبة الفاتيكان ومكتبة السوربون، وغرفة القراءة المستديرة، والجلال الغرانيتي لمكتبة بوسطن العامة.

تبدو الأغلفة القوية للمكتبة المنزلية كأنها تسلط الضوء على غرفة منزل المزرعة، وتشكّل وهي مرتبة على رفوف المكتبة لوحًا مزدوجًا مذبحًا يملأ الغرفة بوهج الكتب.

يصف بوستويك نوعين من المكتبات المنزلية: علاوة على المجموعات التي كانت تُوزع على القراء الريفيين، تم تقديم نوع آخر من المكتبات الصغيرة في المناطق الحضرية، وخاصة لأطفال المهاجرين. ويروي بوستويك أنه في المدينة، كانت أمينة مكتبة أو متطوعة تذهب إلى الأحياء ومعها هذه المجموعات وتبحث عن طفل يمكن أن تعيره إياها بثقة. وكان الأمل في أن الطفلة لن تقرأ الكتب بنفسها فحسب، بل ستشاركها مع العائلة والأصدقاء. بعد مضي أسبوع أو ما يقارب ذلك، تعود أمينة المكتبة إلى المساكن؛ كي تجمع الكتب وتناقشها مع الأطفال وتقدم مجموعة أخرى لهم؛ كي يستعيروها.

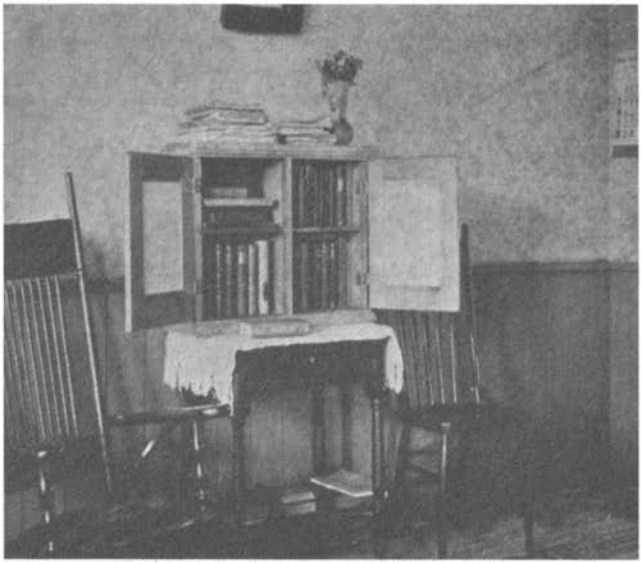

(المكتبة المنزلية، من كتاب بوستويك المكتبة العامة الأمريكية (نيويورك: أبلتون، ١٩١٠)، مكتبة وايدنر بي ٧٧٣٩.١٠ (نسخة بي).

كان المزج بين الذهاب إلى البيوت وعلم المكتبة نتاج القرن العشرين المُصمم لتسريع أهداف القرن التاسع عشر، أي: إدخال الجماهير غير المتعلمة في دائرة القراء، ووضعهم على طريق القراءة الصحيحة التي تقود من قصص المغامرات وحكايات الأسفار إلى: الجغرافية، والتَّاريخ، والمهن.

كان متوقعًا أن يغري الاستمتاع بالمكتبة المنزلية القراء الشبان بالمجيء إلى غرفة الأطفال في الفرع المحلي، حيث تتم عملية زرع قيم مجتمعهم.

لكن أولاد المهاجرين كانوا يأخذون كتب مكتبة في بعض الحالات ويستخدمونها لصياغة عالم جديد، أمريكا جديدة خاصَّة

بهم، وكانت القراءة الترفيهية التي ازدراها أمين المكتبة في القرن التاسع عشر - خاصَّة قراءة الروايات- العمل الحقيقي للمكتبة بالنسبة إليهم، وذكرت ماري أنتين وألفريد كازين في كتابهما المكتبة كثيرًا.

هاجرت عائلتهما من مناطق الاستيطان في روسيا (الأراضي الوحيدة التي سمح القياصرة لليهود بأن يسكنوا فيها) في بداية القرن العشرين، وتخيل الكاتبان في كتابهما المكتبة بطرق تدعم مُثُلَ جيلٍ أبكر وتهدمها.

جسد امتلاك أنتين الجزئي للمكتبة العامة الحقوق التي منحها لها مجتمعها الجديد على نحو أكثر فعالية، ودعت في مذكراتها الرائعة «أرض الميعاد» مكتبة بوسطن العامة «أحد أمكنتي المفضلة».

راقبت المكتبة تغص بالزوار: «الأطفال الذين يصمتون على المدخل رابتين على الأسدين الحجريين الكبيرين في أعلى الدرج المهيب»، ورصدت أيضًا «باحثين يرتدون النظارات ومحملين بالكتب»، غير واعين لصدى خطواتهم، وسياحًا «يتريثون طويلًا في المدخل دارسين: النقوش، والرموز، والأطفال المتلهفين كلهم، والنساء السمر الجميلات، والباحثين الذاهبين إلى البيت لتأليف كتب معرفية الذين يجمعني معهم شيء مجيد مشترك: منزل الكنز النبيل هذا الخاص بالمعرفة. كان من الجميل القول: هذا لي. وكان من المثير القول: هذا لنا». في نهاية «غرفة القراءة الواسعة» لصالة بيتس، شعرت أنتين بأن «الفضاءات المهيبة تحت الأقواس المحلقة صفة شخصية من وجودي»، وشكلت المكتبة بالنسبة لأنتين أكثر من

مستودع مقدس للحضارة.

كانت تحتوي طاقات منزل جديد شعرت بأنها مخولة؛ كي تدعوه منزلها دون تحفظ أو اعتذارات، بل بامتنان فحسب: «أنا التي رُبيت حتى سن المراهقة تقريبًا من دون كتاب يشكل جلوسي وسط الكتب كلها التي سبق أن كُتبت معجزة عظيمة كأي معجزة مُدوَّنة».

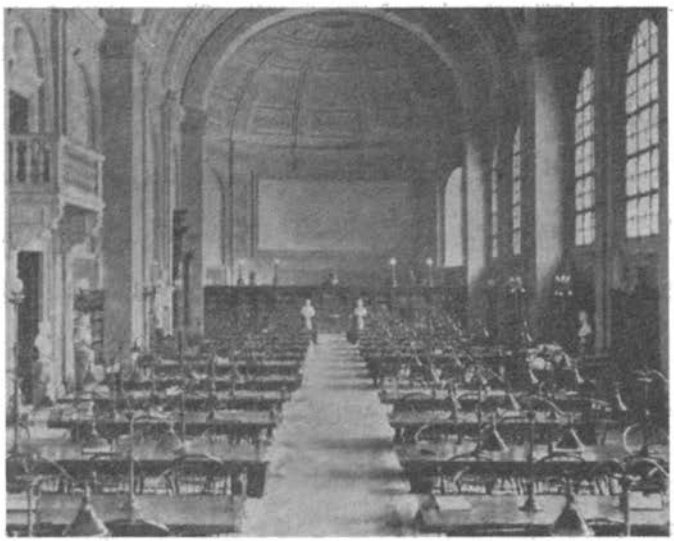

(صالة بيتس في مكتبة بوسطن العامة كما عرفتها ماري أنتين. في كتاب بوستويك «المكتبة الأمريكية العامة» (نيويورك: أبلتون، ١٩١٠). مكتبة وايدنر بي ٧٧٣٩، ١٠ نسخة بي).

كان الاستيعاب من بين أهداف المكتبة العامة، ومن المحتمل أن روح أنتين المندفعة من التملك والانخراط تجاوزت حدود أي شيء سبق أن تصوَّره رواد المكتبة.

أكيد أنه تجاوز رغبات ميلفل ديوي المتعصب الذي أخفى معاداته للسامية وراء عباءة الإدارة الرصينة مانعًا اليهود من دخول المنتجع

الصيفي الذي أسسه في المنطقة الشمالية من نيويورك، وكانت المكتبة بالنسبة لقادة المكتبة في القرن التاسع عشر آلة أو مصنعًا لإنتاج قراء فعالين، أشخاص يقرأون ما هو مفيد، ويتجاهلون الأدب التافه وغير النافع، ويستخدمون الكتب لتطوير أنفسهم ومجتمعهم.

انفصلت أفكار عملية كهذه جذريًّا عن مثال الأجيال السابقة الذي كانت فيه المكتبة: كنزًا منزليًّا، وخزانة أعاجيب، وقن دجاج ربات الإلهام.

كان يجب أن تكون المكتبة والفكر الإصلاحي: تقدميين، وهادفين، وبروليتاريين، ويجب على الجماهير أن تترك المكتبة مجهزة بشكل أفضل، وتلاحق المهن، وتدخر النقود، وتبقى صاحية، لكن المكتبة، وخاصَّة المكتبة العامة الكبيرة بزادها اللانهائي من الكتب، قدمت إمكانيات أكبر من مُثُلِ فاعلي الخير والمديرين.

كان ألفرد كازن على غرار أنتين غير واعٍ للاستخدامات المتواضعة والعملية للكتب التي أرادها له مؤسسو حركة المكتبة العامة، وكان سعيدًا حيال ذلك، وصنع كازن نفسه في قلب الركود الكبير كمفكر وسط طنين مكتبة نيويورك العامة وحفيفها، وقال في كتاب «يهوديُّ نيويورك»:

عملتُ في غرفة القراءة الواسعة المفتوحة رقم ٣١٥، في مكتبة نيويورك العامة، وغالبًا في أثناء نوبات القراءة الطويلة في النهار. سنة بعد أخرى تبين لي أنه لا شيء يبعث البهجة في نفسي أكثر من الجلوس طوال النهار والليل إلى إحدى تلك الطاولات الذهبية الكبيرة؛ كي أطلع على جوانب موضوعي كلها.

كلما كان لدي وقت فراغ للقراءة بدت المكتبة الكبيرة حرة في استقبالي.

بنى كازن في النص الذي يلي هذا النص استعارة المكتبة كأمريكا، كأمريكا الخاص به المؤلفة من الحالمين والفاعلين. صادف في الغرفة ٣١٥ (في شخص كتبهم وأعمدتهم الصحافية) الناشرين، والصحافيين، والكتاب الذين ولّدوا الحداثة الأدبية من جو القرن التاسع عشر القاسي والمتقلب. كانت ظلالهم الحيوية تتدفق عابرة له كحشد متحرك: يوجين ديبس، وماكس إيستمان، وأبتون سنكلير، وهـ. ل. مينكين، وإدموند ولسون، وثيودور دريسر، وآلن تيت، والبائعين الجوالين، وسهارى الليالي في شيكاغو كلهم.

كان أفراد الحشد يتزايدون واضعين أيديهم في جيوبهم وقبعاتهم مخفضة، وكان كازن يطوف بينهم كالمجنون.

كان كازن متسكعًا، ولم تكترث المكتبة بذلك، فقال: «كنت باحثًا في فريق العمل الخاص بي، أعمل على القطعة دون أي ارتباط، وكنت أحيانًا أعمل كأستاذ جامعي يثقف نفسه في المساء حول ذهن أمريكا الحديثة عن طريق الكتابة».

ها هو هنا القارئ الأمريكي في أفضل اكتفاء ذاتي له:

لم يسألني أحد خلف مكتب الاستعلامات لماذا أحتاج إلى النظر في المادة المصفرة والمفتتة والذاوية حول دور النشر الشابة والمتمردة في شيكاغو وسان فرانسيسكو في ١٨٩٧.

لم يقترح عليّ أحد أنني يمكن أن أتدبر أمري حيال ما أبحث عنه مهما كان ما أقوم به عن طريق الاطلاع على ما هو متاح بشكل

أفضل، وخاصَّة العدد الأول من «مجلة شعر» الصادر في ١٩١٢، ومجلة «ذ نيو ريببليك» في ١٩١٤، ومجلة «كولييرز» ناشرة الفضائح في حقبة تيودور روزفلت.

علاوة على ذلك، كان هناك عددٌ كبير من العلامات الأخرى المدفونة في تيار الحداثة الأدبية الأمريكية البازغة. وخضع كازن لحلم مكتبة البحث، وهو حلم لا يناقض أخيلة الصعود من الفقر المُدقع إلى الثراء الفاحش للروايات البنسية، حلم النجاح الشخصي الذي يتم دون مساعدة أشخاص لا يُسمون، واعتقد كازن على غِرار معظم القراء أنَّ المادة التي يريدها فُقدت هنا، ونُسيت، وتم التخلص منها، وأن المكتبة جنيزة لا تقدم أسرارها إلا للباحثين الذين لا يكلون.

بالطبع اقتنى شخصٌ ما هذه المواد المصفرة الذاوية، وفهرسها أحدٌ ما، وبالطبع أخذها أحدٌ ما عن الرفوف، وسيعيدها حين ينتهي القارئ منها، لكن في المكتبة يختبئ هؤلاء المساعدون خلف الستائر، وتصبح المكتبة خشبة مسرح بمرآة لخلفية لا تعكس إلا القارئ وتعتم الأصول المتنوعة للكتب.

عرضت المكتبات قبل قرن كتبها كأشياء للتبجيل، إلا أن المكتبات في بداية القرن العشرين خبأت الكتب وجعلتها فقط متاحة للموظفين عن طريق استخدام أحدث التكنولوجيا:

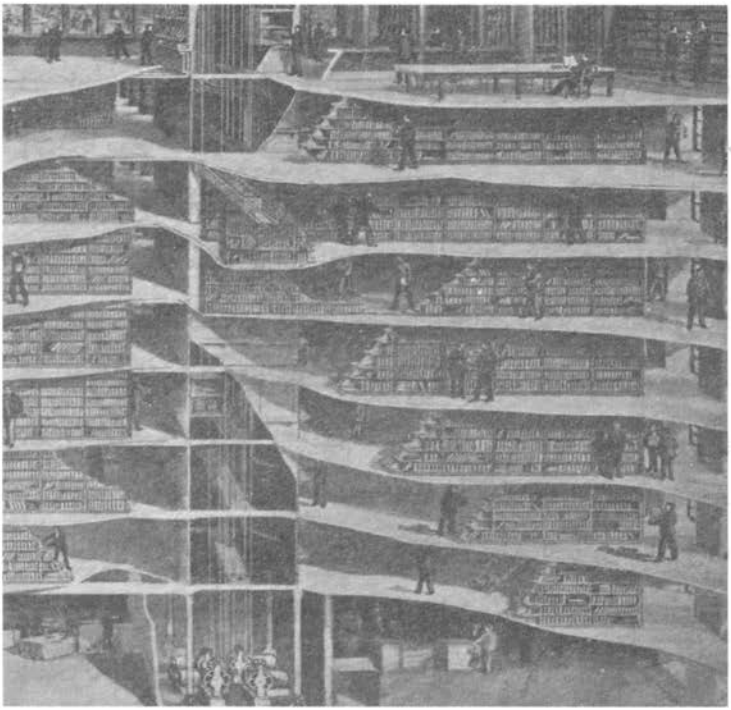

(المكتبة كمصنع: إدارة فعَّالة لـ الكتب، والموظفين، والقراء في مكتبة نيويورك العامة كما صورت على غلاف عدد ١٧ أيار ١٩١١ من مجلة «ساينتفيك أمريكان»).

الهواتف، والسيور الناقلة، والمصاعد، وأظهر غلاف عدد ٢٧ أيار/ مايو ١٩١١ من مجلة «ساينتيفيك أمريكان» صورة مبتورة لرفوف مكتبة نيويورك العامة التي كانت قد فُتحت حديثًا، ويظهر في الصورة موظفون كلهم ذكور يتحركون بين الرفوف في الطابق الأرضي يرسلون الكتب إلى غرفة الإرسال عن طريق شبكة معقدة من الفتحات ومصاعد الكتب.

يجلس خلف نوافذ غرفة الإرسال قراء يتصفحون كتبهم بسعادة

غير واعين للآلات المُوظفة التي تحضر لهم مادة القراءة الخاصَّة بهم.

كان مؤلف المقالة المنشورة في مجلة «ساينتيفيك أمريكان» أكثر إعجابًا بمعالجة مكتبة نيويورك الجديدة الفعالة لاحتياجات للناس بالرغم من التعقيد التكنولوجي فيها. قال: «إنَّ ضرورة تقديم الكتب لجميع طبقات القراء جعلتْ من المُستحسن استنباط خطة معمارية ونظام تنفيذي يوزع القارئ الكتاب الذي يقرأه»، وعكس تشديد المؤلف على «طبقات القراء» اهتمامات رواد المكتبة العامة في القرن التاسع عشر، واختتم مشيرًا إلى أن المهندسين المعماريين صمموا مكتبة «لا تشكل عملًا فنيًّا في حد ذاتها وصرحًا جديرًا بالمدينة الأكبر في نصف الكرة الغربي فحسب، بل يمكن القول: إنها تقسم آليًّا آلاف القراء الذي يرغبون بالعودة إلى الكتب إلى الطبقات الفكرية التي ينتمون إليها».

يقول قراء مثل كازن: إنهم يعاودون ترتيب أنفسهم والكتب التي يقرأونها في آنٍ معًا بالشَّكل الذي يرونه مناسبًا غير واعين لأهداف الإدارة الفعالة، وكتب كازن قائلًا: «تعلّمتُ قبل سنواتٍ من زيارتي لشيكاغو أي أمل وطاقة وجدت فكرية جاؤوا مع أولئك الرواد الواقعيين من الغرب الأوسط». عثر كازن على غربه الأوسط في المكتبة أيضًا وهو «غرب أوسط» أُضفي عليه جو مثالي يتألف من مبدعين ذوي رؤية واضحة، ومجانين ذوي أكمام قصيرة، ورؤيويين متنكرين «قالوا: إنه لا يوجد أدب أمريكي سوى الذي يبدعونه».

كانت المكتبة تحتوي هذا كله، وضمت بين جدرانها غفلية المدينة الإبداعية، وتفاهة عصر الانحدار وروعته، وآثار وجغرافية

مانهاتن، وقبل كل شيء، الشعب الأمريكي نفسه الذي اجتمع في ما سمّاه كازن: «ملجأ وكنيسة العاطلين عن العمل، الأيديولوجيين المجانين، وطلاب الكتاب المقدس المجانين أيضًا الذين يكتبون بإصرار: أنت تكذب! في كتب المراجع على الرفوف المفتوحة، وهواة الألغاز الذين يفتشون جميع الموسوعات، والبائعين الذين يتقاضون عمولة، ويمزقون سرًّا قوائم العناوين من أدلة المدينة».

كان جميع الذين في مكتبة كازن مسكونين ويائسين كما ضاع إينوك سواميس في مستقبله الشيطاني، وكان هذا نموذجًا جديدًا للمكتبة بعيدًا جدًّا عن صوره الموجّهة: ديدان الكتب تطن في قفص ربات الإلهام، القديس جيروم المنعزل في مقصورته بين رفوف الكتب مع أسده وجمجمته، معمل أو سوق أفكار الفطرة السليمة، وبالرغم من ذلك، تتصل فكرة كازن عن المكتبة بجدتها كلها بشكل لا تنفصم عُراه مع المكتبة التي أتت قبلها، وكانت المكتبة بالنسبة لكازن الذي كان يؤلف في أثناء الحرب التي احترق فيها مليون كتاب بوتقة الحضارة المدينية وزبدتها.

كان الشيء الذي يُدعى كتابًا مقدسًا فريدًا ونادرًا بالنسبة لوالدي كازن، ويمكن القول: إن نموذجه الذي وضعه الله (في شكله الأول، التوراة) كان الشيء الرئيس للعالم، وكان غالي الثمن جدًّا.

كان هذا هو كتاب جيل والديه، وكان هذا مفهومًا عن الكتاب ينتمي إلى القرن السابع عشر، بالرغم من أنه تم اعتناقه في أنحاء الغرب جيدًا حتى القرن العشرين، واكتشف كازن ومعاصروه فجأة أنهم يستطيعون الانغماس في أكوام الكتب، وأن كتب التي

يستطيعون الحصول عليها بلا نهاية، «فقط إذا طلبوا». وعاود كازن، مثل أنتين قبله، تخيل مؤسسة المكتبة بقوة. إذا كان من الممكن أن تصبح مكتبة المنزل مذبحًا وبقعة للانتشار الواسع السريع للحضارة، وإذا كانت بضعة كتب في صندوق خشبي يمكن أن تنفتح مثل سفينة نوح في منزل مزرعة في ويسكنسن، ما الذي تستطيع أن تفعله ملايين الكتب المكومة - وهي تجلس كلها هناك منتظرة - للمهاجرين وأولادهم الضائعين بين الحشود المتبدلة لنيويورك وبوسطن وشيكاغو؟

وقد اختار آخرون كتبهم في مواجهة الجوع والبرد، وكان أحدهم فالتر بنجامين الذي جازف بحياته من أجل كتاب واحد، غير منتهٍ، لكن قبل وقت طويل من حزمه لمخطوط كتابه الضخم «مشروع الممرات» تحت ذراعه وهروبه عابرًا جبال البيرينيه من تقدم الفاشيين، تأمل بنجامين مليًّا الخصوصيات التي يعبر عنها كل قارئ في مجموعة كتبه الخاصَّة. في مقالة «تفريغ مكتبتي» استمتع بنجامين بكتبه كأشياء، فكان وهو يخرجها من الصناديق ويوسّع المكان لها على الرفوف يكتشف حياتها الحقيقية كأشياء مادية، النقطة التي عندها تكون حرة كي تكتسب حياتها الخاصَّة، وكتب قائلًا: «بالنسبة إلى جامع الكتب، الحرية الحقيقية لجميع الكتب هي في مكان ما على رفوفه». وتنعكس كونية الكتب بشكلٍ غامض، وتأتي فرديتها إلى المقدمة.

عارض القراء دائمًا الطاقات الهوسية للمكتبة الشاملة آملين أن

كتابًا واحدًا سيشرح الكتب كلها، وكان التوق لكتاب كهذا، الذي بدأ مع التوراة، جزءًا من ثقافة الأدب دائمًا. لكن بنجامين رأى أن أي كتاب متواضع يمكن أن يصبح كتاب القدر عن طريق علاقته مع مالكه، وهكذا تحمل المكتبة الشخصية معها احتمال أن المجموعة التي تملكها الدولة أو المكتبة الأكاديمية، كما أشار بنجامين، تميل إلى الغموض، وتقدم المكتبة أيضًا مدخلًا إلى عالم الأفكار المحتملة، بالتالي، إنَّ الكتاب كشيء مقدر يكشف لمالكه الصلات التي يمكن أن تعقدها الكتب المفردة عبر الزمان والمكان، منعكسة في: قصة مالكيها السابقين، وتاريخ ملازمها، وصفحاتها غير المقطوعة، فالكتاب أداة، ومثل الأدوات كلها، يروي قصة صناعته، فهو: الباب، والمفتاح، وجواز السفر، والنقل. وكم هو مأساوي إذًا أن بنجامين أنهى حياته حاملًا كتابه غير المنتهي، مخطوط «مشروع الممرات»، وهو مكتبه في حد ذاته، إلى الأمان والحرية. صار الكتاب في أيام بنجامين الأخيرة مرساة، صخرة تُرفع على سفح الجبل، عالمًا محمولًا على كتفيه المحدبتين والمحبتين للكتب، وإذا كان عبئًا، فإنه بأي حال حمله بسعادة.

في النهاية، توهجت هالة ذلك الشيء الوحيد متألقة على خشبة المسرح التي كانت بنجامين نفسه. «هذا الكتاب أهم مني»، قال لرفاقه على طريقه الأخير الفاشل فوق جبال البيرينيه.

تغيّر الكثير بين ملايين الكتب المجموعة في مكتبة وايدنر منذ اليوم الأول الذي ضعتُ فيه بين الأكوام، ولم تكن أحلام يقظتي كافية لإيقاف الزمن مثل عشاق المكتبات كلهم. واليوم تمر مكتبة وايدنر

في الآلام الأخيرة لترميم كامل، فالدرج الذي أنزل عليه مدهون حديثًا وجديد، وتنبعث منه رائحته عفونة خفيفة جدًّا، ويرنّ الدرابزون الأنبوبي الأخضر وأنا أزلق خاتمي عليه.

لقد ذهبت ألعاب لينغو اللغوية والورقة الهشة للصندوق إكس منذ وقت طويل، ونُقلت إلى مخزن خارج الموقع. وصار من الأصعب الآن العثور على كتب أقدم في الأكوام. أما الكتب التي طُبعت في المراحل الأولى من الطباعة في أوروبا، والتي أعيد تجليدها، وكتب القرن الثامن عشر الكبيرة المكسوة بالرق، فقد نُقلت إلى أمكنة أكثر أمانًا.

أين سأعثر على الكتاب الذي تقرأونه الآن؟ يحدد مكانه في المكتبة آخرون مجهولون:

أولًا: أمناء مكتبة يحضرون التصنيفات الفهرسية لمكتبة الكونغرس.

تسبب العملية الدوار في توزيعها، وتقدم فرصًا بلا نهاية لتأويلات مختلفة وأخطاء واضحة، ذلك أن فئات مواضيع مكتبة الكونغرس تشكل متاهة أبستمولوجية، وأعني بها: العناوين المتداخلة القابلة للإسناد الترافقي (الولايات المتحدة - الأوضاع الاجتماعية- إلى ١٨٦٥) التي كانت ترتب في ما مضى البطاقة الفهرسية للموضوع التي ما يزال المستخدمون على الإنترنت يبحثون عنها في قواعد البيانات الموزعة.

لم يكن الجميع سعيدين حيال ذلك، حيث تعزف فئات مواضيع مكتبة الكونغرس عادة على وترٍ من البيروقراطية المتغطرسة في

سعيها إلى عامل مشترك رفيع يفيد المكتبات من: الأشكال، والأحجام، والاختصاصات كلها، وشنّ سانفورد بيرمان أمين مكتبة مقاطعة هينيبين في مينيسوتا منذ ١٩٧٣ معركة ضد عناوين المواضيع التي يعدّها عنصرية ورجعية ومسيئة للكرامة البشرية ومشوشة على نحو واضح، وفي أثناء هذه العملية قام هو ومجموعة من زملائه المفهرسين بتحويل فهرس مكتبة مقاطعة هينيبين إلى أداة نموذجية للقراء.

كانت القائمة الجزئية من البدائل التي صنعها بيرمان وزملاؤه كوميدية ومضيئة في آن، حيث اعتمدت مكتبة الكونغرس الكلمة الغامضة والصحيحة من جهة الاشتقاق «قتل الصديق»، فاقترح بيرمان المصطلح الأوضح «ضحايا نيران صديقة»، وبدلًا من الكلمة البديعة «عسر الطمس» وضع «تشنجات الحيض»، لكن الفرق بين فهرسة بيرمان وفهرسة مكتبة الكونغرس هو أكثر من أيديولوجي: إن فهرسته ماهرة، حيث يُضغط على أمناء المكتبة بعامة؛ كي يقبلوا سجلات الفهرس الجاهزة، المجموعة في أرقام فلكية من قِبل اتحادات وتصبح متاحة للمكتبات المشتركة عن طريق شبكات الحاسوب، يصر بيرمان على استخدام ذكائه الخاص لوصف جميع الكتب التي تقتنيها المكتبة. هكذا، تحتوي سجلاته غالبًا معلومات مضافة، مثل: جداول المحتويات، والملاحظات الوصفية المفصلة التي هي مساعدة على نحو كبير للقارئ الذي يحاول أن يحدد، مثلًا، إن كان كتاب نتوزاكي شانج «تبييض» هو كتاب يستقصي تأثير جريمة كراهية عنصرية، أم كتاب عن طلاء

المنزل.

قد جادل مديرو المكتبات، منذ ميلفيل ديوي وحتى الوقت الحاضر، بأن مثل هذا العمل اليدوي يبطئ العملية التي تقع في قلب مهمة المكتبة: وضع الكتب في أيدي القراء، لكن بيرمان يرى أن المكتبة المشبوكة القائمة على إدارة من مستويات أعلى إلى أدنى تفشل بطريقتها الخاصَّة، حيث لا يتم توجيه القارئ على نحو فعال إلى المصدر الصحيح، عوضًا عن ذلك يتم تغريبه وتشويشه بفئات المواضيع التي تشدد على المعرفة المهنية، وتكون الفعاليات المنتجة هي إلى حدٍّ كبير تلك المفيدة لمديري شبكات المكتبات الكبيرة.

تبدو تلك الفعاليات الآن مقدمة على الفوز، وأُجبر بيرمان على الاستقالة المبكرة، وهذا مصير لاقاه فهرسه بعد أن حلت محله قاعدة معطيات موحدة ومبسطة وفق خطة مدروسة، وحين احتج أمناء المكتبات في أنحاء البلاد على إحباط فهرس بيرمان فكر المديرون مرتين، تبين الآن أن الفهرس سيعثر على موطن، ومن المحتمل أن يكون هذا الموطن أرشيف مكتبة مدرسة أو رابطة المكتبة الأمريكية نفسها، وكانت هذه أنباء جيدة للاختصاصيين، لكنها قدمت عزاء ضعيفًا لقراء مقاطعة هينيبين.

ربما لا يحتاج كتابي إلى عناوين موضوع متقنة أو مثيرة للجدل، ومع ذلك أتساءل: هل سيصنف المفهرسون كتابي ككتاب تاريخ، أم مذكرات، أم رواية؟ هل سيضعونه في فئة جي تي التي تتضمن كتبًا عن «العادات، والسلوك، والأطعمة، والمشروبات؟» ربما سأجده في فئة بي إس، الخاصَّة باللغة والأدب، ولكن ماذا عن الفئة سي التي

تحتوي «علومًا مساعدة للتاريخ»، خاصَّة سي دي، للرموز، والأختام، والأرشيف؟ بالرغم من الخيارات المثيرة للجدل كلها، أنا متأكد من أنني سأعثر على كتابي في فئة السيرة الذَّاتية التي أدخلها المفهرسون بتواضعهم في نهاية الأبجدية: فئة زيد التي تحمل الكلمات التالية: «كتب (عامة). كتابة. علم الخطوط. صناعات الكتب وتجارتها. المكتبات. السيرة الذَّاتية». نعم بالتأكيد حرف الزيد. وهكذا تقريبًا في قاع درج وايدنر الخاص بالرفوف الشرقية، أقف عند مستوى سي، موطن فئة زيد، وأشاهد لافتة على الباب تحذرني: «لا مدخل إلى السقف».

تتكاثر التمايزات، بأي حال، وفئة زيد مقسمة مثل البقية بمزيج من: العقلانية، والمسبق، والنزوات. أين أبحث؟ ألّفتُ كتابًا غير مسيء، وأعتقد أنه من غير المرجح أن يظهر في زيد ١٠١٩-١٠٣٣، حيث صُنفت «الكتب الممنوعة»، وبالرغم من أنه يحتوي زبدة قراءتي كلها، فإنه ليس سيرة ذاتية شخصية، يُعثر عليها في نهاية الفئة زيد ٨٠٠١-٨٩٩٩. ثم هناك «مكتبات لها علاقة مع موضوعات خاصَّة»، زيد ٢،١٦ -٨،٧١٨، زيد ٧٠٢، مواضيع مثل: «سرقة الكتب وفقدانه»، زيد ١٠٢-٥،١٠٤، والتشفير، والشفرات، والكتاب اللامرئية. أميل إلى الظن أنه يمكن أن يعثر عليه في الفئة المحفوظة ل «أفضل الكتب». لكن هذه زيد ١٠٣٥-٩،١٠٣٥- مجرد تسعة أعشار من مساحة المكان وعلى الأرجح مجال غير كافٍ.

هنا زيد ٧١٩-٧٢٥، في المنطقة الواسعة المحفوظة للكتب التي عن «المكتبات (عام)». أدور حول هذه السلسلة من الرفوف. لم تعد

اللمبات الشفافة التي اخترقت مرة الصفوف بضوء ضعيف موجودة، وحل مكانها وهج اللمبات الفلورية المرتبة.

تتوهج في الأعلى أنابيب الماء ذات الضغط العالي التي تنفتح عند نفخة الدخان أو الحرارة الأولى، وتغمر الكتب المشتعلة، لحُسن الحظ لا يُخشى من ألسنة اللهب اليوم بالرغم من أن أصوات أجهزة الإنذار تعلو في أثناء الأسبوع وتضايق بانتظام قراء وموظفي وايدنر؛ بسبب غبار الترميم وعملية البناء. كانت الفئة زيد وجيرانها هي بين الأقل زيارة من قِبل القراء، ورافق صوت وقع أقدامي على الرخام الطنين الخفيف للإنارة فوقي فحسب.

ها أنذا هنا: الفئة زيد ٧٢١ إس. ما الذي هناك أيضًا؟ أرى بضعة عناوين موحية، مثل: «المنظمون السعداء: تاريخ مازح لأمناء المكتبات وعالمهم من العصر الحجري حتى المستقبل البعيد» لريتشارد أرمور، «رعاية الكتب: مقالة حول تطور المكتبات وتجهيزاتها، من الأزمنة الأولى إلى نهاية القرن الثامن عشر» لجون ويليز كلارك، «تاريخ المكتبات» لجوريس فورستيوس، و«الأعوام الثلاثمائة وخمسون الأولى من مكتبة جامعة هارفارد»، بقلم المشرف عليّ كينيث كاربنتر. لا تستطيع أن تحصي أغلفة الكتب هنا، وثمة تنويعات بلا نهاية من قماش البقرم القاسي. مرّرتُ إصبعي على حبيبات النسيج الصلب مصدرًا حفيفًا إيقاعيًّا جافًا. لم أعثر على كتابي. انحنيت إلى مستوى الكاحل، إلى حيث يجب أن يتوضع على الرف، حيث كان كل ما وجدته بقعة صغيرة من الظلام، مكانًا فارغًا، وتجويف جنيزة، حيث الكتاب التالي يميل كي يستند على

جاره، فلم يكن كتابي هناك، وملت إلى الظن بأن أحدًا ما قد استعاره.

إن كل من: الجنيزة، والمكتبة المنزلية، وقصر الشعب، والخزانات، وقن الدجاج الخاص بربات الإلهام، فئة المكتبات التي قسمتها إلى مكتبة البارناسان والمكتبة الشاملة تقع في متاهة من الاحتمالات المتداخلة، وتحتوي أي مجموعة من الكتب على بذور عدد لا يُحصى تقريبًا من البدائل والتناقضات على غرار مكتبة بورخيس، وعلى الرغم من أن القانون شيء مبني، إلا أن الميل إلى التعميم الذي يعارض القوننة هو في حد ذاته ليس أقل بناءً. في النهاية حتى المكتبة الشاملة هي خلاصة أقل صدقًا لكلية المعرفة الإنسانية - نموذج أصغر للكون - أكثر مما هي مجرد نوع آخر من التمثيل الطقسي للحكمة الجمعية.

تحتوي مكتبة الكونغرس مائة مليون كتاب في ٤٥٠ لغة، تجسّد مدينة بابل حديثة، لكنها تشكل جزءًا فحسب من آلاف عدة من اللغات واللهجات الطبيعية التي يتحدثها النَّاس ويتصرفون بمقتضاها في أنحاء العالم. وربما تشكل المكتبة الشاملة بوفرتها المثمرة كلها، مثل: مكتبة البارناسان التي تعكس المعايير، نموذجًا من أجل كل شيء، ولكل شيء يوجد كي ينتهي هنا.

نرى مكتبات في كل مكان، باتباع حدس المفكرين بدءًا من سبينوزا وحتى آلان تورينغ، يمكننا تصور الكون بالشكل الذي تتخذه المعلومات أثناء تدفقها وتجلطها وشلالاتها وإعادة تجميعها، وقيل مؤخرًا: إن الكون حاسوب يخزن المعطيات كلها في

تنوّع بلا نهاية، وإن جميع الظواهر بما فيها تشتت الجزيئات الدون ذرية بعد الانفجار العظيم وأمواج المحيط الهادي المتلاطمة ضربات أجنحة الفراشة الملكية المهاجرة هي عمليات حسابية وقراءات.

يعود واضع السيرة الذَّاتية في العصر الرقمي إلى الممارسة المضيئة لأسلافه القروسطيين، ذلك أن أمناء المكتبة لا يحفظون النصوص ويصنفونها على غرار ناسخي القرون الوسطى فحسب، بل يبدعونها أيضًا، في شكل وسائل مساعدة على الإنترنت، وأقراص مدمجة، وتوافقات أقراص مدمجة، ونصوص إلكترونية أخرى، ناهيك عن ذكر أدلة الدراسة الورقية والسير الذَّاتية المنشورة، واتبعت النصوص الرقمية منحنى أشكال أخرى من الكتابة، وكما كان الحال في بلاد ما بين النهرين القديمة، حيث بدأت الكتابة المسمارية كعلامات تجزئة مصنوعة من الطين الرطب لحساب الماشية ومكاييل الحبوب، سجّل النصوص الثنائية لعصر الحاسوب لأول مرة مُدوّنو الحسابات والكهنة الاقتصاديون الجيدون، لكن طوائف ربات الإلهام سرقت في الوقت المناسب علامات التجزئة ورسوم الغرافيتي هذه.

سمّينا مسبقًا قواعد بياناتنا وفهارسنا التي على الإنترنت «أشياء رقمية»، وكان هذا ربما انعكاسًا لحنيننا إلى الجسد المغبر لكتبنا (سيتواصل حنينا هذا بكثرة لبعض الأجيال القادمة)، وربما ستُحفظ للأجيال القادمة النصوص المكتوبة في الوقت الحاضر التي تُترجم على الفور إلى إعلام رقمي سريع الزوال، لكن ألن تهتم تلك الأجيال بالحفاظ على بيانات التأطير التي تلمّع تلك النصوص وتنيرها؟ ألن

تبحث عن الجمال والحقيقة في الشفرة التي قصد مبرمجونا أن يجعلوها لامرئية؟

بالتأكيد ستفعل، ذلك أن النصوص الرقمية، هذه «الأشياء»، ستُصنف، وتوصف، وتُشرح، ومما لا شك فيه أن هذا سيكون عملًا ناجمًا عن حب.

إن الأشياء الرقمية للزمن الحالي هي المطبوعات الأولى لغد ليس بعيدًا جدًّا: طروسنا، الأشياء المحفوظة في جنيزتنا، نفاية ذوقنا غير المستقر الذي لا يشبع للتغير والخلود.

تشهد المكتبة في العصر الرقمي في حالة تغير مستمر، وهي غير قابلة للتمييز عن حالة أزمة، ليس فقط للمؤسسات، بل للكتب التي تحتويها، وتحفظها وتروّج لها، وهي أزمة لثقافة الآداب التي جذورها مزروعة بقوة في المكتبة، وادعت المكتبة الشاملة الإجابة على سؤال: «ما الذي ينتمي إلى المكتبة؟» في عالم يبدو أنه يفسح المجال لمزيد من المعلومات، يحتفظ هذا السؤال بقيمته، وخشي جوناثان سويفت من أن إقحام الكتب الحديثة سيدمر القوة المعيارية للمكتبة، وفحص أمناء المكتبة في الأزمنة الأحدث والأكثر ليبرالية المادة في مجموعاتهم المتنامية بعين السخط على حدٍّ سواء، وتجاسروا على فصل الحنطة عن الزوان، والجيد عن الرديء.

إن المكتبات الرئيسة في الأمكنة كلها تنزف الكتب أكوامًا، وتبيعها، وتعجنها، أو تفرزها في مخازن بعيدة بملايين المجلدات، وتعد المشكلات التي تواجهها المكتبات، كـ: الافتقار للمكان، وفقدان التمويل حقيقية وجسيمة، كما أن الخيارات التي تواجهها

شيطانية في أخطارها الكثيرة. وأثار نيكولسون بيكر السخط على مديري المكتبات الذين حكموا على الصحف اليومية بأنها شكل عابر لا يستحق الجمع المنهجي في كتابه الأخير «طعام مزدوج: المكتبات والهجوم على الورق». أعلنوا أن أوراقها الحمضية مسببة للمشاكل الخطيرة، ولا يمكن حفظها ومحتوياتها تافهة ويومية، ولهذا لا تستحق الحفظ، لكن منذ أن طرح جون دونتون مجلته «ذ أثينيان ميركوري» كوسيلة تربوية من أجل «النوع المتوسط» من الأشخاص، كانت الصحف أراضي ولادة روح العصر. وكان كتابها دائمًا المؤلفين المجهولين للمجال العام نفسه، وقال بيكر: إن الصحف عززت القفزات الكبيرة في تقنيات الطباعة، ووضعت معايير للأناقة المطبعية والجمال الغرافيكي الذي صارع طابعو الكتب لوقت طويل كي يضاهوه، ويشكّل اختفاء الصحف وإبعادها من مجموعات تدّعي الشمولية كالتي في المكتبة العامة ومكتبات أخرى، لا تُحصى خسارة تاريخية هائلة.

في المكتبة العامة المثالية كلنا قراء ل «النوع المتوسط». وحين نقرأ ما نشاء نحقق وظيفة عامة، ونحافظ على المكان المقدس للفكر الداخلي الذي هو حقنا بالولادة، ولهذا فإن الهجمات على حق الولادة في أشكال التشريع والمراقبة والرقابة خطيرة مثل إذعاننا لها.

ما نواجهه ليس خسارة للكتب، بل خسارة لعالم، وكما حدث في الإسكندرية بعد زمن أرسطو، أو في جامعات وأبرشيات بداية عصر النَّهضة، أو في مكتبات البحث المكتظة في القرن التاسع عشر، غيّرت الكلمة أساليبها، ومالت أكثر فأكثر؛ كي تعيش في بكسلات (نقاط

الشاشة)، وبتّات (ترقيطات) بدلًا من الورق والحبر، وتبدو كأنها ستختفي عن طريق ذلك، كما حدث مع المشائين القدماء الذين عدوا الكتابة شعارًا طيفيًا للحياة أو للجامعين الأميريين للمخطوطات في عصر النَّهضة الذين رأوا العالم المستعاد حديثًا للزمن القديم معرضًا للخطر على يد القوة الوحشية للمطبعة، أو مثل محبي الكتب المصنوعة يدويًّا في أوائل القرن التاسع عشر الذين مثلت الرواية البنسية (المطبوعات الرخيصة) لهم الانحلال الأخير لقوة الأدب، لكن حقيقة أن المكتبة تحملت هذه الدورات تبدو كأنها تقدم الأمل، فقد واجهت المكتبة: التكنولوجيا، وقِوى التغير، وقوة الأمراء مرة بعد أخرى، وروضتها عن طريق وصايتها على الكتب وعلى الكلمات التي تحتويها.

تشكل تغيرات كهذه جزءًا من الدورة التي لا نهاية لها من التجدد، والتي تمتلك المكتبة بالنسبة لها قراءها كي تشكرهم.

فكروا بريتشارد رايت الذي حوّل مكتبة جيم كرو التي رفضت استقباله إلى أداة لاكتشاف الذات، كما فكّروا أيضًا بفالتر بنجامين الذي بالرغم من كل بعده واختلافه عاش في العالم نفسه الذي اكتشفه رايت: غابة الكتب.

تم إيقاف بنجامين على حدود جغرافية، ومعه كتاب غير منته في حقيبته، واستخدم رايت بطاقة مكتبة استعارها من أحدهم كجواز سفر؛ كي يعبر إلى العالم نفسه، حيث كانت كتبه تنتظره غير مكتوبة.

قد تبدو المكتبة هنا على الرفوف المكان الذين تذهب إليه الكتب حين تموت، فهي في كليتها تختفي وسط غموضها الخاص الرائع.

تنمو المكتبات من عصر إلى آخر وتتغير، تزدهر وتختفي، تزهر وتذوي، لكننا نطارد عن طريقها الإسكندرية ساعين إلى استراحة في مكتبة بارناسوس، مسكونين بأساطير المعرفة والحالة الكلية التي تولدها الكتب هي تتكوم بالملايين.

إنَّ المفارقة المقدسة التي اكتشفها بورخيس وهو يتلمس طريقه عبر الرفوف تدهش أمين المكتبة المبصر تمامًا بقوة مماثلة: إنَّ الكتب بحفظها لنفسها تخدعنا، ولكن هذا ما يلهم مزيدًا من الكتب، وينخسنا كي ننهيها ونكمل المجموعة، ونضيف كتابًا آخر للمجموعة.

ملاحظات حول المصادر

حاولت أن أشير إلى معظم مصادري في الكتاب. في الآتي، أُقدِّمُ معلومات عن الكتب والمؤلفين المختارين، خاصَّة أولئك الذين يقعون خارج نطاق القراءة العامة.

آمل أن أقدم إحساسًا بالمسار الذي اتبعته، وأهمية مؤلفين آخرين كأدلة طوال الطَّريق.

الفصل الأول: قراءة المكتبة

تجسد القطعة المحددة عن المكتبة في رواية توماس وولف «عن الزمن والنهر» (نيويورك: سكريبنرز، ١٩٣٥) دراميًّا ما يجربه كثير من: الطلاب، وأعضاء هيئة التدريس، وموظفو المكتبات في غزاوتهم لرفوف مكتبة وايدنر.

تعلّمتُ عن حياة جيوسيبي أرسيمبولدو من كتاب فيرنر كريجسكورتي «جيوسيبي أرسيمبولدو» (كولون: تاستشين، ١٩٩٣).

أستمد الإحصائيات عن نشر الكتب في أنحاء العالم من «دليل أمين المكتبة»، المجلد الثاني، تأليف فلاديمير إف. ويرتسمان (نيويورك: جريوود بريس، ١٩٩٦)، وكتاب اليونيسكو السنوي للإحصاء. عدت إلى نص سينيكا في Ad Lucilium epistulac Morales الموجود في مكتبة لويب الكلاسيكية (كامبريدج: مطبعة

جامعة هارفارد، ١٩٧٩)، مع ترجمة إنكليزية قام بها ريتشارد إم. جومير. إنَّ سلسلة لويب، بنصها اللاتيني المواجه وترجمته الإنكليزية وملاحظاتها الغزيرة، تبقى بالرغم من قدمها بين أفضل مصادر الكتابات الكلاسيكية لغير المختصين، إلا إذا أفيد بشكل مختلف. آخذ كل الإشارات التالية إلى المؤلفين الكلاسيكيين من سلسلة لويب.

إن مقالة إدموند ليستر بيرسون (وودستوك، إف تي: مطبعة إلم تري، ١٩١٠)، جمع لأعمدة المؤلف الصحافية المنشورة في صحيفة «بوستون إيفننغ ترانسكريبت» وصحف أخرى.

ألّف بيرسون أيضًا «تقويم أمين المكتبة القديم» (وودستوك، إف تي: مطبعة إلم تري، ١٩٠٩)، أحد أمتع الأعمال الأدبية المزورة في القرن العشرين، فقد اقتطف عدد من: النقاد، وكُتَّاب الأعمدة، وأمناء المكتبات، أمين مكتبة بيرسون الخيالي جاريد بين بشكل كامل بطريقة مستحسنة.

يضع فرانكو موريتي في كتابه: «أطلس الرواية الأوروبية، ١٨٠٠-١٩٠٠»، (لندن: فيرسو، ١٩٩٨)، مخططًا لبدايات طريقة جديدة في النظر إلى استخدامات القراءة في التَّاريخ، بالرغم من وجود رأي مسبق شائع جدًّا حيال القراءة الأدبية على أنها التعبير الرئيس عن معرفة القراءة والكتابة.

إن علم نشأة الكون المعرفية لدى مالارميه معبر عنها في «حول الكتاب: الكتاب أداة روحية» التي قرأتها في القصائد: طبعة ثنائية اللغة (نيويورك: بنغوين، ١٩٧٧)، ترجمة وتحرير كيث بوسلي. إنَّ

عمل مالارميه العظيم (رمية النرد لن تلغي المصادفة أبدًا) مغمور بتناقض الكاتب حيال طبيعة ومعنى الكتاب. وعبّر هنري ديفد ثورو عن تناقضه في «أسبوع في نهري كونكورد وميرمياك» ـ١٨٤٩). وكان خورخي لويس بورخيس بالطبع متناقضًا أيضًا حيال المكتبات، بطرقه الخاصَّة الغنية.

إنَّ قصته «متاهة بابل»، منشورة في مجلدات كثيرة، بالرغم من أنني أواصل الاعتماد على ترجمة جيمس إي. إربي في «متاهات: قصص مختارة وكتب أخرى» (نيويورك: نيو دريشكنز، ١٩٦٤). أقتطف قصيدة بورخيس «قصيدة الهدايا» من «القصائد المختارة» (نيويورك: بنغوين، ١٩٩٩) تحرير أليكساند كولمان، الترجمة هي لأليستر ريد، وأنا ممتن لمنحه لي أذنًا بالعودة إليها واستخدامها.

الفصل الثاني: حرق مكتبة الإسكندرية

يقدم كتاب ألفرد ج. بتلر، «الفتح العربي لمصر» (أكسفورد، مطبعة كلارندون، ١٩٠٢) القصة الغربية الاستشراقية الكلاسيكية عن نشوء الخلافة، ويقدم كتاب مصطفى العبادي حياة مكتبة الإسكندرية القديمة ومصيرها (باريس: اليونسكو، ١٩٩٢) ليس فقط تغطية للقصص التي رُويت عن نهاية المكتبة المشهورة، بل يقدم أيضًا منظورًا جديدًا حول تاريخ الشرق الأدنى ما بعد الكلاسيكي، وأغنت فهمي للحياة في مكتبات الإسكندرية كتبٌ أخرى عدة أيضًا: «مكتبة الإسكندرية: مركز المعرفة في العالم القديم» (لندن: توريس، ٢٠٠٠)، تحرير روي ماكلويد، وخاصَّة مقالات بقلم

المحرر («الإسكندرية في التَّاريخ والأسطورة»)، روبرت بارنز (ديدان كتب منعزلة في قن دجاج ربات الإلهام: مكتبة الإسكندرية القديمة) وساموبل إن، سي. ليو (باحثون وطلاب في الشرق الروماني). ويستحضر لوسيانو كانفور روعة الإسكندرية القديمة ولغزها في كتابه «المكتبة المتلاشية: أعجوبة العالم القديم» (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٠، ترجمة مارتن رايل، واعتمدتُ أيضًا على كتاب رودولف بلام كاليماتشوز: مكتبة الإسكندرية وأصول الفهرسة (ماديسون: مطبعة جامعة وسكنسون، ١٩٩١)، ترجمة هانز ويليش، ويقدم الكتاب استقصاءً حيًّا لمعنى الكتب في العالم القديم وأهمية الشاعر الغنائي العظيم كاليماكوس في تاريخ المكتبات والكتاب.

في كتاب «نقش الشاهدة لتشين شيه- هوانغ: النص والطقس في التمثيل الإمبراطوري الصيني المبكر» (نيو هيفن: المجتمع الاستشراقي الأمريكي، ٢٠٠٠)، قدم مارتين كيرن ترجمات جميلة وتأويلات ذكية للنقوش الحجرية للإمبراطور أغوست الأول، وناقش علاقتها مع قصة عملية حرق كتب كين. عرّفني عمله أيضًا على الكلمة المفيدة جدًّا «الحرق المتعمد» للكتب التي يبدو أنها من اشتقاقه، واستقصى جلين دودبريدج تدمير كين للكتب في محاضرات بانيزي الخاصَّة به في ١٩٩٩ في المكتبة البريطانية، المجموعة في المجلد «الكتب المفقودة للصين في القرون الوسطى» (لندن: المكتبة البريطانية، ٢٠٠٠).

إن ترجمة بورتون واطسن للتواريخ الصينية هي أعمال كلاسيكية

مشهود لها، وطبعته لكتاب سيما كيان «حوليات، سجلات المؤرخ المهيب» (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، هونغ كونغ: الجامعة الصينية في هونغ كونغ، ١٩٩٣)، ليست استثناء. يصف غرانت هاردي استخدامات معاني القراءة في بدايات نشوء الصين، ويصف عمل سيما كيان ومصيره، في كتابه: «عوالم البرونز والخيزران: فتح سيما كيان للصين» (وايت بلينز، إن واي، مطبعة العلوم والفنون الدولية، ١٩٧٥)، وتوضح مجموعة مقالات كتبها باحثو الجمهورية الشعبية حررها لي يو- نينغ، الاستخدامات السياسية التي وُضعت قصة عملية حرق كين في خدمتها.

إن كتاب تسوين- هيسوين تسييان مكتوب على الخيزران والحرير: بدايات الكتب والنقوش الصينية (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٢) هو كتاب جدير بالقراءة ويستقصي بعمق تاريخ الكتابة ومعناها والكتب في الصين، ويصف تسييان مكتبة فانغ شان الحجرية وأهمية النقوش الحجرية في نشر الأدب البوذي، ويقدم تغطية شاملة لأشكال الكتاب في الصين ومعانيها في التَّاريخ، ويسلط كتاب ديفد ديرينجر الكتاب قبل الطباعة: القديم، القروسطي والشرقي (نيويورك: دوفرو ١٩٨٢) الضوء على الأشكال الكثيرة التي اتخذها الكتاب بطريقة ممتازة.

روى ميغيل ليون بويرتا قصة تدمير التواريخ الآزتيكية في كتابه الرائد «الرماح المكسورة: القصة الآزتيكية لفتح المكسيك» الذي ترجمه إلى الإنكليزية لاساندر كيمب (بوسطن: مطبعة بيكون، ١٩٩٢). وحرر ليون بويرتا وتبنى قصصًا لغزو المكسيك كتبها

ناسخون ناهواتليون أوائل، ترجمتها آنجيلا ماريا جاريبي كي إلى الإسبانية، وعرفتُ المزيد عن أشكال ومعاني اللغة الناهواتلية المكتوبة من كتاب جون بايرهورس تاريخ ميثولوجيا الآزتيك: مخطوطة تشيمالبوبوكا (تكسون: مطبعة جامعة أريزونا، ١٩٩٢)، وكتاب جوردون برزرستون «كتب مرسومة من المكسيك» (لندن: مطبعة المتحف البريطاني، ١٩٩٥)، وكتاب جورج ماركوس «أنظمة الكتابة في أمريكا الوسطى: الدعاية، الأسطورة، والتَّاريخ في أربع حضارات عريقة» (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٢).

قدم عالم الكلاسيكيات البارز ليونيل كاسون صورة كاملة عن مكتبات العالم القديم في كتابه «مكتبات في العالم القديم» (نيو هيفن: مطبعة جامعة ييل، ٢٠٠١). وكانت مقتطفاته الغزيرة من النصوص الكلاسيكية الغزيرة والمعرفية دليلًا لا يُقدر بثمن لقراءتي المتعمقة، واطلعت على المكتبات الرومانية في سياقها بشكل أكثر إثارة للذكريات في كتاب إليزابيث روسون «الحياة الفكرية في أواخر الجمهورية الرومانية» (بالتيمور: مطبعة جامعة جون هوبكنز، ١٩٨٥) الذي يقدم صورة تامة عن حيوات ونماذج عمل المفكرين الرومانيين، ووجدتُ منظورًا آخر حول دور الكتاب في العالم القديم في كتاب هـ. ل. بينير «عالم الكتب في الزمن الكلاسيكي القديم» (ليدن: أ. دبليو، سيجثوف، ١٩٤٨).

ورُويتْ قصة هيركولانيوم ودمارها؛ بسبب انفجار بركان فيزوف في كتاب أميديو مايوري «هيركولانيوم وفيلا بابيري» (نوفورا: مؤسسة دي أوغسطين الجغرافية، ١٩٧٤)، وأعمال

الباحثين من جامعة بريجهام يونغ والمكتبة القومية الإيطالية في نابولي مذكورة في موقع جامعة بريجهام يونغ:
www.byu.edu/news/releases/archive01/Mar/Herculaneum/photos.html.

الفصل الثالث: بيت الحكمة

تعلمتُ عن الاشتقاق المرجّح لكلمة «كتاب» والحقائق المثيرة حول استخدام الألواح الشمعية من مقالة ر. هـ. وإم. إي. راوس «مفردات ألواح الشمع»، هارفارد لايبراري بوليتين، سلسلة الأنباء، المجلد ١، العدد ٣ (خريف، ١٩٩٠).

ونوقشت أغلفة الكتب في مكتبة نجع حمادي في كتاب «آثار تجليد الكتب في القرون الوسطى»، لجي. إي. سيزيرماي (برلينغتون، في تي: آشغيت، ٢٠٠٠).

واطلعت على قصة المكتبة السريانية لموسى النصيبي، وحقائق عن حياة كاسيودوروس ومكتبات الإسلام القروسطي في مقالات من تأليف س. ك. بادوفر وإيزابيلا ستون في كتاب جيمس ويستفول تومسون «المكتبة القروسطية» (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٣٩). وناقشت ليزا جاردين دور الكتب في حيوات رجال النَّهضة المميزين في الكتاب الذي حرّرتْهُ مع أنطوني جرافتون بعنوان من الإنسانوية إلى العلوم الإنسانية: التَّعليم والفنون الليبرالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في أوروبا (كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٨٦)، وعرفت عن كوسيمو دي ميدتشي، نيكولو نيكولوي ومكتبة سان ماركو من كتاب «المكتبة العامة في

فلورنسة في عصر النَّهضة» لبيرتولد إل. أولمان وفيليب إي، ستادتر (بادوا: أنتينور، ١٩٧٢). بالنسبة لفيسباسيانو، استخدمتُ ترجمة ويليم جورج وإيميلي ووترز، «مذكرات فيسباسيانو: حيوات رجال لامعين في القرن الخامس عشر» (تورنتو: مطبعة جامعة تورنتو، ١٩٩٧). عرفتُ في البداية عن فيسباسيانو من عمة زوجتي، فلورا جرينان، أنا ممتن لها على الاقتراح. حصلت على المعلومات عن مقتنيات المكتبات القروسطية من كتاب جيمس بيدي «المكتبات في القرن الثاني عشر، فهارسها ومحتوياتها» (كامبريدج: هوتون ميفلين، ١٩٢٩). ريتشارد وماري راوس، المذكوران أعلاه، يدرسان محتويات واستخدامات مكتبة السوربون في كتابهما «شاهد أصلي: مقاربات للنصوص والمخطوطات القروسطية» (نوتردام: مطبعة جامعة نوتردام، ١٩٩١). أفادني أيضًا كتاب إل. دي. رينولدز وإن. جي ويلسون ناسخون وباحثون: دليل لنقل الأدب اليوناني واللاتيني، الطبعة الثالثة (أكسفورد: مطبعة كلارينْدون، ١٩٩١)، وقدم المزيد من الأفكار حول أهمية المكتبة في تطوير الإنسانوية. واعتمدتُ على قصة مكتبة الفاتيكان كما رُويت في كتاب «روما وُلدت من جديد: مكتبة الفاتيكان وثقافة عصر النَّهضة»، تحرير أنطوني جرافتون (واشنطن العاصمة: مكتبة الكونغرس، ١٩٩٣)، وخاصَّة الأقسام التي كتبها أنطوني جرافتون، جيمس هانكينز، والمرحوم ليونارد إي. بويل.

واعتمدت أيضًا على كتاب «مذكرات» لفيسباسيانو ومناقشاتي الخاصَّة مع ماسيمو سيريسا وأمناء مكتبة آخرين في الفاتيكان.

في مكتبة الفاتيكان استشرت مصادر المخطوطات التالية المتعلقة بالفهارس وإجراءات التوزيع في المكتبة الأولى: Vat. Lat. 3966 (سجلات التوزيع الأولى)، Vat.lat. 3955 (الفهرس الأول)، و Vat. Lat. 3966 and Vat.Lat. 3954 (فهارس لاحقة).

قرأت تأملات مونتاني حول المكتبة ترافيل جورنال)، الترجمة هي لديدفد فريمس (سان فرانسيسكو: مطبعة نورث بوينت، ١٩٨٣).

الفصل الرابع: معركة الكتب

إنَّ تاريخ فهارس مكتبة هارفارد المطبوعة باكرًا المكتبة التي وضعت لها فهرسًا موجود في كتاب «الفهارس المطبوعة لمكتبة جامعة هارفارد، ١٧٢٣-١٧٩٠»، تحرير هيو أموري ودبليو. إتش بوند (بوسطن: الجمعية الكولونيالية لماساتشوسيتس، ١٩٩٦).

تدرس إلسي فيكرز أهمية فرانسيس بيكون في الفكر الإنكليزي، ودور الأكاديميات المنشقة في الحياة التَّعليمية لبريطانيا، في كتاب «ديفو والعلوم الجديدة» (كامبريديج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٦). ويروي كتاب دبليو إتش بوند «توماس هوليز ونزل لنكولن: يميني وكتبه» (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩٠)، حياة هذا المتبرّع في هارفارد الذي دفع المكتبة والكلية نحو الحداثة.

تعتمد وجهة نظري حول الحياة المبكرة لكلية هارفارد أيضًا على قصص لبرنارد بيلين وأوسكار هانلدين متضمنة في كتاب «لمحات عن ماضي هارفارد»، تحرير بيرنارد بيلين (كامبردج: مطبعة جامعة

كامبردج ١٩٨٦). رُويت قصة معركة الكتب على نحو أفضل في كتاب المؤرخ جوزيف إم. ليفين معركة الكتب: التَّاريخ والأدب في العصر الأوغسطي (إثاكا: مطبعة جامعة كورنيل، ١٩٩١). لجمع مزيد من المعلومات اعتمدت على طبعات عدة من: الأعمال المنشورة، ومجموعات الرسائل، والوثائق المطبوعة حول حيوات وأعمال بينتلي، تميبل وووتون.

وعدت إلى هذه المصادر في المكتبة البريطانية، وخاصَّة «مراسلات ريتشارد بينتلي، دي. دي. رئيس كلية ترينيتي، كامبردج»، تحرير سي. وردزورث (لندن: جي. موري، ١٨٤٢)، و«أطروحة حول رسائل فالاريس، ثيمستوكليس، سقراط، يوريبيدس، وآخرين، وخرافات إيسوب»، كتاب ووتون «تأملات في المعرفة لقديمة والحديثة». وكتب تيمبل «مقالة حول المعرفة القديمة والحديثة».

دُرست جيدًا حياة جون دونتون المُوضَّحة بشكل خيالي في اعترافاته المؤلفة من مجلدين، في كتاب «وحي المقهى»، لجيلبيرت دي. مكيوين (سان مارينو، كاليفورنيا: مكتبة هنتغتون، ١٩٧٢). ما كان جوهريًّا لفهمي للحياة في لندن في نهاية القرن السابع عشر هو كتاب «يوميات ساموبل بيبيس» الذي صدر في طبعة كاملة ضخمة حررها روبرت لاثام ووليام ماثيوس (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٠).

وتعلمتُ عن تاريخ المكتبة الملكية من كتاب إيلين إم. بينتين «مكتبة الملك» (لندن: المكتبة البريطانية، ١٩٨٩). استقصيت مكتبة جوناثان سويفت ليس فقط عن طريق كتاب هارولد ويليامز

المذكور في النص «مكتبة دين سويفت، مع صورة طبق الأصل لفهرس المبيعات الأصلي وقصة قائمتي مخطوطات لكتبه»، (فولكروفت، با: مطبعة فولكروفت، ١٩٦٩)، ولكن أيضًا من طريق كتاب ويليم لي فانو فهارس الكتب التي امتلكها جوناثان سويفت، عميد سينت باتريك في دبلين، آب/ أغسطس، ١٧١٥ (كامبردج: مكتبة جامعة كامبردج، ١٩٨٨). كان بينها هو الجزء الأول لدراسة مؤلفة من أربعة مجلدات تدعى: «مكتبة وقراءة جوناثان سويفت»، لماينز جي. فينكين وديرك إف. باسمان (بيرن ونيويورك: بيتر لانغ، ٢٠٠٢) التي قدمت وصفًا مفصلًا لاستخدام سويفت للكتب، ليس فقط تلك التي احتوت عليها مكتبته، لكن أيضًا تلك التي عاد إليها في أمكنة أخرى.

دلني على قصة واشنطن إرفنع عن المجلد المشاكس المدفون التي ظهرت في «كراسة الرسم» (١٨٢٠)، صديقي وزميلي بيتر إكس أكاردو في مكتبة هوتون الذي استعرت نسخته للقراءة.

الفصل الخامس: كتب للجميع

سمعت قصة إينوك سواميس لأول مرة من صديقي جيمس باركر (أتمنى أن تتكاثر مدخلاته إلى الفهرس إلى الأبد).

إن القصة المرجعية للمكتبة البريطانية التي اعتمدت عليها بشكلٍ موسع، هي كتاب بي. آر. هاربر «تاريخ مكتبة المتحف البريطاني، ١٧٥٣-١٩٧٣» (لندن: المكتبة البريطانية، ١٩٩٨). وعدتُ إلى نسخة من الطبعة الأولى لكتاب جاكوب أبوت «مؤسسة هاربر» في

مكتبة هيوتون. تقوم دار أوك نول بوكس الآن بالإعداد لنشر نسخة جديدة من الكتاب من السهل الحصول عليها، وهي ممتعة جدًّا. نُشر كتاب فالتر بنجامين «مشروع الممرات» الضخم غير المكتمل في ترجمة قام بها هوارد أيلاند وكيفن ماكلفلين في ١٩٩٩، وصدر عن مطبعة جامعة هارفارد.

بالنسبة إلى قصة بانيزي اعتمدت على مصدرين: كتاب إدوارد ميلر «أمير أمناء المكتبات: حياة وأزمنة أنطونيو بانيزي في المتحف البريطاني» (لندن: المكتبة البريطانية، ١٩٨٨، وكتاب بانيزي «ممرات في حياتي الرسمية» (طبعه س. إف. هودجسون، لندن، ١٨٧١). وهناك كتابان يرويان قصة فهرس المتحف البريطاني من زمن بانيزي حتى الوقت الحاضر هما كتاب باربارا مكريمون «القوة، السياسة، والطباعة: نشر فهرس المتحف البريطاني، ١٨٨١-١٩٠٠» (هامدين، كون: كتب لينيت، ١٩٨١)، وكتاب إي. إتش شابلين جي كي: ١٥٠ عامًا من الفهرس العام للكتب المطبوعة في المتحف البريطاني (ألديرشوت، المملكة المتحدة: مطبعة سكولار، ١٩٨٧). في كتاب «تاريخ جديد للمكتبة العامة البريطانية: سياقات اجتماعية وفكرية، ١٨٥٠-١٩١٤» (لندن: مكتبة لايشستر، ١٩٩٦)، تقدم أليستير بلاك قصة قوية عن حركة المكتبة العامة البريطانية في الأوقات المضطربة.

استقيت المعلومات حول ميلفيل ديوي بصورةٍ رئيسة من المصادر الآتية: كتاب وين وايجراند «مصلح لا يمكن قمعه: سيرة ذاتية لميلفيل ديوي» (شيكاغو: رابطة المكتبة الأمريكية، ١٩٩٦)، «ميلفل

ديوي الإنسان والتصنيف»، تحرير جوردون ستيفنسون وجوديث كريمر جرين (ألباني: مطبعة فوريست، ١٩٨٣)، وكتاب فريمونت رايدر «ميلفيل ديوي» (شيكاغو: رابطة المكتبة الأمريكية، ١٩٤٤).

إن مراسلات أمين مكتبة هارفارد ويليام كوسويل الجزئية محفوظة في أرشيف هارفارد، وعرفتُ في البداية عن «البطاقات الفهرسية» الخاصَّة بكسويل من كينيث إي. كاربنتر الذي حرر أيضًا ونشر تقرير إمرسون حول كلية مكتبة هارفارد، في «هارفارد لايبراري بوليتين»، المجلد ١، العدد ١ (ربيع ١٩٩٠).

يمكن العثور على مقالات لآدامز وبول وسميت وجرين في مجلد «مجلة المكتبة الأمريكية» (١٨٧٦، «الاستمرارية»، ظهرت في عدد ٣٠ آب/ أغسطس، ١٨٩٠ من هاربرز ويكلي.

الفصل السادس: معرفة مصيرها النَّار

عثرت على تقرير لجنة جرائم الحرب البلجيكية حول دمار المكتبة في الجامعة الكاثوليكية لوفيان في مجلد من النشرات (كيو ٤٧) في مكتبة وايدنر.

كتاب فالنتين دينيس «جامعة لوفان الكاثوليكية، ١٤٢٥-١٩٥٨»، ترجمة بارثولومي إيغان، (لوفان: إن بي، ١٩٥٨)، يدرس الكتاب تاريخ الجامعة ومكتبتها.

دُرس الاهتمام الأمريكي بإعادة بناء المكتبة بعد الحرب العالمية الأولى في كتاب ثيودور كوش «جامعة لوفان ومكتبتها» (لندن: جي. إم. دينت، ١٩١٧)، حيث تظهر قصة البروفيسور وكتابه المدفون

أيضًا، استقيتُ القصة عن الزحف الألماني عبر لوفان من تقارير نُشرت في صحيفة «النيويورك تايمز»، آب/ أغسطس، وأيلول/ سبتمبر ١٩١٤.

تمت تغطية تاريخ الهجوم النازي على الثقافة بشكل يثير الإعجاب في كتاب «النازية، ١٩١٩-١٩٤٥: كتاب توثيقي»، تحرير جي. نو،كس وجي. بريدهام (إكستر: جامعة إكستر، ١٩٨٣).

اعتمدت على المجلد ٢، «الدولة، الاقتصاد والمجتمع»، ١٩٣٣-١٩٣٩، من أجل ترجمات وثائق تتعلق بخطابات النَّار، انخراط غوبلز في عملية حرق الكتب في١٩٣٣، وتطور الرقابة النازية. كتاب مارغريت إف شتيغ «المكتبات العامة في ألمانيا النازية» (تويكالوسا: مطبعة جامعة ألاباما، ١٩٩٢) هو مصدري لقصة كيف استجاب عالم المكتبة لصعود الرايخ الثالث. ومنحتني مطبعة جامعة ألاباما بلطف الأذن لاقتطاف شتيغ مطولًا.

إن مصير الكتب في المحرقة مدروس في الكتاب الممتع الذي صدر بعنوان: «الهولوكوست والكتاب: الدمار والحفظ»، تحرير جوناثان روس (أمهيرست: مطبعة جامعة ماساتشوستس، ٢٠٠٢).

أنا ممتن لمطبعة جامعة ماساتشوستس للسماح باستخدام المقالة التي ترجمها زاكاري إم بيكر حول يوميات هيرمان كروك المنشورة في ذلك المجلد.

كان من المهم أيضًا لي في هذا الكتاب الاطلاع على مذكرات دينا أبراموفيتش «المكتبة في غيتو فيلنا»، «الهجوم النازي على الأدب غير الألماني، ١٩٣٣- ١٩٤٥»، لليونيداس إي. هيل، «تعذيب غير

دموي: كتب الغيتو الروماني تحت الاحتلال النازي»، بقلم ستانيسالو جي.. بوجليز، ومقالة أندراس رايدماير «التعايش تحت النَّار: الإبادة الجماعية والحرق في البوسنة».

قدم أندراس رايدماير أيضًا مدخلًا مهمًّا إلى ملاحظاته الخاصَّة ومادته الوثائقية المؤرشفة المتعلقة بدمار المكتبة الجامعية القومية البوسنية.

أعبر عن امتناني العميق لتوجيهه.

تظهر ملاحظات أندراس حول أهمية التراث الثقافي في الصراع الإثني في مقالته «من الرماد: ماضي ومستقبل التراث الثقافي البوسني»، في كتاب «الإسلام والبوسنة: حل الصراع والسياسة الخارجية في الدول المتعددة الإثنيات»، تحرير مايا شاتزميلر (مونتريال: مطبعة جامعة مجيل كوينز، ٢٠٠٢)، ص ٩٨-١٣٥.

بنيتُ قصتي على الهجوم على المكتبة من شهادات شهود العيان التي جمعها أندراس، والتي سيتم إدخالها في وقت نشر هذا الكتاب في سجل محكمة لاهاي لجرائم الحرب. يظهر كثير من شهود أندراس أيضًا في الفيلم الوثائقي «حرق الكتب» (٢٠٠٢) الذي أخرجه كنوت جورفالد.

أنا ممتن أيضًا لجيفري سبار، المفهرس الإسلامي في هارفارد ومنسق مشروع مكتبة البوسنة، للسماح لي باقتطاف ما قاله حول الذكرى العاشرة لدمار قاعة البلدية القديمة.

من بين الكتب الكثيرة عن حروب البلقان في أواخر القرن العشرين، الكتاب الذي وجدته مفيدًا جدًّا في فهم دور الدمار الثقافي

في البوسنة هو كتاب مايكل إي سيلز «خيانة الجسر: الدين والإبادة الجماعية في البوسنة» (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٦).

أشعر بالامتنان لديفد هارسينت للسماح لي بالاقتطاف من نسخه لقصائد جوران سيميك، المجموعة في «وقت ربيعي من المقبرة» (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٧). ممتن أيضًا لجوران سيميك لتشجيعه.

إن كتاب تسيرينغ شاكيا «التنين في أرض الثلوج: تاريخ التبت الحديث منذ ١٩٤٧» (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٩٩) تاريخ مشبوب العاطفة للتبت منذ الغزو الصيني. نوقشت حالة فنون الكتاب التيبيتية على موقع المحافظة على الفن والثقافة التبتية في:

www.tibetanculture.org /culture_traditions /people . /language.htm

سنحت لي الفرصة أيضًا كي أفحص أحيانًا مجموعة من الكتب التبتية الحديثة التي اقتنتها مؤخرًا مكتبة وايدنر. عرفت أولًا عن جبل تشيلتان قرب كويتا، باكستان من مقالة كارلا برونر في سيدني مورنينغ هيرالد بعنوان: «جبل محمد، مكان تموت من أجله»، (٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، ٢٠٠١).

يروي لطيف بيدرام قصة إحراق طالبان للمركز الثقافي لحكيم ناصر خسرو البلخي ومكتبات أخرى في مقالته «أفغانستان: المكتبة تحترق»، في موقع أوتوداف، وهي منظمة دولية تدعم الكتاب والفنانين الذين يتعرضون للقمع

www.autodafe.org/autodafe/autodafe_01/art_03.h
.tm

إن دراسة إليزا جلسون «الزنجي الجنوبي والمكتبة العامة» (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٤١) تقدم معلومات مهمة عن خدمة المكتبة في حقبة جيم كرو.

كتبت إليزابيث مكهينري بشكلٍ موسع عن الثقافة الأدبية الأمريكية الإفريقية في مرحلة ما قبل الحرب. قرأت مقالتها «فصاحة ممقوتة: أصول صعود الجمعيات والمكتبات الأمريكية من أصل إفريقي»، هارفارد ليبراري بوليتين، المجلد ٦، عدد ٢ (ربيع ١٩٩٦).

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع: ضائع على الأرف

ديفد واتشيل، زميلي الباحث في المجموعات الخاصَّة في كلية اللاهوت المسيحي في نيويورك، اقترح في البداية القصة المغرية لجنيزة القاهرة عليّ في أثناء جولة في المكتبة. علاوة على مقالة شيختر (المجموعة في كتاب «دراسات في الديانة اليهودية: مختارات»، كليفلاند: وورلد، ١٩٥٨. اعتمدت على وصف بول كاهل لوثائق الجنيزة في كتابه «جنيزة القاهرة»، طبعة ثانية (أكسفورد، بلاكويل، ١٩٥٩). كتاب شيلومو دوف جوتيان المؤلف من ستة مجلدات «مجتمع متوسطي، الجماعات اليهودية للعالم العربي كما هي مصورة في وثائق جنيزة القاهرة» (لوس أنجلوس: مركز دراسات الشرق الأدنى، جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٧-٩٣، هو كتاب أكثر شمولًا ويُعد مرجعًا حول الموضوع.

يناقش توبي ليستر نسخ القرآن الأولى التي اكتُشفت في أثناء ترميم مسجد صنعاء الكبير في اليمن في مقالته «ما هو القرآن؟»، ذ أتلانتيك منثلي (كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩). قرأت كتاب ماري أنتين «أرض الميعاد»، الطبعة الثانية (برنستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٦٩، صدر أول مرة في ١٩١٢)، ومذكرات ألفرد كازن «يهودي نيويورك» (نيويورك: ألفريد إي. كنوبف، ١٩٧٨).

أشرت إلى فهرس مكتبة الكونغرس وتصنيف الموضوعات على موقع مكتبة الكونغرس:

www.loc.gov/catdir

رُويت القصة الطويلة لسانفورد بيرمان جيدًا في وثائق مجموعة وموضوعة على الإنترنت من قِبل روري ليوين في موقعه الرائع لايبرر جوس ويبسايت:

www.libraryjuice.org

أفضل تقديم لقصة بيرمان وكتاباته، هو في كتاب «كل ما أردت معرفته عن ساندي بيرمان، لكنك كنت تخشى السؤال عنه»، تحرير كريس دودج وجان ديسيري (جيفيرسون، إن سي.: مكفارلاند، ١٩٩٥).

ستعثر على هذا الكتاب، وكذلك على كتب كثيرة مسجلة في هذه الملاحظات، في قسم السيرة الذَّاتية في المكتبة (إنها مجموعة كبيرة على الأرجح. ستجدها في s010 (سير ذاتية) و020 (علوم مكتبات).

تتكاثر أنظمة أخرى: في وايدنر Zs هي جيران لباب السيرة الذَّاتية القديم في وايدنر، الBs.

هاتان الفئتان من الكتب، الموجودتان تحت ساحة هارفارد في الطابق C من وايدنر، تشكلان نعيمًا سرية للعديد من أمناء مكتبة هارفارد، وكانت منطقتهم هي أرض الصيد الخاصَّة بي في السنوات القليلة الماضية، والمصدر الحقيقي والأصلي للكتب.

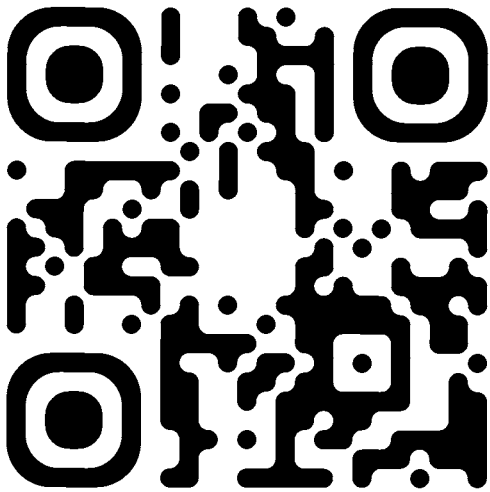

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

للكتاب الذي نمسكه بين يدينا أو نفتحه على شاشة الحاسوب أمامنا حيثما كنَّا قصة تكمن خلف تطوره ووصوله إلى شكله الحالي وذلك من خلال تبدل شكل وطنه الذي يعيش فيه، ألا وهو المكتبة. هذا الكتاب يروي لنا قصة تطور المكتبة منذ العصور القديمة إلى عصرنا هذا، وفي سياق هذا التطور يسلط الضوء على التحولات التي طرأت على الشكل المادي للكتاب من اللوح الطيني والشمعي واللفافة والمخطوط إلى شكله كما نراه الآن موضوعاً على رفوف المكتبات الكبرى أو في مكتباتنا الصغيرة.

لم تقم المكتبات بجمع المعرفة على مر العصور والحفاظ عليها فحسب، بل شكلتها أيضًا وألهمتها ومحتها، وهي تواجه أزمة الآن. يأخذنا أمين المكتبة السابق والمؤرخ ماثيو باتلز، من بوسطن إلى بغداد، من النسخ الكلاسيكية إلى أديرة العصور الوسطى وحتى عصر المعلومات، لاستكشاف كيف بُنيت المكتبات وكيف دُمِّرت: من حرق المخطوطات في الصين القديمة إلى حرق المكتبات في أوروبا والبوسنة إلى أحدث الاضطرابات الثورية في العصر الرقمي.

يأخذنا الكتاب في رحلة مفعمة بالحيوية من بوسطن إلى بغداد، ومن النسخ الكلاسيكية إلى أديرة العصور الوسطى، ومن الفاتيكان إلى المكتبة البريطانية، ومن غرف القراءة الاشتراكية والمكتبات المنزلية الريفية إلى عصر المعلومات.

telegram @soramnqraa

WWW.PAGE-7.COM
ISBN 978-603-8387-87-0
9 786038 387870
Designed by: Maher Adnan

صفحة ٧